

مكسيم غوركي

طفولتي

الترجمة الكاملة



منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان



مکسیم غورکی

طفولتہ

الترجمة الكاملة

منتقورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

كان والدي مستلقيا على الارض تحسنت نافذة غرفة صغيرة مظلمة
تعج بالغبار ، يبدو لي طويلا بشكل يلفت النظر ويدعو على الدهشة ،
وقد اكتسى بالبياض من قمة رأسه حتى اخمص قدميه . . وكانت اصابع
قدمه الحافية منفرجة عرضا بشكل غريب جدا ، تتباعد عن بعضها بفعل
حركة تشنجه ، واصابع يديه اللطيفتين ، المصلوبتين فوق صدره ، ملتوية
هي الاخرى بعناد وقوة . وكان درهمان نحاسيان يفلقان عينييه الضاحكتين ،
وقد أمسى وجهه النحيف شديد الزرقة ، هالتي منه بصورة خاصة اسنانه
الاصطناعية وبروزها بين فكيه المتوترين .

وكانت والدتي ، نصف العارية بتنورتها الحمراء القصيرة ، جاثية
قربه تسرح شعره الطويل الناعم ، المنسدل بدلع على جبينه ، بذلك المشط
الاسود الذي اعتدت ان استعمله منشارا اقطع به قشر البطيخ . كانت
تجمجم باشياء عديدة مبهمه في صوت مبجوح عميق ، وقد انتفخت عيناها
الرماديتان وراحتا تذرفان دموعا غزيرة .

كانت جدتي - وهي امرأة ضخمة الجسم ، مستديرة الرأس ، كبيرة
العينين ، ذات انف بارز يبعث على السخرية - ممسكة بيدي ، وكل شيء
فيها كثير النعومة ، عظيم الكآبة ، فائق الفطنة . . . وكانت هي الاخرى
تذرف الدموع السخينة ، لكن بطريقة خاصة تصعد نغمة رقيقة ترافق بكاء
امي . وكانت ترتجف بكليتها ، وهي تدفعني باستمرار ناحية والدي . أما
أنا فأرتني الى الخلف ، وأفتش عن مخابأ لي وراء تنورتها . . . كنت خائفا
ومتضايقا في وقت واحد . . .

كنت قد ابللت لتوي من مرض خطير طرحني في الفراش مدة طويلة ،
عادني والدي أثناءه - وأنا اذكر ذلك جيدا - وأخذ يلاعبني ويضاحكني في

نساء كثير من الجذل والمرح . ولكنه اختفى ، فجأة . وشغلت مكانه هذه المرأة الغريبة ، جدتي !

سألتها :

— هل تعبت كثيرا من السير حتى وصلت الى هذا المكان ؟

فأجابت :

— انا لم امش ، بل ركبت ! فانت لا تستطيع السير على الماء ، ايها الماجن الصغير ! لقد هبطت من نيجني نونجورود .

وقد ابهم هذا الكلام علي ، وان ترك في نفسي صدى مضحكا : كان يقطن فوقنا في المنزل بعض الفارسيين ذوي اللحى الطويلة والاجسام الناحلة ، اما القبو فيقطنه كالميكسي ذو البشرة الصفراء الذي يتاجر بجلود الخراف . وكنت استطيع الهبوط اليه بالتزحلق على حاجز السلم ، او تدحرجا اذا زلت القدم بي . . . وانا اعرف ذلك تمام المعرفة . ولكن ، ما دخل المياه في هذا الموضوع ، انها مخطئة ، وهي تخلط بين الاشياء بهوس وجنون .

سألتها :

— لم تنادينني بالماجن الصغير ؟

فمن جوابها المضحك الهازيء :

— لانك كبير جدا !

كان اسلوبها في الحديث لطيفا ، جميلا ، رائعا . . . ولقد اصبحنا صديقين حميمين ، جدتي وانا ، منذ اليوم الاول للقائنا . اما الان فقد اخذ القلق يستولي علي ، فأود لو اغادر هذه الغرفة بأقصى سرعة ممكنة .

كانت أمي تقلقني ، تملؤني دموعها ونواحيها بمخاوف غريبة لا حصر لها ، فتلك هي المرة الاولى التي اراها فيها على هذه الحال . . . كانت ، على وجه العموم ، امرأة عابسة الوجه ، صامتة ، نظيفة ، حسنة الهندام ابدا ، عريضة المنكبين كالفرس ، ذات جسد متين ، ويدين صلبتين قويتين للغاية . . . غير انها غدت الان مترهلة الاعضاء ، شعناء الهندام بشكل لا يبعث على الارتياح ابدا . . . فثيابها ممزقة ، وشعرها — وهي تسرحه عادة وتعقصه كتلة ضخمة شقراء في قمة رأسها — قد تبعثر على كتفيها العاريتين ونزل فوق عينيها ، في حين راحت خصلة منه تتراقص على وجه والدي النائم . ومع اني قضيت فترة طويلة منتصبا في وسط الغرفة كالتمثال ،

مانها لم تعرني أدنى التفات على الإطلاق ، اذ شغلها عني امر تصفيف شعر زوجها ، وواجب ذرف الدموع عليه ...

وفتح الباب فجأة ، والقي المجندي الحارس وعدد من الفلاحين السود الوجوه نظرة عجل على الفرقة ، ثم صاح الاول بحدة :
— هلموا اسرعوا ، ولحملوه خارجا !

كان حرام اسود اللون ، مسدلا على النافذة ، وهو يتطاير بفعل تيار الهواء الجاري فكانه شراع قارب صغير ، يذكرني ، دون سبب على الإطلاق ، بما حدث لي مرة عندما اصطحبني والذي في نزهة على متن مركب شرامي ، وانفجرت عاصفة من الرعد بفتة ، مضحك والذي ، وضمني بين ركبتيه ، وصاح يهدىء من روعي :

— لا بأس ، لا تخف يا بني !

وعلى غير انتظار ، تحاملت والدتي على نفسها بصعوبة ، ولكنها لم تلت ان سقطت واستلقت على ظهرها ، فانتشر شعرها على الارض ، وازرق وجهها ، وغاض منه كل لون ، وانطبقت اسنانها بعنف كأنطباق اسنان والذي تماما .

تمتعت في صوت خائف يرتعد :

— اغلقي الباب ، اخرجي الكسي !

فدفعني جدتي جانبا ، وهي تمضي ناحية الباب ...
صاحت جدتي عاليا :

— لا تخافوا ، ايها الطيبون ! لا تلمسوها ! اخرجوا ، محبة بالمسيح ! ليست هذه كوليرا ! بل بداية الامم المخاض ! ، اشفقوا عليها ، ايها الناس الكرام !

واختبأت وراء صندوق للملابس في زاوية مظلمة ، اتطلع منها الى والدتي تتلوى على الارض ، تئن وتصر بأسنانها ، بينما تتدحرج جدتي بالقرب منها وهي تتلو بلطف وجذل بعض الصلوات :

— باسم الاب والابن ! تشجعي يا ماريوشا ! يا والدة الاله العذراء ارحمينا ...

كنت خائفا ... فهما تتابعان الزحف والحركة على الارض قرب والذي ، حتى تلامسا جسده البارد أحيانا ، ثنان ، وتبكيان ، وتلطبان الخدود حزنا عليه ... اما هو ، فيرقد هادئا دون حراك ، وعلى محياه

سيماء السخرية منهما . واستمر هذا المشهد مدة ليست قصيرة ، وامي تحاول الوقوف على قدميها ، لتعود من جديد فتسقط على الارض ، بينما تقفز جدتي داخل الغرفة وخارجها كطابة كبيرة سوداء ، وأنا عاجز عن ادراك اي مغزى لذلك الاضطراب كله . . . وعلى حين غرة ، تردد في الظلمة بكاء طفل صغير . . .

تنفست جدتي الصعداء ونبرت :

— شكرا لله ! انه صبي !

واشعلت شمعة . . .

لا ريب انني استسلمت للنوم في زاوية الغرفة ، لانني لم أعد اذكر شيئا مما حدث بعد ذلك . . .

أما ثاني ذكريات حياتي فكانت اقف في بقعة مهجورة في احدى المقابر ، ذات يوم ماطر . . . على رابية قليلة الارتفاع ، فوق كتلة من التراب المزجة متحركة ، اتفرس في تلك الحفرة التي انزلوا فيها نعش والدي . كان قاع الحفرة يطفح بالماء والضفادع — حتى لقد قفزت ضفدعتان فوق غطاء النعش الاصفر اللون ، واستقرتا عليه .

كنت هناك مع جدتي ، والحارس ، وفلاحين يحملان معوليهما . وكنا جميعا ، نستحم في رذاذ بديع كان يتساقط حديثا . . .

قال الحارس ، وهو يتحرك مبتعدا :

اطمرا الحفرة بسرعة .

فانخرطت جدتي في البكاء ، وقد غطت وجهها بطرف وشاحها . . . وانحنى الفلاحان ، وهالا اول دفعة من الطين في الحفرة ، فتطاير الماء منها ، واخذت الضفدعتان تثبان على جوانب القبر تطلبان النجاة . فتردها دفقات التراب ثانية الى قاع الحفرة .

وقبضت جدتي على مرفقي ، وقالت :

— فلنرجع ، يا اليوشا !

فماثلت من قبضتها ، راغبا في العودة . . .

تنهدت بشكل ترك في بعض الارتباب :

— اه ، يا الهي !

تري ، اشكواها مني ام من رب السماء ؟

ظللت جامدة في مكانها فترة طويلة ، مطرقة الرأس ، صامتة ... ولم
يخطر لها ان تتحرك ، حتى بعد ان طهرت الحفرة تماما ..

مهد الفلاحان الارض بسطح معوليهما ، وفي هذه الاثناء هبت ريح
صرصر طردت الغيوم ، وحملت المطر بعيدا . فاخذت جدتي بيدي ، وقادتني
الى كنيسة غير بعيدة تقوم بين غابة من الصلبان السود .

والتفتت الي عندما خرجنا من المقبرة ، وسالت :

— ما بالك لا تبكي ؟ يجب ان تبكي قليلا !

فقلت :

— اني لا اشعر بهيل الى البكاء .

— حسنا ، ان كنت لا تهيل الى البكاء ، فلا حاجة لك به اذن .

ادهشني منها ان تطلب الي البكاء ... كنت نادرا ما ابكي ، واذا
فعلت فلأن بعض الناس جرح شعوري — ابدا لم ينتزع الالم الجسدي مني
الدموع — فاذا ما أهرقتها مرة ، كان والدي يضحك من عبراتي ، أما والدتي
فتأمرني قائلة :

— لا تبك ! اني امنعك عن البكاء !

وقطعنا ، بعد قليل ، دربا عريضة مغبرة تمتد بين عدد من المنازل
تجمع بين اللونين الاسود والاحمر .

سالت جدتي :

— هل ستخرج الضفدعتان من الحفرة ؟

— كلا ، لن تخرجا . غدر الله لهما !

كانت تردد اسم الله بكثرة ، وبشيء من السهولة ، لم اشاهدها
عند والدي مطلقا ...



بعد مضي عدة ايام اتخذنا ، جدتي وامي وانا ، غرفة صغيرة على متن
احد المراكب البخارية ... كان اخي الطفل مكسيم قد توفي ، وهو الان

ممدد على طاولة صغيرة في احدى الزوايا ، تلفه ثياب بيض محزومة بشريط احمر .

جلست على بعض صناديقنا وامتعنا ، اطلع الى الخارج من كوة صغيرة ، مستديرة ، اشبه بعين الحصان الصغير . وكانت المياه الغاضبة تتدفق تحت الزجاج المبتل . وتتكوم في بعض الاحيان بهوجة عاتية جبارة فتغمره برذاذها . وساعتئذ ، كنت اتفز مكرها حتى الارض ... فتنهضني جدتي بذراعيها الناعمتين وتعيدني مرة اخرى الى مكاني السابق موق الامتعة ، وهي تقول :

— لا تخف ، يا عزيزي !

كان ضباب رطب ، رمادي اللون ، يبدو كأنه معلق فوق المياه . وبين الفينة والفينة ، كانت بقعة خضراء من الارض تثبث من قلب الضباب ، ثم لا تلبث ان تتلاشى في مكان ما ، على بعد سحيق ... كان كل شيء يحيط بنا يهتز بشكل واضح جلي ما عدا امي ، التي تقف ثابتة لا تأتي بحركة ، مستندة الى الجدار وقد شبكت يديها خلف رأسها ، واغلقت عينيها بشدة واحكام ، وبدا وجهها اسود اللون ، عابسا ، خاليا من كل تفكير . ولم تفه بكلمة طوال الوقت ، حتى خيل الي انها قد تغيرت تماما ، وتجدد كل شيء فيها . حتى ان ثوبها ايضا لم يك مألوما لدي ...

كانت جدتي تلتفت اليها من وقت لآخر ، وتخاطبها بحنان وعطف لا يخطران ببال :

— هلا تناولت بعض الطعام ، يا غارارا ... لقمة واحدة على الاقل ؟ ...

ولكن والدتي تظل معتمصة بصمتها محتفظة بجمودها ...

وظفقت جدتي تحدثني همسا كعادتها ، فاذا خاطبت امي توجهت اليها بصوت عال بعض الشيء وفي شيء من الخجل والحذر ، وفي فترات متباعدة كل البعد ، مما دفعني الى الظن بانها تخاف والدتي . ولم يصعب علي فهم ذلك ، بل ضاعف تحببي الى الجدة ، وزاد الروابط بيننا شدة وتمكنا ...

قالت امي ، على غير انتظار ، في صوت مرتفع أجش :

— ساراتوف ! اين هو ذلك النوتي ؟

تلك كلماتها الغريبة غير مألوفة : « ساراتوف » ، « النوتي » ؟ .

ودخل الى الغرفة رجل عريض المنكبين ، اسود الشعر ، يرتدي بزة زرقاء ، ويحمل صندوقا صغيرا تناولته جدتي منه ، ومددت جسد أخي الصغير في جوفه . . . ومن ثم حملته ، بعد ما تم لها ما ارادت ، وخطت ناحية الباب ، وقد مدت يديها بحملها الى الامام . غير انها كانت اسمن من ان تتمكن من المرور منه الا بصورة جانبية ، بحيث وقفت عنده حائرة مرتبكة ، وهيئتها تبعث على السخرية .

صاحت والدتي ، وهي تختطف النعش من يدي جدتي :

— اوف ، ما بك يا امساح !

ثم اختفتا معا ، وتركاني في الغرفة بصحبة ذلك الرجل الازرق .
فتال ، وهو يحنو علي :

— لقد ذهب اخوك وتركنا هنا .

— من انت ؟

— نوتي .

— ومن ساراتوف ؟

— انها بلدة . انظر من النافذة ، انها .. هناك ! . . .

كانت الارض تتحرك خارج النافذة وتميد ، سوداء ، كثيرة التمرجات ، مكللة بالضباب المتصاعد منها كالدخان ، فتذكرني بقطعة كبيرة من الخبز اقتطعت من رغيف ساخن .

— أين ذهبت جدتي ؟

— تدفن حميدها .

— هل ستدفنه في جوف الارض ؟

— طبعا !

فقصصت عليه كيف طمروا الضفدعتين الحيتين يوم دفنوا والدي .
فحملني بين ذراعيه ، وضمني الى صدره ، وقبلني ثم قال :

— آه ، يا صغيري ! انك لا تدرك الا امورا قليلة بعد ! ليست الضفادع

— أخذها الشيطان — من يستحق السفطة ، بل والدتك ... انظر كم هي تتألم وتشقى !

وفجأة ، قامت فوقنا ضوضاء عظيمة هي مزيج من الزمجرة والانين والصراخ ، لم أربعد منها خوفا لانسي ادركت ان مصدرها ان هو إلا عملية تسيير المركب البخاري . وانزلني البحار من بين ذراعيه بسرعة ، وانطلق خارجا وهو يعلن .

— يجب ان اذهب !

رغبت بدوري في الذهاب ، فخطوت خارج الغرفة ... كان الممر الضيق المعتم مقفرا من الناس ، يطألني فيه ، غير بعيد من الباب ، لمعان نحاسي انه السلم . طلعت الى اعلاه ، فساهدت بعض الناس يحملون امتعه محزومة ... كان من الواضح ان الجميع يغادرون المركب ، وهذا يعني انه ينبغي علي بدوري ان اغادره مثلهم .

وعندما بلغت السطح ، وانزلت بين جميع اولئك المسافرين الواقفين على السلم الذي يصل المركب بالبر ، شرع القوم يصيحون في وجهي :

— من انت ؟ اين اهلك ؟

من اين لي ان ادري .

فراحوا يدفعونني حيناً ، ويلقونني ارضا حيناً آخر ، وينتهرونني دون انقطاع ...

ولكن البحار الاسود الشعر ظهر اخيرا ، وقال :

— انه صبي من استراخان — خرج من غرفته صدفة ...

وحملني ، وركض عائدا بي الى الغرفة حيث وضعني على الصناديق وخرج ، لكن بعد ان هددني قائلا ، وهو يهز اصبعه في وجهي :

— اياك ان تفعل هذا مرة اخرى ، والا ...

وعاد الهدوء يخيم ، شيئا فشيئا ، على المركب الذي كف عن الاهتزاز ، كما انقطع رذاذ الماء في الوقت ذاته . ولكن لهاثا من الرطوبة سد ثامقة الغرفة ، فامست مظلمة خائقة ، يخيل الي في عتمتها ان الصناديق تنتفخ وتحرق في باصرار وعناد .. دعرت ، فرحت اتساعا :

— ترى ، هل تركوني وحيدا في هذا المركب البخاري الفارغ الى غير ما
عودة ؟ ...

مضيت الى الباب ... كان مغلقا ، فلم استطع ان ادير قبضتيه
النحاسية ، فتناولت قنينة حليب كانت على المنضدة قربي ، وهويت بها بكل
قواي على القفل . فتكسرت القنينة ، وتدفق الحليب على قدمي وتسرب
الى حذائي .

أسفت من فشلي ، فتمددت باكيا منتحبا فوق الامتعة ، وحاولت ان
انام ... عندما استيقظت كان المركب يتأرجح من جديد ويهتز ، والماء يتطاير
ونافذة الغرفة تبرد كالشمس وجدتني تجلس الى جانبي تسرح شعرها
معتودة الحاجبين ، تغغم بينها وبين نفسها بأشياء عديدة . . كان لها شعر
غزير يتراوح لونه بين الزرقة والسواد ، يتدلى بكثافة فوق كتفها ،
وصدرها ، وركبتها ، حتى يبلغ الارض ... وكانت ترفعه باليد الواحدة
من الارض ، وتنثره فوق رأسها ، ثم تدفع ببداها الاخرى مشطا خشبيا ،
خشنا قليل الاسنان ، داخل جدائلها الثقيلة المتمردة . وكان نمها يلتوي
الما ، وعيناها السوداوان تلمعان غضبا ، ووجهها يبدو صغيرا رائعا فسي
وسط تلك الكتلة الجبارة من الشعر الكثيف .

كان مزاجها ، فيما يظهر ، سينا ذلك النهار على غير اعتياد . ولكن
صوتها كان ناعما ، لطيفا ، مثله دائما ، عندما اجابتنني وقد سألته عن
سبب طول شعرها :

— انه عقاب من الله — لقد قال لي : فلتنضي ايامك كلها في تسريح هذا
الراس الملعون ! لقد أعجبت به في صغري ، ولعنته في شيخوختي . ولكن ،
عد الى النوم ، يا صغري . فالوقت ما زال مبكرا ، والشمس لم تكد
تشرق بعد ، وانت في حاجة الى الراحة والسكينة .

— لارغبة لي في النوم بعد الان .

فاجابت ، وهي تعقص شعرها وتشخص الى الاريكة حيث تتمدد
والدتي بشكل تبدو معه وكأنها السهم :

— حسنا ، لا تتم اذا لم يكن لك رغبة في الرقاد . كيف كسرت القنينة
لبارحة ؟ تحدث بصوت خافت .

كانت تنغم كلماتها بطريقة خاصة ، فتتحفر الكلمات حفرا في ذاكرتي بسهولة — ما احيلاها كلمات زاهية معطرة كالورد ! وعندما تبتسم كانت عيناها السوداء ان تشعان وتشرقان بلعان لا يوصف ، وابتسامتها تفصح أسنانها البيضاء القوية ، ووجهها كله ، رغما عن التجاعيد الكثيرة المنتشرة في وجنتيها الجائفتين ، يبدو فتيا رائعا فانتسا ... ولم يك يفسد جمال هذا الحيا الا ذلك الاتف البدين الاحمر ، بخيشوميته الواسعين ، وارنبته المتأججة الحمراء . ان جدتي تتعشق السعوط كثيرا ، وتتناولها باستمرار من علة سوداء مزينة بخيوط من الفضة . وكان كل ما ترتديه اسود اللون قاتما ، الا ان نورا انيسا دافئا دائم الاشعاع يطل من عينيها ، ويلقي عليها من الداخل هالة رائعة من الضياء . وكانت فارسة القامة . منحنية الظهر حتى تقارب الاحديداب ، وان ظلت حركتها سهلة سريعة مثل حركة قطرة . والى جانب ذلك ، كانت تماثل القطرة اللبنة لطفا ورقة ...

لقد كنت قبل قدومها ، كالغارق في النوم ، محاطا بنوع من الظلمة الغريبة . فاذا بها تأتي الي ، وتبعثني من رقادتي ، وتقودني الى النور ، ومن ثم تغزل كل ما يحيط بي في خيط واحد متصل ، وتجعل منه شبكة زاهية اللون .

وسرعان ما اضحت ، الى الابد ، رفيق حياتي — الرفيق القريب والعزيز على قلبي ، والذي أستطيع ان افهمه تماما ... وكان حبها المتجرد للحياة يثقني ، ويهبني القدرة التي كثيرا ما احتجت اليها ، فبما بعد ، لاجابه بعزم وقوة مستقبلي المظلم الذي لم اكن لاعرف عنه شيئا .



كانت المراكب البخارية ، قبل اربعين سنة مضت ، تتحرك ببطء ظاهر ، بحيث قضينا وقتا طويلا حتى بلغنا نيجنى نونجورود . وانا لا ازال اذكر ، حتى الان ، تلك الايام الماضية الطافحة رقة وعذوبة ، المشوبة بالغبطة والبهجة والفرح والسرور .

ظل الطقس بديعا ابدا ... ومنذ الصباح حتى المساء ، كنت اقتعد وجدتي سطح المركب ، عائمين هناك تحت قبة السماء الزرقاء اللامعة ، بين ضفتي نهر الفولجا المزخرفتين ببساط ذهبي يطرزه الخريف

ويزينه . وكان المركب الرمادي اللون الذي يجسر وراءه قارباً صغيراً
للاتقاذ ، يتحرك ببطء وسط الماء الأزرق الضارب الى الرماد ، مقاوماً مجرى
التيار شاقاً طريقه بواسطة لطبات لطيفة خفيفة تضرب بها المجاذيف
العريضة سطح النهر المتدفق ابداً . . . اما القارب الصغير المجرور فكان اغبر
اللون ، يشبه حشرة مائية ضخمة . . . وكأنت الشمس تسير بخفة فسوق
نهر الفولجا حتى أننا لا نحس بها ، تضيف في كل ساعة شيئاً جديداً الى
بهاء الطبيعة ورونقها . . . وكان كل شيء يحيط بنا يتغير بين لحظة وأخرى ،
كما في افاصيص الجنيات . . . والهضاب الخضراء تتوج الارض الثرية . . .
والقرى والسهول على الجانبين تبدو ، وهي تمر بنا عن بعد ، وكأنها
مصنوعة من اللون الأخضر ، واوراق الخريف الذهبية اللون تعوم فوق المياه
وتسبح .

— انظر ، ما اروع تلك المناظر الطبيعية !

هذا ما كانت تقوله جدتي ، وهي تذرع السطح جيئةً وذهاباً ، يتالق
وجهاً نوراً ويغمر الفرع عينيها .

وغالباً ما كانت تنتصب ، وتسف النظر الى هذا المشهد الهاديء ،
متناسية وجودي تماماً ، وقد صلبت يديها عند خصرها ، وتحديث شفاتها
بشكل ابتسامة لطيفة ، واخضلت عيناها بالدموع . وعندئذ ، كنت اعلق
مسدوراً بتنورتها السوداء الموشاة بالوان عديدة زاهية .

كانت تقول حينذاك :

— ماذا ؟ كائني غفوت ، وحلمت حلماً لذيذاً !

— لم تبكين ؟

فكانت تبسم ، وتجيب :

— من سعادتي ، يا صغيري ! ومن ضعفي ، يا عزيزي ! لقد هربت ،
بعد أن خلفت ورائي مفصلاً ثلاثة من عمري . . .

وحينذاك ، كانت تنشق قليلاً من السعوط ، وتقص علي بعض
القصص الخيالية عن القديسين ، والحيوانات ، واللصوص الظرفاء ،
والسحر الاسود .

كانت تروي افاصيصها بصوت منخفض غريب الجرس ، وقد تجهم

وجيها ، وهي تثبت حدقتها الواسعتين في عيني ، كما لو كانت تصب في قلبي تيارا من القوة تشد به من عزمي . كانت تغني أكثر منها تنص علي حكاية ... وكلما اطالت الحديث ، كلما سجت اسلوبها ... وكان يسيطر علي فرح لا يوصف عندما استمع اليها ، حتى اذا انتهت من احدى القصص هتفت بها :

— تابعي ، يا جديتي ، قصة أخرى ! أرجوك ...

— ... وعندئذ حدث ان كان العفريت الصغير يجلس تحت المدفاة وقد أصيب بشظية ابرة كان يتأرجح في جلسته ويتأوه ... « اوه ، ايتها الفأرة الصغيرة ، ايتها الفأرة الصغيرة ! سأموت ، ايتها الفأرة الصغيرة ! »

ثم تمسك بقدمي وترفعها ، وتأخذ تهز رأسها ، فأتحة عينيها ، الى الامام والى الخلف ، وكأنها هي التي تعاني تلك الآلام .

ويتجمع حولنا البحارة — رجال طيبون لحاهم طويلة — ويفرقون بالضحك ، وهم يصيخون السمع اليها ، ثم يمتدحونها ويطلبون منها المزيد :

— تابعي ، ايتها الجدة ، وقصي علينا مزيدا من هذه الخرافات !

وعند العشاء ، كانوا يدعونها الى شرب الفودكا ، ويدعونني على البطيخ الاحمر والاصفر . كان ذلك يجري في الخفاء ، اذ كان على المركب انسان منع اكل الفواكه بسبب الاوبئة المنتشرة ، فاذا ما وقع على احدهم يأكلها اختطفها منه رأسا ، ثم القى بها في مجرى النهر . وكان يرتدي ثيابا اشبه بثياب الفقراء ، وقد صف مجموعة من الازرار النحاسية على صدر مسعطفه بتناسق جميل . وكان ثللا دوما ، يهرب الجميع منه كلما صادفوه في طريقهم ...

كانت والدتي نادرا ما تصعد الى سطح المركب ، فاذا فعلت كانت تتجنبنا وتظل معتمصة بصمتها وهدوئها . وما زلت اذكر ، حتى اليوم ، جسدها الطويل الجميل ، ووجهها الاسود الانبس المتوج بجداول من الشعر الاشقر ، وقامتها القوية الصلبة ، ان كل هذا ينبثق امامي الان ، من خلال ضباب ابيض او غيوم شفافة . ومن وراء السنين ، يأتيني حتى اليوم

بريق عينيها الرماديتين المتوحشتين اللتين تعادلان عيني جدتي في الاتساع .

قالت ، ذات يوم ، بجفاء :

— انك تجعلين من نفسك اضحكة ، يا اماء !

فأجابتها جدتي بمرح :

— فليضحك الناس ان ارادوا ذلك ، فهذا يجعل حياتهم اكثر هناء .
كان الله معهم !

وانا اذكر ذلك الفرح المصبياتي الذي استولى على جدتي عندما وقعت
عيناها على نيجني نوفجورود ... صاحت ، وهي تقبض على يدي ، وتدفعني
ناحية الحاجز :

— انظر ، انظر ! ما اروعها ! هذه هي نيجني ، مدينة الله ، حيث
ستعيش ! يا لجمالها ! انظر الى قباب الكنائس ، لكانها تحلق عاليا في
الجو !

واستدارت نحو امي ، وقد غلبتها الدموع :

— انظري ، يا فارلارا ! لا ريب انك نسيتها على ما اظن ... هيا
عبي من سرور لقياها !

ولكن والدتي ابتسمت بحزن ...

والقى المركب مرساه في ناحية تقابل المدينة المحبابة . توقف في منتصف
النهر الذي احتشد بالزوارق الصغيرة ، يطغى عليه سيل من مئات القوارب
الشراعية . وهذا قارب صغير يعج بالناس ويضيق يحاذي مركبنا ، ثم يعرج
حتى السلم الذي يصل بين المركب والشاطئ ، فإذا بلغه قفزت الجموع ،
منه ، وصعدت الينا حتى السطح . وكان يدب ، على رأس تلك الجموع ،
شيخ صغير الجسم ، نحيل القوام ، ارتدى معطافويلا اسود اللون . كانت
له عينان صغيرتان خضراوان ، واثق اقنى ، ولحية حمراء تلتصع كالذهب .

صاحت والدتي بصوت عال ، وهي ترمي بنفسها بين ذراعيه :

— ابنتاه !

فراح يمسح راسها بيديه الصغيرتين الحمراءوين ، ثم اخذ يضرب بلطف
على وجنتيها ، ويصيح مهتاجا :

— ٥٢، ٥٢هـ ! ايتها الطائشة ! اخيرا ، ها انتذي هنا ! اه — ٥٥٥ . . .

وشرعت جدتي تحتضن الجميع وتقبلهم ، وهي تدور حول نفسها
مثل المروحة . . .

صاحت ، وهي تدفعني نحو القوم

— هيا ، اسرع ! هذا هو الخال ميخائيل ، وهذا ياكوف ،
وهذه الخالة ناتاليا ، وهذان الصبيان ابنا خالك ، واسم كل منهما ساشا ،
وهذه ابنة الخال كاترينا ، كلهم يؤلفون عشيرتنا — انظر الى هذا العدد
العديد !

وسأل جدي :

— كيف حالك ، يا اماء ؟

وقبل كل منهما الاخر مرات ثلاثا . . .

و اختطفني الجد من بين الجميع وقال ، وقد وضع يده على رأسي :

— ومن تكون انت ؟

— صبي من استراخان — خرج من غرفته صدفة . . .

فسأل جدي مدهوشا ، وقد استدار جهة والدتي :

— ماذا يقول ؟

ثم دفعني الى الامام دون ان ينتظر جوابا . قال :

— لقد ورث هزال والده . فلتنزل الى القارب .

ركبنا حتى الشاطئ ، ثم تسلقنا الطريق القديمة الحجرية بين صفتين
من الارصفة العالية المكسوة بالعشب الاخضر المرتجف .

سار جدي في الطبيعة بصحبة والدتي ، وكان لا يكاد يبلغ كتفيها ، يخب
على الارض الى جانبها بخطواته السريعة القصيرة . وهي تنظر اليه من عل
تبدو وكأنها على وشك ان تطير في الهواء . . . ومشى خلفهما خالاي ، دون
ان يند عنهما ادنى صوت : ميخائيل ، بشعره الاسود الاملس ، وجسده
النحيف الذي يداني جفافا جسد جدي ، وياكوف ، بشعره الاثقل المجمع
البراق ، ومن ثم بعض النسوة السمينات بتيابهن الزاهية الالوان ، وحوالي
سنة اطفال ، وكلهم يكبرونني سنا ويفوقونني هدوءا ايضا اما انا فممشيت

وجدتني في مؤخرة الجميع ، تصاحبنا الخالة الصغيرة ناتاليا . كانت شاحبة اللون ، ذات عيني زرقاوين ، وبطن عبل . . . وكانت تقف بين لحظة وأخرى ، تلتقط أنفاسها وتخرخر :

— اوه ، لم يعد في استطاعتي السير خطوة أخرى .

فيتمتم جدي بغضب :

— لم اصطحبك معهم ؟ يا لها من عشيرة غبية !

أما أنا فلم يرق لي احد من هذه العشيرة ، لا الكبار ولا الصغار . . . احسست كأنني غريب بين هذا الجمع الفائض . حتى جدتي نفسها ذبلت قليلا في عيني ، وازدادت بعدا . .

كرهت ، خاصة ، ذلك الذي يسمونه جدي ، اذ عرفت فيه منذ اللحظة الاولى ، عدوا لي ، استفز استتباله في فضولا حذرا جعلني أوجه اليه انتباها خاصا .

وانتهينا الى اخر ذلك المرتفع . . فانتصب امامي منزل منخفض مؤلف من طابق واحد ، ينهض مقابل الرصيف الايمن في تلك البقعة المرتفعة حيث يبدأ الطريق بالقرب منه . . . كان البيت مدهونا بلون وردي وسخ ، ونوافذه متفتحة : تنتفخ تحت سقف مهدم عتيق . كان يبدو كبيرا واسعا عندما نظرت اليه من الخارج . ولكن الغرف ، في داخله ، كانت صغيرة جدا ، مظلمة ضيقة ، مليئة بجمهور مضطرب كثير الحركة والضوضاء . كان مثل مثل المركب عند تفريغ حمولته ، والاطفال يتجهرون فيه مثل العصافير الدورية ، رجوه التنظيف قد تشبع برائحة حادة غير مالوفة .

وجدتني في ساحة لا تبهج القلب مطلقا ، ازدحمت بدورها ببعض الاواني الزجاجية المملوءة ماء ملونا كزهر المنظر ، مصفوفة في كل مكان دون انتظام ، وبثياب نشرت على عدة حبال بغية تجفيفها . وكان شعاع نار تبعثها أخشاب تلهب في الموقد ، يجيء من زاوية مظلمة ، قدمة ، متأكلة ، مصحوبا بصوت غلبان وقرقرة وضجيج . . . وكان شخص غير منظور يتفوه بكلمات غريبة في صوت عال :

— اعطوني سانتالين — اعطوني زاجا — اعطوني حامض الكبريت ! . .

كان ذلك فجر حياة دائبة الجريان ، طافحة بالحوادث ، معقدة ، غريبة ، يستحيل وصفها تماما . وان ذكراها لتحيا في خاطري كحكاية كئيبة رواها لي جني طيب القلب ، لكنه واقعي حتى درجة الايلام . ولكم يصعب عليّ حتى اليوم ، اذ اعود بالذكرى الى الماضي البعيد ، ان اصدق ان هذا الماضي كان حقا على ذلك الفرار ، فأروح أميل الى انكار كثير من الوقائع ومعارضتها كيما اختصر مما كانت عليه الحياة في تلك « العشيرة الغبية » من ظلام وقسوة .

ولكن الحقيقة فوق كل نزوة شخصية . وانا لا اكتب هنا عن نفسي ، بل عن تلك البيئة الخائفة الرهيبة التي كان يعيش فيها ، وما يزال ، الروسي العادي .

كان منزل جدي مليئا بدخان العداوة الخائف — عداوة كل فرد للجميع ، هذه العداوة التي تسمم الكبار بها تماما ، وسرت عدواها الى الاطفال للصغار ايضا . وقد عرفت فيها بعد من اقاويس جدتي ان والدتي رجعت الى الدار واخواها يطالبان والدهما — بالحاح زائد — ان يقسم املاكه فيما بينهما . فاذا رجوع امي غير المنتظر يزيدهما جشعا واسرافا في الاحاح ، خوفا من ان تطلب مهرها الذي سبق لجدي ان حرّمها منه لاختيارها زوجها دون موافقته ورضاه . وكان خالاي يطالبان باقتسام ذلك المهر ، وهما بخوضان ، دون انقطاع ، جدالا مرا حول من سيفتتح مصبغة في البلدة ، ومن سغادر البيت الى كونامينو ، على الضفة الثانية لنهر اوكا .

وهكذا نشب ، ولما يمض على وصولنا زمن طويل ، شجار عنيف في المطبخ ساعة الغداء . فقد قفز خالاي بسرعة ، وارتمى فوق المائدة ، صيحان ونبهان في وجه جدي . ويكشران عن أسنانهما ، وينتفشان كالكلاب . واذا الجد يهب بدوره واقفا ، يضرب بملعته وقد اسطبغ وجهه بالحمرة ، وبصوت اجش :

— سأجعلكما نستعطيان الناس في الشوارع .

نقالت جدتي ، وقد تغضن وجهها لما :

— أعطهما كل شيء ، يا ابتاه ! هيا ، أعطهما كل شيء . وسوف تجد الراحة والسلام . اعط !

فصاح ، وعيناه نقدحان شررا :

— صمتا ، أيتها المتساهلة !

وقد بدا لي غريبا يومئذ ان يستطيع انسان بحجمه الصراخ في مثل ذلك الصوت المخوف الهائل .

ونهضت والدتي ، واتجهت ببطء نحو النافذة ، حيث استقرت وقد أدارت ظهرها للجميع .

وفجأة ، ضرب خالي ميخائيل أخاه ضربة جبارة على وجهه ، فأرسل هذا عويلا عنيفا ، وتعلق به وجذبه اليه بشدة ، فتدحرج الاثنان على الأرض يلهثان ، وينفخان ، ويتشاثمان . . .

وهنا أخذ الاطفال يبكون ، وأطلقت خالتي الحامل نائاليا من فيها صرخة يأس ، فضمتها والدتي بكلتا ذراعيها ، ثم دلفت واياها خارجا . أما يفجينا ، وهي المربية الجميلة ذات الوجه المضحك الجذور ، فأسرعت تخرج الاطفال من المطبخ . . . وتحطمت بعض المقاعد في حميا المعركة ، فأسرع الصانع ايفان — الملقب بتسيجانوك — وأمسك بظهر الخال ميخائيل ، بينما راح جريجوري ايفانو فيتش — وهو معلم ملتصع الرأس يحمل نظارتين سوداوين على أنفه — يوثق يديه بهدوء بأحدى المناشف .

وابتدا الخال يحك لحيته الرفيعة على الأرض ، ويطلق من فيه صيحات مرعبة مبحوحة ، بينما جدي يركض حول الطاولة كالمجنون ، وهو يزعم :

— أخوة ، ها ! أخوة دمويون ! تفو ! . . .

كنت قد قفزت خائفا ، عند بدء ذلك النزاع ، فوق الموقد . . . ومن هناك أخذت أراقب جدتي ، وهي تغسل الدماء عن وجهه ياكوف الدمى . وكان هذا يبكي ، ويضرب الأرض بقدميه ، بينما الجدة تقول بلهجة يائسة :

— افلا تعقلان ، أيها الملعونان ! يا لها من عشيرة متوحشة !

فرفع جدي قميصه الممزق الذي سقط عن كتفه ، وصاح :

- إليك الوحوش التي حبلك بها ، أنت ايتها الشمطاء اللعينة !
 وعندما خرج ياكوف ، تكورت الجدة على بعضها في احدى زوايا المطبخ ،
 وراحت تحدث الايقونات .
 - يا أم الاله الطاهرة ! أرجوك ان تعيدي الى ولدي ادراكهما !
 فأتانا جدي ووقف بالقرب منها ، شاخصا الى الطاولة حيث كان كل
 شيء قد اندلق وتكسر . قال بهدوء :
 - أنت يا أم ، يحسن بك ان تراقبي هذين الولدين اللذين انجبتهما !
 انهما يريدان الخلاص من فارغارا ... وما نفع هذا ؟
 - لا سمح الله ! لا سمح الله ! والان ، أخلع قميصك حتى ارفاه لك .
 وتناولت رأسه بين يديها ، وقبلته في جبهته ، فدفنق رأسه - لشدة
 قصره بالنسبة اليها - بين كتفيها ... وقال :
 - لنفضل ، فيما يبدو ، أن نقاسم يا أمه !
 - صدقت يا أبتاه ، صدقت !
 وتشاورا هكذا مدة طويلة . . كان حديثهما ، في البدء ، لطيفا محببا ،
 ولكن سرعان ما شرع جدي ينبش الارض بقدمه كديك يتأهب للبراز ، ويهدد
 جدتي باصبعه .
 قال شاكيا في همسة عالية :
 - انني أعرفك تماما ! فأنت تعنين بهما أكثر مما تعنين بي . ولكن
 ميخائيلك هذا منامق كبير ، وياكوف ذاك كائن جبان ! وسيبذران كل ما أمك
 على سكرهما وعربدتهم - بل سيبتلعانه عن آخره !
 وبحركة لا شعورية من كفي القيت على الارض المكواة ، بحيث فتمعت
 بتدحرجة فوق درجات الموقد ، ثم سقطت في سطل الماء الوسخ . فقفز جدي
 مرتاعا ، وجذبني حتى صاقتبه ، وحملق في وجهي وكأنه يراني للمرة الاولى .
 - من وضعك هناك ، على الموقد ؟ أهى أمك ؟
 - لقد تسلقت لوحدي ...
 - أنت تكذب .
 - لا ! انا لا أكذب . لقد كنت خائفا .
 فدفنني منه بلطف ، وقد ضربني براحة يده على جيني :

— انك مثال أبيك ! اخرج !

وكان سروري عظيما بالافلات من ذلك المطبخ . . .

كنت اشعر بوضوح أن جدي لا ينقطع عن ملاحظتي بعينه الخضراوين الحادثتين ، فكنت أرهيه . . . وما برحت أذكر حتى الآن ذلك الخوف الغريزي الذي يدفعني دوما إلى الاختباء من هاتين العينين المحرقتين . ورحت اعتقد انه وضيع النفس شرير ، فهو ينادي الجميع بلهجة تهجم واستهزاء ، ويسر باغاضة الناس واستفزازهم دوما .

— نفو ! يا لهم من قوم !

كان مولعا بهذه الكلمات ، يلغظها متعمدا مطا الفاء والسواو ، الامر الذي كان يرسل دوما قشعريرة ياردة يائسة .

كان جدي ساعة الراحة ، وقت تناول الشاي مساء ، اذ يغادر وخلايى والعمال المعمل ، ويدخلون المطبخ لاهئين متعبين ، وقد تلطخت أيديهم بالصباغات ، وترطبت بالحوامض المختلفة ، وعقدت شعورهم بعصابات إلى الوراء ، فاصبحوا يشبهون — في كل شيء — تلك الايقونات المظلمة الموضوعة في إحدى زوايا المطبخ — خلال هذه الساعة الخطرة ، كان الجسد يجلسني قبائلته ، تاركا أحفاده الآخرين مغيظين ، في كثير من الغيرة ، من توجهه إلى أكثر منه اليهم .

كان في مظهره العام شيء لائق جدا ، لطيف ، حتى لتقول انه منحوت نحتا دقيقا رائعا . وبالرغم من أن معطفه الحريري المطرز عتيق مهترى ، وسترته القطنية مجملكة ، وسراويله مرقعة عند الركبتين ، فقد كان يبدو أنظف من ولديه وأفضل لباسا وأحسن منظرا ، بالرغم من معطفيهما الجديدين واكمامهما المنشأة ، وأربطة عنقهما الحريري .

ولقد أرغمني ، ولما يمض عدة أيام على وصولنا ، على حفظ صلواتي . كان بمثابة الصبيان أكبر مني سنا ، يتعلمون جميعا القراءة والكتابة عن شماس كاتدرائية اوسبينسكي ، الكنيسة التي نستطيع أن نطل على قببها الذهبية الرائعة من خلال نوافذ منزلنا .

وقد اسند إلى الخالة ناتاليا امر تعليمي هذه الصلوات ، وهي امرأة رزينة وجلة ، لها وجه غرير ، وعينان ساطعتان شفافتان حتى يمكنك ، اذا ما نظرت اليهما ، أن تستشف كل ما يجول في مؤخرة رأسها من افكار .

كنت أحب ان اشخص طويلا اليها دون ان يطرف لي جفن ، فيزعجها .
هذا مني ، فتروح تضيق عينيها ، وتسبل اهدابها ، وتلوي راسها لتتفادى
نظرائي ، وتسأل في صوت أشبه ما يكون بالهيس اللطيف :

— قل معي هذا ، أرجوك : أبانا الذي ...

— وماذا تعني كلمة « الذي » ؟

فكانت تجيب ، وهي تسترق النظر فيما يحتف بنا :

— لا تسأل ! ان السؤال يزيد الامور سوءا . يكفيك ان تردد بعدي :
أبانا ... هيا ! ...

ولم أكن استطع أن افهم لم يزيد السؤال الامور سوءا .. ان كلمة
« الذي » تحمل معنى خفيا ، فكنت اتعمد تشويهها :

— الزبي ، الملاذي ...

ولكن الخالة البيضاء الوجه التي تبدو وكأنها تذوب تدريجيا ، تصحح
فولي بصبر :

— كلا ، قل ذلك ببساطة هكذا : أبانا الذي ...

ولكنها لم تك ، لا هي ولا كلماتها ايضا ، من البساطة في شيء بالنسبة
الي . وكان ذلك يبعثني على السأم والضيق ، ويجعل حفظ الصلاة صعبا
علي .

وذات يوم ، استفسر جدي عن مبلغ نشاطي فقال :

— حسنا ، يا الكسي ، ماذا فعلت اليوم ؟ اكننت تلعب ؟ اني أرى ذلك
من هذه الحدة التي تملو جبينك . لا تكن نشيطا الى هذه الدرجة حتى
تجلب على نفسك كل هذه المتاعب . ولكن ، أخبرني ، ماذا حفظت اليوم من
« أبانا » ؟

فهمست عمتي :

— ان ذاكرته رديئة للغاية .

فضحك جدي ، ورفع حاجبيه الحماويين :

— اذا كان الامر كذلك ، فيجب جلده اذن .

والتفت ناحيتي ، وسأل :

— ترى ، هل جلدك أبوك مرة ؟

فلم أفهم ما يعني بكلامه هذا ، ولذا اعتصمت بالصمت .
وأجابت أمي :
— ان مكسيم لم يضرب الحقل قط ، وكان يمنعني عن ذلك .
— ولم ذلك ؟
— كان يقول ان الضرب لا يعلم المرء شيئا .
فأجاب جدي ، وقد ساء خلقه :
— لقد كان مكسيم هذا غبيا أبله ، غفر الله له .
أغلظتني كلماته ، فقال وقد استشعر ذلك :
— فميم عبوسك ؟ ايه ، انت ! يحسن بك ان تنقته لنفسك ! سوف ينال
سائسا جلدة صغيرة لطيفة نهار السبت بسبب ذلك الكشتان .
قال هذا وهو يسرح بأصابعه شعره الاحمر المفضض . فسألت :
— كيف ستفعل ذلك ؟
فضحك الجميع ، بينما أجاب جدي :
— انتظر ، وستكتشف كيف ...

واختبأت في ركن منعزل ، وأخذت أحاول ان أتصور ذلك : ان الناس
يفتقون « ١ » الثياب التي يريدون صبغها ، ولا ريب ان هذا هو ما يعنيه
جدي . وهم يضربون الخيول ، والكلاب ، والقطط . وفي استراخان يضرب
الجنود الفارسيين — ولقد شاهدت ذلك بأمر عيني ، ولكنني لم أرقط انسانا
يضرب طفلا صغيرا . والحقيقة ان خالي كانا يضربان ، في كثير من الاحيان ،
ولديهما على الجبين او مؤخرة الرأس ، ولم يك يبدو على الضحيتين أدنى
اهتمام لذلك ، بل كانا يحكان نقرتيهما برهة وجيزة ثم يذسيان كل شيء .

وكنيت في بعض الاحيان ، أسألهم عما اذا كان ذلك يؤلمها ، فكانا
يجيبان بشجاعة :
— انه لا يؤلم البتة ...

وبلغني خبر حادث الكشتان الشهير . فقد كان خلاي ورئيس العمال ،
في الفترة الواقعة بين تناول الشاي والعشاء ، يخطون سوية بعض قطع

« ١ » في الروسية يعبرون عن الجلد وفتق الثياب بكلمة واحدة .

الشياب المصبوغة ويجعلون منها قطعة واحدة ، ثم يلصقون بها رقعة معدنية للدلالة عليها . وأراد الخال ميخائيل ان يداعب جريجوري الذي كان نصف اعمى تقريبا ، فعلم ابن أخيه البالغ من العمر تسع سنوات ان يسخن كفتان العامل على الشمعة . فحمل ساشا الكفتان فوق اللهب بملقط النار حتى أصبح احمر اللون ، ثم وضعه في متناول يد جريجوري وأسرع يختبئ وراء الموقد .

ولكن جدي دخل في تلك اللحظة ، وتأهب للعمل مباشرة ، فاذا به يدخل أصبعه في الكفتان الملتهب .

وأنا اذكر انني سمعت راكضا الى المطبخ لاعرف منشأ الضجة ، وسبب تلك الصيحة الرهيبة التي أطلقها جدي من فمه ، فوجدته يقفز بشكل يجبر على الضحك ، ممسكا أذنه بيده المحترقة ، وهو يزعم :

— من فعل ذلك ؟ أجيبوا ، ايها الوحوش !

كان ميخائيل ، في تلك الاثناء ، وقد انحنى فوق الطاولة يدعك الكفتين عليها بأصبعه ، وينفخ عليه . أما جريجوري فاستمر يخطط ثابت الجأش ، تترجح الاخيلة على رأسه الاصلع وتتراقص . . . واتانا ياكوف يركض ، ثم توارى خلف الموقد ليخفي ضحكاته ، في حين تناولت جدتي راسا من البطاطا النيئة وأسرعت تقشره .

وعلى حين فجأة ، قال الخال ميخائيل :

— انها فعل ساشا . . . ابن ياكوف . . .

فصاح ياكوف ، وقد وثب من وراء الموقد :

— ذلك كذب ! ذلك هراء !

وشرع ابنه يصيح من إحدى زوايا المطبخ متباكيا :

— لا تصدقه ، يا ابتاه ! فهو الذي دفعني الى ذلك .

وابتدأ الخصام بين خالي . . . وما أسرع ما استرد جدي هدوءه ، فوضع لفة البطاطا على أصبعه ، ثم خرج وقد اصطحبني معه دون ان يتفوه بكلمة ما .

قر رأي الجميع ان الذنب يقع على عاتق الخال ميخائيل . وكان من الطبيعي ان استفسر ، على مائدة الشاي ، ان كان سيضرب او يجلد . .

متمتم جدي ، وهو يرنو الي :

يجب ان يجلد طبعما !

مضرب الخال ميخائيل الطاولة بيده ، وفح في

— اذا لم تؤدبي جروك اللعين هذا ، يا غارة
جسده !

فاجابت والدتي :

— جرب اذن ان ترفع اصبعك عليه !...

فران الصمت على الجميع ...

كانت لها مهارة فائقة ، عندما ننطق ببعض الكلمات المختصرة ، لنهزم
ايا كان وتخمده تماما . وكنت أشعر بوضوح ان الجميع يهابون والدتي ،
حتى جدي كان يتوجه اليها بالحديث في نغمة مختلفة — نغمة اهدأ من تلك
التي كان يخاطب الآخرين بها . وكان ذلك يسرني كل السرور ...

كنت انتباهي على ابني خالسي :

— ان والدتي تفوق الجميع قوة !

فلم ينكرا ذلك أبدا ...

ولكن حوادث السبت التالي زعزعت ايماني بوالدتي ...

...

ذلك انني تصرمت بدوري ، قبل نهار السبت ، بصورة تسبب لي
المشاكل ...

كان الاسلوب الذي يتبعه الكبار في تبديل لون الثياب يدهشني وبثير
اهتمامي . فهم يأخذون شيئا أصفر اللون ، ويغطسونه في ماء أسود ، فيخرج
أزرق اللون يضرب الى السواد : « نيليا » . أو هم يغسلون شيئا اذهب
اللون في ماء أحمر ، فيخرج أسود اللون يضرب الى الحمرة : « خبريا » .
كل ذلك بسيط جدا ، فيما يبدو . ولكن غير مفهوم على الاطلاق .

وقد ساورتني رغبة خفية في ان أجرب بنفلي ذلك العمل فهمست

برغبتي هذه في اذن سائسا بن ياكوف ، وهو صبي مهذب ، وقصور ، يتعقب العمال دوما ليعرض عليهم خدماته ، فيشكره الجميع ، ما عدا جدي ، على نشاطه ومساعداته .

كان العجوز يقول : وهو يتطلع باحتقار الى الصبي :

— تفو ! يا للمنافق الصغير !

كان سائسا يميل الى السواد ، رقيق الجسم ، ذا عينيْن مُنتفختين ثمائلان عيني السرطان . وهو يتحدث بصوت هادئ سريع النبرات حتى ليزدرد نصف كلماته ، ويضرو هنا وهناك خلصة وبصورة غريبة ، فكأنه يعد حطة للهرب والاختفاء . وغالبا ما كانت حدقاته البنيّتان تجمدان فلا تأتيان بحركة البتة ، فاذا ما أغاظه شيء تبدلت حالهما ، وراحتا ترتجفان ارتجافا ، يصاحبهما في ذلك بياض العين كله .

وبالرغم من ذلك لم أكن أحبه أو أميل اليه ابدا . كنت أضمر محبة اكبر لابن ميخائيل — واسمه سائسا ايضا — رغم ما يكتنفه من غموض ، وما يبدو عليه من حماقة . . . كان هادئ الطبع ، له عينا والدته الحزینتان وابتنسامتھا الفاتنة . وكانيت أسنانه بشعة كل البشاعة — اذ تندفع خارج فمه ، وتنحني بشكل صفيْن مضاعفين متراكبين في فكه الاعلى . وكان اصلاحها شغله الدائم ، فأصابعه ابدا في فمه يحاول أن يخلع بها اسنان الصف الخلفي . وكان يسمح ، متلطفا طائعا ، لاي انسان يرغب في تفحصها ان يفعل ذلك . ولكنني لم أقسع على شيء اخر فيه يثير الاهتمام . كان يبقى على الغالب ، منعزلا في ذلك المنزل الصاخب يقبع وحيدا في احدى الزوايا المظلمة الدامسة ، أو يقضي أمسياته قرب النافذة ، وكان يبهجني ان صاحبه تدثرا بالصمت أقعد الى جانبه قرب النافذة وأظل ساكنا مدة ساعة من الزمن أو يزيد ، أراقب الغريسان تحط وتحلق فوق كاتدرائية اوسبينسكي التي تنتصب قببها الذهبية الرائعة في بروز جميل تواجه فيه الاشعة الحمراء التي يبعثها مغيب الشمس . كانت الغريبان تحلق في أعالي الجو ، ثم تندفع هابطة . . وعلى حين غرة ، تنشر اجنحتها السوداء في السماء المريضة الحرة ، ومن ثم تختفي خلفه وراءها فراغا هائلا ميتا ، فاذا بك تفقد كل رغبة في الكلام ، وانت تشخص الى هذه الامور تجري امام عينيك ، لان صدرك يمتلئ عندها بسرور مؤلم .

أما ساشا ، ابن الخال باكوف ، فباستطاعته ان يتحدث ما شئت عن جميع الامور مثل رجل بالغ وبصورة مؤثرة حقا . . . وعندما عرف رغبتى في تعلم مهنة الصباغ نصحنى بالجوء ، في تجربتي الاولى ، الى غطاء المائدة الكبير الخاص بأيام الاحاد والاعياد ، فأخذه من موضعه في الخزانة ، واصبغه باللون الازرق القاتم .

قال لي القاتم

وقال لي جادا :

— ان الاشياء البيضاء تتقبل الالوان اكثر من اي شيء اخر ، وأنا واثق من ذلك .

. فاستوليت على الغطاء الثقيل الثمين ، ، وركضت به حتى الساحة . . . ولم اكد اغطس اطرافه في حوض « النيل » حتى رمى تسيجانوك بنفسه على ، واختطف الغطاء من بين يدي ، وعصره بيديه الكبيرتين ، وصاح بآبن خالى الذي كان يراقب ذلك من المظلة :

— اركض وادع جدتك !

والتفت ناحيتي ، وحك رأسه العريض منذرا بالشر . قال :

— ستنال نصيبك من دون ريب .

واسرعت جدتي الينا ، وراحت تلهث عندما رأت فداحة ما ارتكبت ، حتى انها سكبت بعض الدموع وهى تعنفني بطريقتها المضحكة .

— آه منك أيها اللعين ، آه منك ومن اذنك الشبيهتين باذني الفيل . فلبسك الشيطان ويرميك ارضا . لا بد ان تقبذ وتجلد . . .

وعندها شرعت تتوسل الى تسيجانوك :

— لا تخبر جده بهذا ، يا غانيا ! سأخبره ، ولعل الامور تجري خرا . . .
ساجاب غانيا مغتاظا ، وهو يمسح دمه الندية بمئزره الملوث بالصباغ :

— لا تقلقي من جهتي : فهذا لبس من شانى ! ولكن يحسن بك ان تنتبهى لما سيثرثر به ساشا .

فقلت ، وهي تنطلق بي ناحية البيت :

— سأعطيه بعض الدراهم ليسد بها فمه .

وفي ذلك السبت ، قبل صلاة الغروب ، صحتني أحدهم — ولم أعد اذكر هويته الى المطبخ . . كانت الظلمة والسكون يخيمان هناك . . واني لاذكر ان الابواب المفضية الى الممشى ، وابواب الغرف الاخرى كانت جميعا مرتجة باحكام ، بحيث توارى مساء الخريف ، اشهب اللون كثير الضباب ، خلف النوافذ التي كان المطر يسامرها هامسا وهو يتساقط عليها ، وكان تسيجانونك يجلس على دكة صغيرة قبالة الموقد الاسود الكبير ، وهو اسوان على غير عادته . وقد وقف جدي قرب برميل قائم في احدى الزوايا ، يسحب من الماء عدة قضبان طويلة مقطوعة من احدى اشجار البتولا ، ومن ثم قاسها ، وجمعها في حزمة واحدة ، وضربها في الهواء ببأس كبير . . . وكانت جدتي تستنشق السعوط في مكان شبه مغمور بالعتمة ، وهي تهمهم :

— انه مبتهج ، هذا الظالم الوحش !

وكان ساشا ، ابن الخال ياكوف ، متراكما على احد المقاعد في منتصف المطبخ ، يفرك عينيه باصابعه ، ويعول كأحد المستعطين الشيوخ :

— سامحني ، لاجل المسيح . . .

ووقف ساشا ، ابن الخال ميخائيل ، واخته الصغيرة متلاصقين وراء الطاولة ، جامدين كتمثالين قدا من الحجر الصلد .

وأجاب جدي : وهو يمسح على كفه قضيبا طويلا مبللا :

— سأصفح عنك بعد ان تنال نصيبك كاملا . حسنا ، اخلع سروالك .

كان يتكلم بهدوء ، ولم تستطع نغمة صوته ، ولا حركات الصبي المتربع على الكرسي ، ولا ضربات قدم جدتي ، تدنيس حرمة الصمت المسيطر على ذلك المطبخ الظليل الجاثم تحت ذلك السقف المنخفض المطلي بالهباب .

ونهض سائسا ، وفك سرواله ، وانزله حتى ركبتيه ، وجثا معتمدا على الدكة ، وقد تقوس بكامل جسده . كان النظر اليه يحز في النفس حتى ان قدمي طففتا ترتجفان بشدة . ولكن المشهد ازداد ايلاما عندما اضطلع بضعف ، ووجهه الى الدكة ، واخذ فانيا يقبده بمنشفة طويلة مر بها تحت الابطين وحول العنق . ثم انحنى ، وامسك به من عقبيه... .

صاح جدي :

الكسي ! تعال هنا ! حسنا ، مع من اتكلم ؟ انتسرب وانظر ما عنيت به بالجلد ! انظر مليا ! واحد

وبحركة خفيفة من ذراعه رفع القضيب واهوى به على جسد سائسا العاري ... فآخذ الصبي يعول وينوح .

قال الجد :

— لا تكذب ! ... فتلك لم تؤذك ! ولكن هذه ستفعل !

وضرب ضربة قوية رسمت على جلد الصبي ، بسرعة غريبة ، توردت طاهرا . ثم خلفت عليه تورما احمر اللون قائما . فانطلق من ابن خالي عويل طويل متتابع

وحرك الجد ذراعه حركة موزونة من الاعلى الى الاسفل ، وسال :

— اما احببتها ؟ اما وافقت مزاجك ؟ هذا ليس بكشفتان ؟

كان يهب في صدري ، كلما رفع ذراعه ، شيء مجهول يصاحب حركته ، وايمان ما ضرب بيده كنت كمن يتلقى تلك الضربات منه .

وشرع سائسا ينتحب بصوت عال ، حاد ، يبعث الالم في قلب السامع اليه :

— لن افعل ذلك ثانية ! الم اخبرك عن غطاء الطاولة ؟ فانا الذي اخبر

— وشيت ؟ ان وشايتك لن تشفع لك او تخفف ذنبك ! ان للواشي السوط الاول ، وهذه ايضا لك بسبب الغطاء !

فارتمت جدي علي ، واحتضنتني بين ذراعيها :
— انني لن اعطيك الكسي أبدا ، لن اعطيك ... لن أدعك تفعل ذلك ؛
ابها الوحش !

وظفقت تضرب الباب ، وتصيح :

— فارفارا ! فارفارا !

فهاجم عليها جدي ، ورماها على الارض ، واختطفني ، ثم حملني حتى
الدكة ... كنت اجاهد جهاد اليائس لافلت من بين ذراعيه ، اشد له لحيته
الحمراء ، واعض له اصبعه . فشرع يزار ويشدد الضغط علي ، ثم رمى بي
اخيرا على الدكة فاصطدم وجهي بعنف شديد . وما زلت أذكر جيدا صياحه
الوحشي :

— اربطه ! ساقطله !

وكذلك اذكر وجه أمي الابيض ، وعينيها الكبيرتين ... تركض وراء
الدكة وامامها ، وهي تحشرج :

— كفى ، يا ابتاه ! اتركه ، رده الى !

وظل جدي يضربني حتى فقدت الوعي . وبقيت ، بعد ذلك ، عدة أيام
أعاني المرض ، وقد مددوني على صدري في سرير دائس عريض ، في غرفة
صغيرة ذات نافذة واحدة ، يضيء في أرجائها نور قنديل أحمر باهت يحترق
على الدوام في زاوية الايقونات .

كانت أيام مرضي احدى المراحل الهامة الرئيسية في حياتي . وكنت
خلال تلك الايام ، وكأنني انمو سريعا واتحول من حال الى حال جديد — ومنذ
ذلك اليوم ، ظهر عندي ذلك الانتباه القلق العميق نحو المخلوقات البشرية ،
مكائنا الجلد قد تمزق عن قلبي ، فاصبح حساسا بصورة غير مألوفة لا تكاد
تصدق حيال الامتهانات والالام الانسانية التي اعانيها انا او يعانها سواي
من البشر .

وقد فجمعت ، بادىء الامر ، بذلك الشجار الذي نشب بين أمي وجدتي
... . كانت هذه الجدة الكبيرة السوداء ، في تلك الغرفة الصغيرة ، تنفض

على امي وتحصرها في زاوية الايقونات ، وهي تغغم :

— لم لم تختطفه بعيدا ؟ تولي !

— كنت خائفة !

— مخلوقة كبيرة مثلك تخاف ! يجب ان تخجلي ، يا مارغارا ! انا لم اخف بالرغم من كبر سني ! ذلك مخجل حقا !

— انك لا تحبينه ! ولا تحملين عطفًا لذلك اليتيم الصغير المسكين !

— انني يتيمة انا الاخرى — لقد كنت وسأبقى يتيمة طوال حياتي !...
قالت والدتي هذا بصوت مرتفع ، حزين الرنة ..

وحينئذ شرعنا تبكيان ، وقد جلسنا على الصندوق بالقرب من الزاوية.

قالت والدتي :

— لولا الكسي لوربت بعيدا ! الى مكان ناء حيثما كان ، ههنا لا أستطيع العيش في هذا الجحيم ! انا لا اقدر ، يا اماء ! وليس لدي الطاقة الكافية !

فهمست جدتي :

— آه يا ولدي ، يا فلذة كبدي !

استنتجت من ذلك ان امي ليست على شيء من القوة . فهي ، كالآخرين ، تخاف جدي وترهبه ... وانا مسؤول عن بقائها في ذلك المنزل حيث لا تستطيع للحياة تحملا . ما اقسى ذلك ! وسرعان ما اختفت والدتي بعد زمن . اخبروني انها مضت تزور بعض الامكنة ، ولكنني لم اعرف قط اين ذهبت ...

وذاث يوم جاءني جدي ... حدث ذلك فجأة ، فكانه سقط علي من السقف ... جلس على حافة السرير ، وراح يداعب رأسي باصابعه الباردة كالثلج ..

— صباح الخير ، ايها الشاب الصغير ! هيا واجب على بؤالي — لا

تحقد علي — حسنا ، كيف حالك ؟

فاحسست رغبة في ان ارفسه . ولكن الحركة كانت تؤلنسي كثيرا .
جلس الى جانبي ، يبدو لي شعره اكثر احمرارا منه في اي وقت مضى ،
وهو لا يفتأ يهز راسه بشكل متعب ، في حين علقت عيناه اللامعتان بالجدران ،
فكأنهما تبحثان فيها عن شيء ما . واخرج من جيبه كعكة من الزنجبيل ،
وقضببين من سكر النبات ، وتفاحة ، وبعض الزبيب ، ووضع ذلك كله على
المخدة بالقرب من انفي :

— انظر ! لقد حملت اليك بعض الهدايا !

نم انحنى وقبلني في جيبني وراح يتحدث وهو يضرب بلطف على
جبهتي ، من آن لآخر ، باصبعه الصغيرة الممتلئة ، الملوحة باللون الاصفر
الفاقع ، وخاصة حول الاظافر المعوجة الشبيهة بمخالب الطيور :

— لقد ضربتك اكثر مما تستأهل ذلك اليوم ، يا صغيري . وانا اعترف
بذلك . لقد فقدت صوابي . لقد كنت مجنونا . وانت ضربتني ، وعضضتني ،
و . . . حسنا ، لقد ثارت ثائرتي . . ومن حسن حظك ، على اية حال ، انك
نلت علاوة هذه المرة — وسأخصمها من حسابك في المرات القادمة . يجب ان
تذكر فقط شيئا واحدا — ان ضربك احد من ذويك فهو لا يقصد اهانتك ، بل
تربيتك وليكن هذا درسا مفيدا لك ! ولكن ، اياك ان تدع الآخرين
يلمسونك بسوء — ذلك مجاز لاهلك فقط — فهم لا يحاسبون عليه ! انظن
انني لم اثل نصيبي في صغري ؟ لست تستطيع ان تتصور ، في اكثر احلامك
رداءة ، كيف كانوا يضربونني ، يا البوشا ! كانوا يضربونني بوحشية لو كان
الله شاهدا عليها لبي وماذا كانت نتيجة ذلك ؟ انظر الي الان فقط —
انا ، البتم ، ابن مستعطية عجوز — اراس الان معملا كاملا ، وأمر الناس
المحيطين بي .

واقترب مني بجسده النحيل المحكم البناء ، وراح بروي لى قصة
طبولته ، وكلماته الثقيلة تسترسل ، الواحدة تلو الاخرى ، بهارة فائقة
ودون صعوبة على الاطلاق .

كانت عيناه الخضراوان تشعان ، وشعره يلتصع كالذهب ، وصوته يزداد حدة ، وهو ينفخ في وجهي :

— لقد جننت الى هنا على ظهر مركب بخاري . فالبخار ، اذن ، هو الذي حملك حتى هذا المكان . ولكنني عندما كنت صغيرا ، كانت قواي وحدها تصارع أمواج الفولجا ، وهي تجر العوامات الخشبية . كانت العوامة تنزلق على الماء ، اما انا فاسير على الضفة ، حافي الاقدام ، فوق تلك الحجارة المدببة والاشواك المسنونة ، منذ بزوغ الفجر حتى هبوط الليل ، والشمس نشع لاهبة حتى لتحس برأسك قدرا من الحديد يغلى في داخله شيء ما . وانت منحن حتى يقابل رأسك قدميك ، وعظامك تصرصر ، ولكنك تدب وتدب دون توقف ، ودون ان ترى الى اين ، والعرق يتصبب في عينيك ، وقلبك يئن ، وشفتاك ترتجفان — آه ، نعم ، يا اليوشا ، انك لا تستطيع ان تتذمر ، بل تظل تسيير وتسير حتى تسقط من اعياء ، ووجهك الى الارض مدفون فيها . انك لتغتبط بذلك لانه يعني على الاقل ان قوتك قد تلاشت جميعا عن اخرها ، وان عليك ان تستريح بعد الان او تموت من شدة الاعياء ، والامران عندك سواء، هكذا كنا نعيش تحت نظر الله ورحمة شفيعنا السيد المسيح . . . ثلاث مرات في حياتي قست طول امنا الفولجا بالرغم من عرضه واتساعه : من سمبيرسك حتى ريبينسك ، ومن ساراتوف حتى هنا ، ومن استراخان حتى ماكاريف ، وهي تساوي مسافات تزيد عن الالف الفراسخ . وفي السنة الرابعة فقط رقيت الى درجة بحار ، فقد ادرك الرئيس اخيرا اننى اكثير من مجرد حيوان للجر .

كان ينمو امام عيني باستمرار ، كلما قطع في حديثه شوطا جديدا ، مثل سحابة تتحول من مخلوق صغير الى بطل ذي قوة خارقة — بطل يستطيع لوحده ان يجر عوامة شهباء اللون ضد تيار النهر العظيم .

كان يقفز ، في بعض الاحيان ، عن السرير ، يمثل لي كيف كانت العوامة تتقدم بواسطة حبالهم ، وكيف كانوا يجذفون المياه ، ثم يأخذ بانشاد اغنيات غر مألوفة بصوت عميق . ويعود فيثب ، كرة اخرى ، ويجلس على السرير ، مخلوقا مدهشا يتابع الحديث في صوت يزداد عمقا واقتناعا حينما بعد حين :

ورغما عن ذلك كله ، يا الكسي ، كنا نستريح في احدى ليالي الصيف في ريجولي ، ونشعل نارا تؤرثها الاخشاب عند سفح احدى التلال الخضراء —

اوه ، لقد كانت تلك اياما ممتعة حقا ، يا الكسي ! فهذا الحساء يغلي في قدره ، وهؤلاء بعض المراكبيين يترنمون بأغنية حماسية يخفون بها عن قلوبهم بعض الغناء ، فنشاركهم بها بدورنا - اوه ، كان الغناء يحفز كل جارحة فينا ، ويدفعنا للاستزادة منه ، والعب من منهلته . حتى يخيل اليك ان الفولجا نفسه يضاعف من شدة جريانه ، مثل حصان غاضب يزمجر ويهاجم بعنف عنان السماء ! وعندها كانت متاعبنا تضلح وتتلاشى كما بتلاشى الغبار امام الريح ! وكنا ننسى في غنائنا ، ذلك الحساء حتى يفور وينصب على النار . فنلثفت الى الطاهي ، نصب على رأسه ثورة حامية الوطيس :

« لك ان تتمتع باغنيتك ، ولكن اياك ان تنسى وظيفتك ! » .

ولقد جاعوا الى الباب يطلبون جدي عدة مرات ، فكنت اتوسل اليه في كل مرة :

— ابق لحظة اخرى !

فيضحك ، ويلوح بذراعيه ، ويصيح :

— انتظروا ! هناك ...

واستمر يسرد لي حكاياته حتى المساء . استنتجت عندما ودعني ومضى ان جدي لم يكن مخيفا ولا شريرا .

كان الالم يعصر قلبي بقسوة كلما تذكرت انه هو الذي ضربني ذلك اليوم بكل تلك الوحشية والقسوة ، فاجرب ان اتناسى تلك الحقيقة دون جدوى .

وفتحت زيارات جدي الباب على مصراعيه لكل طارق ، فكان أحدهم يتبع على سريري منذ الصباح الباكر حتى هبوط الليل ، يحاول تسلبتي بطريقته ما . واني لأذكر ان تلك المحاولات لم تكن تتكلل بالنجاح دوما .

وكانت جدتي تعود اكثر من اي شخص اخر ، بل كانت تقاسمني الفرائس دائما . ولكن الشخص الذي ترك الاثر الاكبر في ذهني هو تسيجانوك

من دون أدنى ريب . جاعني ذات مساء شابا وافي القامة ، عريض المنكبين ،
ذا رأس كبير يفرشه شعر مجعد اسود اللون فيغطيه ، وهو يرتدي ثياب نهار
الاحد المؤلفة من قميص حريري فاتح اللون ، وسروال عريض من المخمل ،
وحذاء يصصر عند كل خطوة ، ويتجمع عند العقب كالة الاكورديون . وكان
شعره يلمع ، وعينه المنحرفتان تشعان جذلتين تحت حاجبيه السوداوين ،
واسنانه البيض تبرز من تحت الخطوط الضيقة لشاربيه الفتيين ، وقميصه
يتوهج وهو يعكس بعذوبة الضوء الاحمر الذي يبعثه قنديل الايقونة .

وسحب كم قميصه ليكشف لي عن جروح حمر صغيرة في ذراعه ، وقال :

— انظر يا صاحبي ، اترى مبلغ تورمه ! ولكنه كان اسوأ من قبل ، ثم
اندمل شيئا فشيئا ... لقد ادركت ان الغضب افقد جدك كل ما لديه من
صواب ، فازمع ان يضربك حتى الموت ، ولذلك وضعت يدي اتلقى بهما
ضربات، القضيبي آملا ان يتكسر ، فيضطر بجدك عندها للاستعاضة عنه باخر
جديد ، معطيا بذلك لوالدتك او جدتك فرصة لاختطافك بعيدا ... ولكن
القضيبي لم يتكسر ، اذ كان مبللا ومرنا للغاية . ولكني ظلمت اتلقى عنك
بعض الضربات ، وانت تستطيع ان ترى بنفسك كم كان عددها ! نعم ..

وضحك ضحكة فتانة ناعمة ... ثم اضاف ، وهو ينظر ثانية الى ذراعه
المنتفخ :

— لقد شعرت بالاسف من اجلك حتى انبهرت انفاسي . وادركت ان
عاقبة عمله ستكون وخيمة ، ولكنه استمر فيه وهو يؤرجح ...

ونفخ بمنخريه كالحصان ، وهز رأسه ، وراح يمثل لسي حركات جدي
بطريقة صبيانية بسيطة استطاعت ان تنال ، بسرعة عجيبة ، كل عطفي ...

وأخبرته انني احبه كثيرا ، فأجابني بذات تلك اللهجة البسيطة المحببة :

-- وانا خصصتك بشرة قلبي . ولذا تحملت ذلك الالم من اجلك — من
اجل حبي لك . انظر اني افعل لاي كان ؟ فليذهب باقي الناس الى الجحيم !
انا لا يهمني امرهم !

ثم اعطاني امثلة ، وهو يتطلع الى الباب بنظرات مسترقة . قال :
— عندما يجلدونك مرة اخرى فلا توتر اعضاءك ، اتسمع ؟ ان ذلك
يضعف الالم مرتين . ولكن ، اجعل جسدك يتمدد مرتاحا ، حتى يصبح طريا
ناعما مثل الجلاتين . ولا تقطع نفسك ابدا . تنفس باقصى ما تستطيع من
رئيتك . مذكر هذا جيدا ، ذلك افضل لك !

فسألت :

- وما فائدة ذلك ؟ هل سيعودون الى جلدي ؟
- فاجاب نسيجانوك بهدوء :
- وماذا تظن ؟ بالطبع سيفعلون ! سيفعلون ذلك كثيرا .
- ولاي سبب ؟
- ان جدك سيخترع سببا لذلك ، حسنا !

ومرة اخرى راح يعلمني ، باهتمام عظيم ، ماذا يجب ان افعل :
— وإذا بدأك بالضرب فارتسم على الارض فقط ، والسزم الهدوء بحيث
تستطيع ان تتمدد براحة ودون حراك . فان تابع الضرب وانت على الارض،
واخذ يشد القضيب اليه حتى يسلم عن جسدك الجلد ، فتدحرج عندهذ
ناحيته ، بل ناحية القضيب ، اتسمع ؟ ان ذلك يجعل الضربات اكثر احتمالا !
وتبت في نظرة جانبية سوداء ، وقال :

وفيما يتعلق بالتعذيب فان لي الماما يفوق المام رجال الشرطة . اذ
يمكنك ان تصنع زوجا من القفزات بما انسلخ عني من جلد .
ونظرت الى وجهه الجدلان ، متذكرك اقتاصيص جدتي عن الامير ايفان،
وايكفانووسكا الاحمق ...

اتضح لي ، بعد ان اخذت صحتي بالتحسن ، ان تسيجانوك يشغل مركزا ممتازا بين سكان منزلنا ، فجدي لا يصيح في وجهه بخشونة وكثرة كما يفعل مع ابنائه ، بل يضيّق عينيه ويحك رأسه عندما يتحدث عنه في غيابه :

— ان ايدي ايفان مصنوعتان من الذهب ، أخذه الشيطان ! سيكبر مثل الجبل ! تذكروا ما اقول : هذا الذي يعيش بيننا ليس بالانسان الموضع ، ولسوف يشق لنفسه دربا ...

كانت علاقات خالي مع تسيجانوك حسنة ايضا ، فهما لا يحاولان التلاعب عليه ابدا كما يفعلان مع المعلم جريجوري . كانا يستنبطان ، في كل مساء تقريبا ، لعبة دنيئة ضد هذا الاخير — فيسخران مقابض مقصاته ، او يثبتان في مقعده مسمارا رأسه في الهواء ، او يقدمان اليه اقمشة مختلفة الالوان فيخيطها لقصر بصره — ببعضها في قطعة واحدة دون ان ينتبه لالوانها ، مما يؤدي الى خلاف عنيف بينه وبين جدي .

وحدث ذات مساء ، بعد العشاء ، ان مضى جريجوري وغفا على الدكة القائمة في المطبخ ، نصبغا وجهه بالقرمز . وبقي بعد ذلك فترة طويلة أشبه بالمهرجين ، يتدلى أنفه الاحمر الطويل كاللسان بين قرصي نظارته الاسودين اللذين يسطمان ببلادة فوق لحيته الشهباء .

كان خلاي لا يفرغان من ابتكار امثال تلك الالاعيب ، وجريجوري يتحمل ذلك صاغرا دون ان ينبس بحرف واحد ، بل يجمع بينه وبين نفسه ، ويحترس من التقاط المقصات ، او الملاقط ، او الكتبتان ، او أي شيء حديدي آخر ، الا بعد ان يلمسها باصابعه المبللة بلعابه . وامست هذه عادة لا تفارقه ، حتى اضحى يبلل اصابعه باللعب حين يجلس الى مائدة الطعام ،

وتبل ان يلمس سكيناً او شوكة ، فيبعث ذلك منه سرورا لا حدود له في قلب الاطفال .

كانت تعلق وجهه العريض موجة من التفضن عندما يؤذيه شيء ما ، ثم تنسلق بشكل غريب ، حتى تصل الى جبهته ، فترفع حاجبيه ، ومن ثم تختفي في احدى زوايا رأسه الاصلع .

ولست ادري رأي جدي في لهو ولديه ، اما جدتي فكانت نهز قبضتها في وجهيها ، وتهتمهم :

— يا لكما من شياطين لا يخجلان ، حقانكما لعفريتان ...

وفي غياب تسيجانوك ، كان خالاي يتحدثان عنه بخبث واستهزاء ، يذمان اعماله ، ويسميانه لصا وخاملا .

سألت جدتي مرة عن سبب ذلك ، فأجابت :

— ذلك ان كلامنهما يرغب في أن يشتغل فانيا لحسابه حينما يفتتح معمله الخاص ، فيصغر في قدره امام الآخر . وكل منهما اخبث من اخيه واكذب . ولكنهما خائفان ايضا من ان بفضل فانيا البقاء مع جدك على الذهاب معهما ، فقد يخطر لجدك مشاريع جديدة ، ان يفتتح مثلا معملا خاصا لفانيا . وهذا مما يسيء الى الخالين ، افهمت ؟

وضحكت بهدوء :

— ولكن الله نفسه يهزأ بهما . ويلاحظ جدك دهاءهما ، فيغيظهما بقوله « سأدفع عن فانيا بدل الجنديّة ، وهكذا لن يأخذه الى الجيش ، فانا لا أستطيع الاستغناء عنه » ، والان ، أفلا يكفي هذا ليفقدنهما ما في راسيهما من عقل ؟ ومع ذلك ، فهما لا يريدان هذا ، ويعز عليهما صرف المال لان البذل يتطلب كمية كبيرة منه .

مرة ثانية ، عدت اعيش مع جدتي ، تماما كما سشنا على ظهر المركب ، فتروح تقص علي — كل مساء قبل أن امضي الى النوم — اقصيص الجن ، أو فصصا من حياتها الخاصة لا تقل عن تلك جمالا وروعة . فاذا تحدثت عن « قضايا العائلة العملية » ، وعن تقسيم املاك جدي ، أو عن عزمه على شراء منزل جديد خاص به ، فقد كان يشوب لهجتها شيء كثير من السخرية واللامبالاة ، فكانها مجرد جارة لا شأن لها بتلك الامور ، وليست ثائبة العائلة تقدما في السن .

وقد أخبرتني أن تسيجانوك ليس الا لقيطا . . . فقد وجدوه ، ذات ليلة ساطرة من مطلع الربيع ، على دكة قريبة من بوابة منزلنا .

قالت ، وقد بدت عليها علائم التفكير والغموض :
— كان مضطجعا هناك ، وقد لف بحزمه من القماش . يقرقف من البرد حتى ليعجز عن الصياح والبكاء .

— لم يتخلى الناس عن اولادهم هكذا ؟

— وقتما تجد الام ان الحليب والطعام ينقصانها لتغذي رضيعها بهما ، تفتش عن بيت ولد فيه طفل آخر ومات من توه ، فتحمل وليدها اليه وتتركه هنسبك .

وبعد هنيهة صمت قضتها في تمشيط شعرها تابعت ، وهي تتطلع ناحية السقف :

— والفقر اساس ذلك كله ، يا اليوشا ! ان بعض الناس لعلى درجة من الفقر لا يمكن وصفها . ومن العار عندهم ان تضع فتاة غير متزوجة . . . وقد اراد جدك ان يحمل فانيا الى الشرطة ، ولكنني منعتة عن ذلك وقلت : « فلنحتفظ به . . . ان الله ارسله لنا عوضا عن ابنائنا الذين توفوا . . . » . لقد انجبت لهذا العالم ثنائي عشرة نفسا . وكانوا لو بقوا على قيد الحياة يملؤون شارعنا كاملا — ثمانية عشر منزلا ! اليس كذلك ؟ لقد زوجوني ولما ابلغ من العمر اربعة عشر ربعا ، واصبحت اما قبل الخامسة عشرة . ولكن الله احب نسلي هذا — فصار يدعوهم اليه واحدا تلو الآخر ، ليجعلهم ملائكة له في السماء . وان ذلك ليؤلني ويشقيني ، ولكنه يفرحني في الوقت نفسه . . .

كانت تشبه — ان تجلس على حاملة السرير ، وقد ارتدت قميص النوم ، يجلها شعرها الاسود ، ووجهها الضخم الاشعث — دبة جلبها لنا ، منذ عهد قريب ، فلاح طويل اللحية من غابات سيرجاش .

وقهقهت ، وهي ترسم اشارة الصليب فوق صدرها الابيض ، وتهتز بكليتها :

— لقد اخذ افضلهم جميعا ، ولم يترك لي الا اشرارهم . ولذا كنت سعيدة لحصولي على ثانيا ، ولقد احببته حبا جارفا ، فانسا اتمشق الصغار امثالك ! اخذته وعمدته ، وها هو قد عاش ، وصار انسانا رائعا . وقديما

كنت ادعوه بالخنفساء بسبب دونه الدائم — فقد اعتساد ان يدب على الارض وهو يدوي كالخنافس . هلا احببته يا الكسي ، فان له روحا بسيطة سانجة .

كنت احب ايفان ، وتملكني دهشة لاعجابي به . . .

وفي كل سبت ، اذ يمضي الجد لاداء صلاة المساء بعد ان ينزل العقاب بمن اذنبوا خلال الاسبوع ، كانت حياة جديدة تبدأ في المطبخ ، حياة تسعدنا بشكل لا يمكن وصفه . . . كان تسيجانوك يقبض على بعض الصراصير من وراء الموقد ، ثم يسرجها بخيط صغير الى مركبة من السورق يصنعها بهارة وسرعة فائقتين ، ثم يسوق الصراصير الاربعة غدوا ورواحا على الطاولة التي دهنت بلون أصفر براق .

كان يصيح متهيجا ، وهو يسوقها بعصا رفيعة :

— انها ذاهية لاحضار الاسقف . . .

ثم يلزق قطعة ثانية من الورق بمؤخرة صرصار اخر ، ويرسله وراء العربية السابقة ، وهو يقول :

— لقد نسوا متاعهم ، وها هو ذا احد الرهبان يحمله لهم .

ثم يربط اقدام صرصار اخر ، بحيث يتعثر لوحده ، وهو يجبر نفسه على راسه !

ويعلن فائيا ، وهو يفر ك يديه فرحا :

— هاكم الشمساس . نادر الخسارة الى صلاة المساء !

وراح يرينا الاعيب فيرانه المدربة . . جعلها تقف وتسير على قوائمها الخلفية وقد تدلت اذنانها الى الخلف ، واخذت اعينها تطرف بشكل مضحك . لقد كان لطيفا جدا مع فيرانه ، يحبلها في عبه ، ويطعمها السكر من فمه ، ويقبلها ، وهو يقول في اقتناع جازم:

— ان الفأرة جار عظيم الحكمة ، وعظيم الود . ان عفريت كل دار مغرم بالفيران وهو يتساهل جدا مع كل من يطعمها . . .

كان في استطاعة تسيجانوك ان يلعب بعض الخدعات بالورق والدراهم ، وان يصيح بصوت عال لا يجاريه فيه احد من الاطفال . وفي الحقيقة ، كان من الصعب جدا ان تميزه عنهم . وقد غلبه الاطفال ، في احدى الامسيات،

مرات عديدة متتابعات ، فاستشاط غيظا ، واعتصره الحزن ، وغمرته الكآبة ، فقطب ما بين حاجبيه ، ثم انسحب من اللعب . . وفيما بعد اعلن شاكيا :

— تلك كانت مؤامرة ضدي . وانا اعرف ذلك ! انهم يتغامزون ويتبادلون الورق من تحت الطاولة . اتسمي ذلك لعبا ؟ انني استطيع أن اغش تماما مثلما يفعلون !

كان في التاسعة عشرة من العمر ، فهو يكبرنا جميعا ولو جمعنا اعمارنا — نحن الاربعة — الى بعضها بعضا . وان ذكرى خاصة به ما تزال حية ندية في خاطري : كان جدي يذهب ، في امسيات الاعياد ، مصطحبا الخال ميخائيل المقيم بواجب الزيارة . فيحمل الخال ياكوف ، بشعره المجمع المشعث ، قيثارته الى المطبخ ، بينما تهنيء جدتي الشاي وآنيته ، والفودكا والمرطبات . كنا نجد دوما ما يفيض عنا من الطعام . وكانت الفودكا تنصب من قوارير خضر ممتزجة بزهور حمر ، وتنسكب في الاقتراح باتقان عجيب . وكان تسيجانوك يدور كالبلبل في ثياب الاحد . اما جريجوري فيدلف بهدوء الى مكان الاجتماع ونطاراته تلتهمان بمزيج من النور والظلمة . وكانت مرييتنا ينجينا ، بوجهها ذي البثور السمينة ، الاحمر كالقندر ، وعينيها الصغيرتين الخبيثتين وصوتها العميق المخفض ، بين الحضور أبدا . وفي بعض الاحايين ، كان يقدم لنا ايضا الشماس الكثيف الشعر ، وبصحبتيه اشخاص اخرون وجوهم قاتمة ، وابدانهم شديدة النحول .

كان كل فرد يأكل كثيرا ، ويشرب كثيرا ، ويرسل من حين لآخر تأوهات عميقة . وكان الاولاد ينالون حصتهم ايضا ، وفيها كأس من بعض المشروبات اللذيذة . . . وفي كل مرة كانت بهجة غريبة متوحشة تنمو تدريجا حتى تملك الجميع وتسيطر عليهم سيطرة تامة ، وكان الخال ياكوف يبض قيثارته بهيام وشغف ، فاذا فعل ذلك قال هذه الكلمات التي لا تتغير :

— حسنا ، سأبشر . . .

وينحني على القيثارة ، وهو يصفق تجعدات شعره ، ويمد رقبته الى الامام كطير الاوز ، ويتخذ وجهه الدور المتكاسل مظهر رجل يحلم ، وتغشى عينيه الجميلتين سحابة ناعمة ، ثم يشرع بالضرب على الاوتار برقة وعذوبة ، يلعب عليها لحنا يدفعك ابدا ، بالرغم منك ، الى الوقوف على قدميك .

كانت موسيقاه تتطلب صمتا مطبقا ، فهي تندفع كساقية صغيرة رقراقة
تنساب من مكان سحيق ، فتبلل الجدران والارض ، وتوقظ في القلب عاطفة
حزينة ملولة بالاسى والقلق ، فلا تستطيع ان تسمعها دون ان تحس
بالاسف على نفسك ، وعلى كل مخلوق اخر حي . . . وكأن يبدو ان الكبار
انقلبوا اطفالا صغارا ، فيجلسون جميعا دون ان يأتوا بحركة ما ، غارقين
في بحر من السكون الكثيب .

كان ساشان بن ميخائيل خاصة يصغي بانتباه مركز ، فيميل على عمه
بكل جسده ، وعيناه مثبتتان في القيثارة ، وفيه مفتوح يتصدر اللعاب من
زاويته ويستغرق احيانا في ذلك حتى ينزلق عن مقعده ويظل ، في مثل هذه
الاحوال ، قابعا حيث سقط على اربعته ، دون ان يزاول الشخص عينيته .
كان الجميع يجلسون انفاسهم ، يرهفون السمع الى عذوبة الموسيقى
كالمسحورين ، اللهم الا السماور الذي يظل يهيمهم في هدوء دون ان يقلق
راحتنا على الاطلاق .

وكانت النافذتان الصغيرتان تطلان على ظلمة ليالي الخريف الداكنة في
الخارج . ونادرا ما يدق احدى بهدوء على زجاجها ، وعلى الطاولة يشع
خيطان ضيقان من لهب اصفر تبعثهما شمعتان صغيرتان ذابلتان .

ويغرق الخال ياكوف شيئا فشيئا في سبات عميق ، فيخيل اليك انه
سيففو عما قريب ، وهو يركز على اسنانه ، اللهم الا يدها وحدهما اللتان
تنبضان بحياة خاصة ، فابهام يده اليمنى المقوس اخذ بالاضطراب كطير
يقف على حافة هاوية سحيقة ، بينما اصابع اليد اليسرى لا تنقطع عن الصمود
والهبوط على الاوتار .

وينطلق ، بعد ان يشرب جرعة او جرعتين ، يفشد بصوته الاجش
اغنية طويلة ، مزعجة لا نهاية لها :

« . . . ولو كان ياكوف جروا صغيرا ،
لايظ جيرانه بنباحه . . .
ضجرت وربي . . . لقد مل قلبسي !



وها هي راهبة الدير تعدو
على الدرب خائفة من نواحه ...
ضجرت وربى ... لقد مل قلبي !



وغرد ، في الغاب ، طير حنون ،
مُعكر ياكوف حلو صداحه ...
ضجرت وربى ... لقد مل قلبي !



ومر فقيران ... بيكي الصغير
دما سال كالسيل فوق جراحه ..
ضجرت وربى ... لقد مل قلبي !

فلم احتمل تلك الاغنية ، بل انخرطت في البكاء عندما بلغ خالي مقطع
المستعطين منها ، وانا نهب حزن لاعزاء له .

كان تسيجانوك ، كالاخرين ، يرهق اذنيه بانتباه الى الموسيقى ، وهو
يجدل باصابعه شعر راسه المجعد ، ويرنو الى احدى الزوايا بثبات ، ويتنفس
بصوت مسموع . وكان ، في أغلب الاحيان ، يهتف دون ما سبب ظاهر :
— او اه ، لو كنت املك صوتا جميلا ! اما كنت اغني ؟

فتتنهد جدتي ، وتجيب :

— كفك تمزق قلبنا ، يا ياكوف ! يكفيننا ما نلناه ! هلا رقصت لنا ، يا
فانيا ؟

لم يكن طلبها يستجاب دوما . ولكن الموسيقى كان يضغط احيانا على
الاوتر براحة يده ، ثم يجمع قبضته ، ويلقي بحركة وحشية شيئا خفيا لا
صوت له على الارض ، ويصيح :

— كفى كآبة ! هب على قدميك ، على قدميك يا فانيا !

فينهض فانيا ، ويرتب هندامه ، ويمهد قميصه الاصفر ، ثم يتبختر حتى
وسط الغرفة ببطء فكأنه يسير على الزجاج ، ويطلب بأدب بالغ ، وهو خجلان

من ارتبأكه :

— أسرع اللحن ، ياكوف فاسيليفيتش ، من فضلك !

فتأخذ القيثارة بتوقيع لحن صاخب سريع ، وتشرع الاعقاب تصاحب النغم ، والصحون تتراقص على الرفوف والمائدة ، بينما يدوم تسيجانوك في وسط الغرفة منتفضا كالعصفور ، يموج يديه كالاجنحة ، ويحرك قدميه بسرعة عظيمة — عاجز العين عن متابعتها . ثم يجلس على وركيه وهو يهتف بصوت عال ، ليعود الى الدوران كخزوف ذهبي ، يضيء كل شيء بشعاعات سندسبة تلتع وتثع من ملابس الحرير المتوجة التي يرتديها .

ويظل تسيجانوك يرقص طويلا ، وقد سها عن نفسه وعن محيطه تماما ، حتى يخل الى انه سيتابع ذلك — فيما لو فتح الباب له — ويدلف راقصا الى الشارع ، وخلال البلدة ، وهكذا حتى يبلغ بعض الاراضي البعيدة المجهولة ...

ويصيح الخال ياكوف ، وهو يضرب الارض بقدميه مرافقا انغام قيثارته :

— عظيم !

ويرسل من فيه صفيرا قويا ، ويزعق بهذين البيتين بصوته الثائر :

« لو لم يكن في ذهابي ائتلاف حذائي في الطريق ،

لقررت من زوجي كما افر من الحريق ... »

وتصيب الحمى الاشخاص الجالسين الى المائدة ، فيأخذون بالصباح والزعيق كأنهم يطعمون بحديد محمى . ويستمر المعلم الملتحي يرافق النغم بضربات متتابعة على رأسه الاصلع ، وهو يتمتم في سره بشيء ما ...

واتجه مرة ناحيتي ، حتى صاقت لحيته الناعمة كنفسى ، وهمس في اذنى وكأنه يخاطب أحد الكبار :

— لو كان والدك هنا ، يا الكسي مكسيموفيتش ! لكان اضاء شعلنة صاخبة مسلية تختلف عن هذه ! لقد كان في طراوة العمر وبسمة الصبا ، تذكره ؟

— كلا !

— ها ! لقد اعتاد ان يرقص وجدتك احيانا ... انتظر ... انتظر لحظة وسترى ! ...

ونهض جريجوري على قدميه ، يأسق القامة ، هزيل الجسم ، يشبه
صوره أحد القديسين ، ثم انحنى على جدني ، وقال في صوت عميق غير
مألوف :

— كوني لطيفة ، يا اكونينا ايفانوفيتش ، وارقصي لنا . اتذكرين كيف
كنت ترقصين مع مكسيم سافاتيفيتش ؟ والان ، اصنعي معنا هذا المعروف !
وضحكت جدتي وقالت ، وهي تبتعد :

— يا الهي ! ماذا تقوله ، يا جريجوري ايفانوفيتش ؟ اوه ! أنا ! أنا !
أرقصي ؟ أنت تريد ان يسخر الناس مني ، ليس كذلك ؟

ولكن الجميع نوسلوا اليها ... فانتصبت على حين غرة كما لو كانت
فتاة يافعة في رونق الشباب وميعته ، واصلحت من وضع قميصها ، وقومت
عمودها الفقري . ورمت شعرها الكث الى الوراء ، ثم طفقت تدور حول
المطهى ، وهي تصيح :

— فليضحكوا ما شاؤوا ! تعال هنا ، يا ياكوف ! اعزف لي !

فانطرح خالي على الارض ، ومدد ساقيه ، وراح يلعب لحنًا بطيئًا
عيناه نصف مغضتين ... ووقف نسيجاتوك لحظة ، ثم قفز وشرع يشب حول
جدتي ، بينا راحت هي تشب صامئة فوق الارض وكأنها تسبح في الجو ،
وهي تحرك ذراعها بطراقة بالغة ... فيرتفع حاجبها ، وترنو عيناهما
السوداوان الى الافق البعيد ... وصور لى انها تبعث على السخرية ،
فانفجرت ضاحكا ... ولكن جريجوري حرك اصبعه في وجهي ، في حين رمقني
جميع الكبار بنظرة تنم عن السخط والغضب .

صاح جريجوري ، وهو يضحك

— ابتعد ، يا ايفان !

فذهب تسبجانوك مطاعة غريبة وقبع في احدى الزوايا قريبا من الباب .
وابرزت المربية يفجينا حلقومها ، وراحت تنشد في صوت عميق رائع :

« لقد رقصوا منذ فجر النهار

وسرعان ما هجم الليل عدوا

وكادوا يطسيرون عبر الفضاء

فولى نهارهم ، وانقضى ! »

وكان يلوح ان جدتي لا ترقص ، بل تحكي رواية ما . فهي تتحرك

ببطء يتأن ، تخطر من ناحية لآخرى ، وترنو الينا من تحت ذراعها المرفوعة ،
تضطرب في حركاتها ، مترددة ، وهي تتحسس طريقها بحذر واعتناء بالغين .
ثم تقف لحظة وكأن شيئا قد اثار في قلبها الذعر على حين بغتة ، فيرتعش
وجهها ويقتم لونه ، لتعود ملامحها متضئ بعد قليل بابتسامة لطيفة نفية
طاهرة ... ومن ثم تقفز ، على غير انتظار ، تفسح الطريق لشخص لا
نراه ، وتدفعه باليد بعيدا عنها ، ومن ثم تتوقف وتصفي ، مطرقة الرأس ،
روجهها يشرق رويدا رويدا بابتسامة سعيدة ، كي تتفجر رقصا من جديد ،
وبصورة مفاجئة وهي تدور كالعاصفة اكثر طولا وانتصبا وتناسقا منها في
اي وقت مضى ، تشع منها جاذبية متوحشة في هذه اللحظات من الشباب
المبعوث حتى ليستحيل على المرء ان يرفع بصره عنها او يحيد ...

وكانت المربية يفجينيا ، انناء ذلك ، تتابع ضجيجها ، كاحد الابواق :

وتبكي عليه مدامعها !
وتطرز ، طول الليالي ، الحرير
وتبذل ضعفا اصابعها ؟
الم تر فائنة الدار تذوي ،

واخذت جدتي مجلسها قرب السماور ، بعد ان انتهت من الرقص ؛
فشكرها الجميع وهنأوها ، ولكنها احتجت بتواضع ...

قالت ، وهي تصفف شعرها المشعث :

— كفى ، كفى ! انكم لم تشاهدوا في حياتكم راقصة حقيقية . كانت
هناك فتاة — حيث كنت أعيش في بالاخنا ، ولقد نسيت اسمها وابنة من
تكون — لا يستطيع المرء الا أن يبكي فرحا عندما يشاهد رقصها . فيمتلئ
قلبه بهجة لجرد النظر اليها ، ولا يعود يرغب في شيء آخر مطلقا ! لكم
كنت اغار منها ، انا الخاطئة !

واعلنت المربية بفجينيا بحدة ، وقد أخذت تغني شيئا عن « الملك
داود » :

— ان المغنين والراقصين هم ملح الارض ...

فالتفت الخال ياكوف صوب تسيجانوك ، ووضع يده فوق كتفه ، وقال :
— يجب ان تعمل راقصا في مسرح ما ، فلا ريب انك ستبعث الفبلة
في قلوب الناس .

فاجاب تسيجانسوك :

— افضل ان اغني ، لو يمنحني الله صوتا عذبا استمر في الغناء دون انقطاع طوال عشر سنوات . وعندئذ لا ابالي بما يحدث لي — حتى ولو اصبحت راهبا !

وشرب الجميع بعض الفودكا ، وخاصة جريجوري . . .

حذرتة جدتي : وهي تملأ له الكأس تلو الاخرى :

— انتبه يا جريجوري ، والا غدوت اعمى دون مرأ .

فاجاب :

— وما اهمية هذا ؟ فلن احتاج الى عيني بعد الان ما دمت قد شاهدت

كل شيء في هذا العالم .

ولم يسكر ، بل اخذ يزداد طلاقة لسان ، وهو يحدثني طوال الوقت عن

والدي :

— لقد كان يملك قلبا كبيرا ! نعم ! كذلك كان صديقي العزيز مكسيم

سافاتيفيتش !

فتنهدت جدتي ، ووافقت على كلامه :

— آه ، نعم ، لقد كان ابنا لله . . .

فأثار ذلك كله في اهتماما عظيما القى بي في حال من التوتر الدائم تبعث

في قلبي شيئا من كآبة هادئة ، لطيفة ، غير متعبة فالكآبة والسرور يعيشان

معا في قلوب الناس ، غير منفصلين ، يخلف أحدهما الآخر برشاقة خداعة

غامضة .

وذاث مرة اخذ الخال ياكوف ، ولم يكن على شيء كثير من السكر ،

يمزق قميصه ، ويشد شعره ، وشاربه عديم اللون ، وانهبه وشفته

البارزة .

قال ، والدموع تنهمر من عينيه :

— لم ، آه ، لم ؟ يجب ان تكون الحياة على هذا الشكل ؟

ولطم يده وجنته ، وصدره ، وهو ينشج طوال الوقت :

— انني شرير لا نفع في ! انني نفس ضائعة !

ودمدم جريجوري :

— آه ! ذلك صحيح !

فقالت جدتي ، وقد اسكرتها الفودكا قليلا ، وهي تمسك بيدي ولدها :
— كفى ، يا ياكوف ! ان الله العزيز ادرى منا بحاجتنا .

كانت نفسها تطيب كلما تجرعت مزيدا من الفودكا . . . وكانت عيناها
السوداوان تصبان نورا داغلة على كل فرد منا ، وهي تسروح وجهها المتورد
بمندیها ، وتقول في نغمة غنائية :

— اوه ، يا الهي ، يا الهي ! ما احلى الاشياء ! انظروا فقط الى روعة
العالم !

كانت هذه الصرخة تند عن قلبها ، وكانت شعار حياتها ابدا . . .
اثارت دموع خالي وبكاؤه ، وهو اللامبالي عادة ، دهشتني الى الحد
الاقصى ، فسالت جدتي لم يبكي ويشتم ويضرب نفسه ، فهدمت في شيء
من النفور لم يكن ابدا من طبيعتها :

— يبدو عليك انك تود معرفة كل شيء ! رويدك قليلا ، لم يزل الوقت
باكرا جدا لتدس بأنفك في مثل هذه الامور !

هيج ذلك فضولي . . . فدخلت المعمل ، ورحت اسأل ايفان عن ذلك .
ولكنه تجنب ، هو الآخر ، الاجابة على اسئلتني . وشرع يضحك بهدوء ، وهو
يرنو الى المعلم بطرف عينه ، ويدفعني خارج المعمل . قال :

— كفى ! اطفح عني قبل ان ارمي بك في احد هذه البراميل واصبغك
باللون الاخضر اللامع .

كان المعلم يقف امام موقد واطيء عريض ، بنيت فيه ثلاثة احواض
للصباغ ، يحرك محتوى احدها بعضا طويلة سوداء ، ثم يرفع بها الملابس
ويراقب الماء الملون المتساقط منها . وكانت النار المتأججة تنعكس على مؤزره
الجلدي المتعدد الالوان الذي يشبه ، الى حد بعيد ، ثوب الكاهن الرسمي
المزركش . وكانت مياه الصباغ تغرغر في الاحواض وتكركر ، بينما تنسل
سحب من الدخان الحاد من خصائص الباب ، وتمتد على طول الساحة
الشتائية . . .

رنا جريجوري الي من تحت نظارتيه بعينين حراوين ، ثم التفت الى
ايفان ، وقال بفظاظة :

— الا ترى انني احتاج الى بعض الوقود ؟
وعندما خرج تسيجانوك راكضا ، جلس جريجوري على احد الاكياس .

المصنوعة من خلاصة خشب الصندل ، وأشار الي ، وقال :

— تعال هنا !

اجلسني على ركبتيه ، وأجرى لحيته الناعمة الدافئة على خدي ، واطلعني على أشياء لن أنساها ما حييت :

— لقد ضرب خالك زوجته حتى قتلها . وضميره لا يترك له فرصة للسلام ، اتفهم ؟ حق لك أن تعرف كل شيء — أبق عينيك متوحتين ، والا هلكت بكل تأكيد .

كان كل شيء في جريجوري بسيطاً مثله في جدتي ، ومع ذلك فهو يرهيني ، ويبدو أنه قادر على أن يستشف كل ما يعتلج في فكر الإنسان وقلبه عندما يشخص إليه من تحت نظارتيه السوداءوين .

وتابع حديثه قائلاً بسرعة :

— وكيف ضربها حتى ماتت ؟ اليك ذلك — كان يصحبها الى السرير ، ثم يلغها باللحاف من رأسها حتى قدميها ، ويروح بضربها بوحشية ، ليلة تلو أخرى ، حتى توفت . ولم ذلك ؟ هو نفسه لا يعرف لماذا ! ...

ورجع ايهان يحمل شحنة من الحطاب ، وجلس القرفصاء بالقرب من النار يدلي يديه ، لكن جريجوري تابع حديثه بصوت مؤثر ، دون أن يلتفت اليه سالا :

— لعله كان يضربها لأنها افضل منه ، تثير في نفسه الحسد منها ، ان آل كاشرين لا يطيقون شيئاً جيداً ، يا صغيري . انهم يغارون منه ، ولما كانوا لا يستطيعون ان يحصلوا عليه لانفسهم ، فانهم يدمرونه . اسأل جدتك كيف اثقلوا على أبيك حتى حرموه الحياة ، فهي ستخبرك عن كل شيء — انها لا تستطيع الكذب ولا تفهمه . انها من طينة القديسين تلك الجدة ، رغم انها تجرع بعض الخمرة من آن لآخر ، وتحب سعوطها حبا جما . انها امرأة قديسة ويحسن أن تلازمها ، يا صغيري ...

دفعني عنه ، فخرجت الى الساحة مذهولاً خائفاً . ولحق بي هانيا ، عندما اجتزت العتبة ، وهمس في أذني وقد وضع يده فوق رأسي :

— لا تخف منه انه من طينة طيبة . تطلع باستقامة في عينيه . فهو يحب الذين يفعلون ذلك .

كانت سائر الأشياء تثير القلق بشكل غريب . ورغم جهلي المطلق بكل اسلوب آخر للحياة ، فاني اذكر ، في كثير من الغموض ، ان أمي وأبي كانا

يعيشان حياة أخرى مختلفة . كأننا ينطقان بكلمات أخرى ، ويجيدان تسليات أخرى ، يقعدان ويسيران دوما جنباً الى جنب ، يلاصق كل منهما الآخر ولا يفارقه لحظة واحدة . وكأننا يجلسان ، في الامسيات ، الى احدى النوافذ ينشدان بعض الاغنيات ، ويضحكان طويلاً بصوت عالٍ ، حتى يتجمع الجيران مرهفين السمع اليهما . وانا اذكر ان وجوه اولئك الجيران المرتفعة نحو النافذة كانت تذكرني بصحون مائدة الغداء الوسخة . غير ان الايسة تنعكس في هذا المكان ، فالقوم لا يضحكون الا في التدري ، وان فعلوا غائت تعجز عن الالام بالسبب الذي يدفعهم الى الضحك . كانوا يزعمون في وجه بعضهم بعضاً ، ويهددون بعضهم بعضاً ، ويتهايمسون في الزوايا دون انقطاع . اما الصغار فيعتصمون بالصمت ويصعب تمييز احدهم عن الآخر وهم لاصقون بالارض كالغبار . . وهكذا شعرت بانني غريب في جو ذلك البيت ، والحياة التي تحيط بي تخزني بمئات الابر ، وتستفز رييتي ، وتجبرني على مراقبة كل ما يدور حولي بانتباه زائد . . .

وقد ترعرعت صداقتي لايفان كثيراً ، وجدتي مشغولة عني ، منذ الفجر حتى ساعة متأخرة من الليل ، باعمالها البيتية . وهكذا أصبحت اقضي اغلب ايامي وانا اخب في اعقاب تسيجانوك الذي استمر يحمينسي بذراعيه كلما جلدني جدي . ثم كان يريني اصابعه المتورمة في اليوم التالي ، وهو يقول :

— لا جدوى من ذلك ! فهو لا يسامدك مطلقاً . ومع هذا ، فانظر ما يجره علي ! هذه هي المرة الاخيرة — وفي المستقبل ستنال نصيبك بنفسك . .
ولكنه كان يتحمل ، عندما تسنح الفرصة ، العقاب الذي لا يستحقه مرة أخرى . .

— لقد قلت انك لن تفعل ذلك ثانية ؟

— لم اتعمد ذلك ، لكن وجددني امد ذراعي ، هكذا دون ان انتبه الى ما افعل .

وقد عرفت ، بعد فترة من الزمن ، شيئاً عن تسيجانوك زادني اهتماماً به ، واخلاصاً له .

كان تسيجانوك ، كل نهار جمعة ، يربط المهر الخصي « ساراب » الاشقر اللون « وهو حيوان خبيث نبيث ذو أسنان جميلة لدى جدتي » الى مزلجة للجديد ، ويلبس قبة غريبة الشكل ، ويرتدي معطفا قصيراً من جلد الماعز يحزمه زنار متين اخضر اللون ، وبمضي الى السوق لابتاع مؤونة

الاسبوع من الطعام . وكانت غيبته تطول احيانا ... وعندئذ يفقد الجميع
رباطة جأشهم ، فياتون النافذة باستمرار وينفخون على الزجاج المتجمد
ليلقوا نظرة على الشارع .

— هل عاد ؟

— كلا ، لم يعد بعد !

وكانت جدتي ، خاصة ، تقاضي الكثير من القلق ، ف تقول لولديها
وزوجها :

— يا للمصيبة ! ستسببون موت انسان طيب ، وحصان طيب . انتم
في امس الحاجة الى ضمير حي ، ايها المخلوقات المخجلة ! انكم لا تكتفون
ابدا بما كسبتموه . يا للعشيرة الغبية ، والعائلة الطماعة ! ان الله
سيعاقبكم جميعا ، وسترون ...

فكان جدي يعبث ويتمتم :

— اوه ، حسنا ! هذه هي المرة الاخيرة !

وكان تسيجانوك ، احيانا ، لا يعود الا بعد الظهيرة ، فيسرع جدي
في خلاي حتى الساحة للملاقاته ، تلحق بهم جدتي وهي تنتشق سموطها بغيط ،
وتتهمهم كالذب ... وفي مثل هذه الاحوال كانت تبدو لي ، لسبب ما اجهله ،
على كثير من السماجة والثقل . وينطلق الاطفال ركضا الى الساحة ،
وبشرعون ، في بهجة عظيمة ، بتفريغ العربة مما فيها من لحوم طازجة ،
وطيور ، وسمك ، وماكل من مختلف الانواع .

ويسال جدي ، وهو يلتهم العربة بعينيه الحادتين الصغيرتين :

— اجلبت كل ما اوصيناك به ؟

فيجيب ايفان منشرح الصدر ، وهو يثب فوق الارض طلبا للدفع ،
ويضرب يديه المتصلبتين ببعضهما ليبعث فيهما بعض الحرارة :

فيصيح جدي بغضب :

— مهلا ، يا صاح ! ان لقنازيك ثمنا . هل تبقى معك شيء من

المال ؟

— كلا !

ويسير جدي ببطء حول العربة ، ويتمتم وهو يعود ادراجه :

— يخيل الي انك جلبت كمية كبيرة من السموط مرة ثانية . ومن

المؤكد انك لم تحصل عليها بدون ثمن ! حذار من ارتكاب الفعل نفسه لمي .
منزلي أيضا . اسامع انت ؟

ثم يمضي بعيدا ، وقد تطب وجهه ...

وعندها كان خلاي يندفعان ناحية المزلجة ، ويروحان يقدران وزن
الدجاج ، والسمك ، والطيور ، وافخاذ لحم العجل ، وكتل اللحم ...

كانا يقولان ، وهما يصفران ويصيحان معبرين عن رضاها :

— لقد اجدت الاختيار ، هذا رائع !

كان ابتهاج خالي ميخائيل يفوق حدود التصور . فهو يقفز حول العربية
وكأنه يقف على عدة نوابض ، يستنشق بأنفه اشبه بمنقار طير « نثار
الخشب » ويتلمظ بشفتيه ، ويضيق عينيه الهادئتين مغتبطا .

كان بخيلا كجدي ، يشبه غجريا متشردا . وكان يخفي يديه المتجعدتين
في جيبه ، ويسال :

— كم تناولت من ذلك الشيخ ؟

— خمسة روبلات .

— ولقد كلف هذا ما يقارب الخمسة عشر روبلا على الاقل . كم صرفت
من المبلغ ؟

— اربعة روبلات وعشرة كوبيكات .

— وهكذا يتبقى في جيبك تسعون كوبيكا . ما ؟ اتسمع هذا ، يا ياكوف ؟
هذه طريقة فريدة في الربح !

ويضحك ياكوف بلطف ، وهو يثقف في ذلك الجو البارد بقميصه قصير
الأكمام ، يطرف بعينيه الى السماء الزرقاء المتجلدة . كان يسال ببطء :

— ما قولك في أن نتقاسم المال ، يا مانيا ؟

وتخلع جدتي عن الحصان أغطيته ، وتقول وهي تشتعل غيظا :

— ماذا ، يا حبيبي ، ماذا ، يا قطتي الصغيرة ؟ اترغب في اللعب ؟

امض ، امض سريعا ! ان الله لا يمانع في قليل من التسلية ...

ويهز سارات الضخم ناصيته ، ويحك كنفها باسنانه البيض ، ثم ينتش
وشاحها الحريري . ويرنو الى وجهها بعينين جذلتين ، ويصهل بعذوبة وهو
يزعزع الجليد بضرباته . . . وتسأله جدتي ، وهي تدفع بقطعة من الخبز
الملح بين اسنانه ، وقد رفعت مئزرها تحت فيه تراقبة وهو يمضغ :

— اتريد قطعة من الخبز ؟

نيثول تسيجانوك ضاحكا :

— انه جميل ، هذا الخصي العجوز ! وهو سرتع سبنوح ، وذكي ايضا !
فتضرب جدتي الارض بقدمها ، وتصيح :

— اليك عني ! كفك تدور حولي وتهز ذيلك . انت تعرف انني لا احبك
في هذه الاوقات !

وشرحت لي ان تسيجانوك ، حين يمضي الى السوق ، يسرق اكثر مما
يشترى من البضائع . قالت بصوت كتيب :

— يعطيه جدك ورقة من فئة الخمسة روبلات ، فيصرف ثلاثة منها —
ويسرق ما قيمته عشرة روبلات . فهو يحب السرقة ، هذا الموغد ! وقد جربها
مرة ، فنجحت ، فضحك جميع من في المنزل وامتدحوه . ولذلك اتخذها عادة .
وقد عرف جدك الفقر والبؤس في ايام فتوته ، فجعله ذلك مقترا نوعا ما في
شيخوخته . والمال عنده اعز عليه من اولاده . ويروق له كثيرا ان يحصل
على شيء من لا شيء . اما ميخائيل وياكوف ...

وعبرت عن سخطها بحركة من يدها ، ثم صمتت لحظة ... وتابعت ،
وهي تنظر الى داخل علبة سموطها :

— ذلك شيء معقد ، يا ابوشا ، صنعته حيزبون عمياء عجوز فخرج
من بين يديها مسحورا ، فلا عجب اذا لم نستطع ، انا وانست ، ان نميز له
راسا من ذنب ... ولكنهم اذا ما قبضوا على فانيا مرة بجريمة السرقة ،
فسيضربونه حتى الموت ...

وجنحت الى الصمت ثانية ، برهة وجيزة ، وعندما تابعت الكلام كلن صوتها ناعما للغاية :

— ايه ! لدينا قوانين كثيرة ، لكن دون حقيقة تقوم عليها هذه القوانين ، أو عدالة تتضمنها .

وفي اليوم التالي توسلت الى تسيجانوك ان يكف عن السرقة :

— سيضربونك حتى الموت !

فأطلق ضحكة سرعان ما كسفتها تقطعية علت وجهه ، ونبر :

— ولكنهم لن يقبضوا علي ، سأهرب ! وأنا خبيث ماهر ، وجوادي من الخيل السريعة . اوه ، انا اعرف ان السرقة جرم وامر خطر . وانا الجأ اليها لمجرد التسلية طالما اني لا ادخر شيئا من المال فخالاك يأخذانه مني في بحر الاسبوع . ولكنني لا أعني بذلك — فليأخذاه ، ما دمت أحصل على كفايتي من الطعام .

ورفعني فجأة عن الارض ، وهزني بلطف :

— انت هزيل ضعيف ، لكن عظامك قوية . وستصبح شابا هرقلا . اصغ ، تعلم العزف على القيثارة ، واسأل خالك ياكوف ان يعلمك ذلك . انا لا امزح ! فانت صغير بعد ، وهذا هو البلاء ! طفل صغير ، ولكنك لطيف ! واطن انك لا تحب جدك ، اليس كذلك ؟

— لست ادري .

— حسنا ، اما انا فلا احب احدا من آل كاشرين ، اللهم الا جدتك . . . الشيطان وحده يستطيع ان يحبهم !

— وانا ؟

— انت لست من كاشرين ، انت من بشكوف ، وهذا دم آخر ، وعشيرة مختلفة .

وضمني اليه بلطف ، وقال وهو يئن :

— يا الله لو أستطيع ان اغني لمقط ! اذن لاوجعت القلوب بفنائتي .

والان ، اليك عني ، يا اخي ... يجب ان اشرع في عملي .
اعادني الى الارض ، وزق قبضة من المسامير في فمه ، وراح يسمر
تحلما سودا مبتلة في لوح مربع كبير من الخشب ...
ولم يمض طويل وقت على هذا حتى مات ...
واليكم كيف حدث ذلك :

كان صليب هائل من خشب البلوط ينتهي بقاعدة كثيفة من الجذور
يستند الى السور في ساحتنا ، قرب البوابة ، منذ زمن طويل ، حتى لاذكر
انه لمت انتباهي يوم جئت استوطن ذلك البيت للمرة الاولى . كان يومئذ
جديدا اصفر اللون ، اما الان فاصبح اسود لكثرة ما تساقط عليه من اطار
الخريف ، وفارقته الرائحة الحادة لآخشاب البلوط المنقوعة ، فهو يبدو شيئا
زائدا عديم النفع في ساحة دارنا الصغيرة المفروشة بالاوساخ .

ولقد اشتراه الخال ياكوف ليرفعه على قبر زوجته ، واقسم ان
يحملة الى المقبرة على كتفيه في الذكرى الاولى لوفااتها ... وصادفت
الذكرى نهار السبت ، في الايام الاولى من فصل الشتاء . كانت الريح
القارسة تثار الثلج علينا من فوق الاسطحة حين مضى جدي وجدتي
والاحفاد الثلاثة الآخرون الى المقبره لحضور الجناز ، بينما خرج الباقيون
جميعا الى الساحة وخلفوني وحدي في الدار عقابا لي على ذنوب سبق ان
ارتكبتها .

وارتدى خلاي معطين سوداوين متماثلين ، ورفعا الصليب عن
الارض ، ووضعنا ذراعه الواحدة على كتف احدهما ، والثانية على كتف
الآخر . ورفع جريجوري ورجل غريب آخر ، بصعوبة جمة ، قاعدة الصليب
الثقيلة والقيها بها على كتف تسيجانوك العريض ، مترنح من ثقل الحمل
وباعد ما بين قدميه اتقاء للسقوط .

سال جريجوري :

— الا تستطيع حمليه ؟

— لست ادري . يظهر انه ثقيل جدا !

وزمجر الخال ميخائيل :

— افتح البوابة ، ايها الشيطان الاعمى !

وقال ياكوف :

— الاتخجل من نفسك ، يا فانيا ؟ مُكلانا اضعف منك بنية . . ولكن جريجوري استدار الى فانيا ، وهو يفتح البوابة ، ونبهه بحدة :

— احذر من ان تجهد نفسك ! حسنا ، كان الله في عونك !

فصاح الخال ميخائيل من الشارع :

— يا لك من احمق جربان !

فضحك كل من في الساحة ، وشرعوا يتحدثون بأصوات عالية ، فكان نقل ذلك الصليب قد ابهجهم جميعا وصب السرور في قلوبهم .

وامسك جريجوري بيدي وقادنى الى المعمل . قال :

— لربما لم يجلدك جدك اليوم . يبدو انه حسن المزاج . . .

أجلسني على قمة من المصوف مهيئة للصباغ ، واحاطني به بلطف ، وراح يحدثني بتأمل وهو ينفخ البخار المتصاعد من الاحواض :

— عرفت جدك منذ سبعة وثلاثين عاما ، يا صغيري . ولقد شاهدت بداية هذه الاعمال ، وهانذا الان اشهد نهايتها . لقد كنا قبلا صديقين طيبين — شرعنا في العمل معا ، وهياناه معا . ان جدك هذا لانسان حاذق ! انظر ، فهو يجعل نفسه القائد هنا — اما انا فلم اكن كمنوا لذلك . ولكن الرب اذكانا جميعا . يكفي ان يبتسم حتى يروح احكم الناس يفرك عينيه كلاحق . أنت لا تعرف بعد شيئا عن لماذا وكيف . ولكن من الضروري ان تعرف كل شيء ، فحياة اليتيم شاقة . وقد كان أبوك مكسيم ساماتيفيتش الورقة الرابعة دوما ، فهو يفهم كل شيء . ولذا لم يحبه جدك ، ولم يتعرف عليه

كثت ابتهج بالجلوس والاصفاء الى مثل هذه الكلمات ، وانسا اراقب النار الجامحة المتأججة الذهبية تتراقص في الموقد ، ودفقات البخار الابيض تنطلق من الاحواض ثم تتجمد على الواح الاسطحة المائلة . وشاهدت ، من خلال احد الشقوق المبثوثة في هذه الاخشاب ، شريطا أزرق من السماء يزهر

في خيلاء . وقد خمدت الريح الآن ، واشرقت الشمس ، وبدأت الساحة كما لو كانت مرشوشة بتراب من الزجاج الناعم . وكانت قرعة انزلاق مركبات الجليد تدف من الشارع ، بينما يتموج دخان ازرق يتصاعد من مداخل البيوت ، وندب أخيلة منورة على الثلج وكأنها ، هي الأخرى ، تروي أقاصيصها وحكاياتها .

وبدا لمي جريجوري الطويل ، المتعظم ، ذو اللحية الطويلة ، والأذنين العريضتين ، ساحرا لطيفا ، وهو يقف أمامي حاسر الرأس ، يحرك الصباغ الذي يغلي ، ويزودني بارشاداته :

— تطلع في عيون الناس باستقامة دائما ، فإذا فعلت ذلك اضطر حتى الكلب المقتنى أن يثقف في مكانه جامدا . . .

كانت نظارته الثقيلة تضغط على حافتي أنفه ، مما جعل نهاية ذلك الانقباض تترك في ذلك أنف جدتي . . .

— ما هذا ؟

قال ، وقد نهض فجأة ، ثم أصفى برهة ، وأغلق باب الموقد بقدمه ، وانطلق نحو الساحة وأنا أقفز في أثره .

كان تسيجانوك يضطجع على ظهره في وسط المطبخ ، وشريطان عريضان من النور يمرقان من خلال النافذة فيقع أحدهما على رأسه وصدره ، ويتراعى الثاني على قدميه . وكان نور غريب يلمع على جبهته ، وقد ارتفع حاجباه ، ورنث عيناه المنحرفتان إلى السقف المملوء بالهباب ، وراحت شفاته السوداءوان ترتجفان وتبعثان بزيد وردي اللون ، وخطان رقيقان من الدماء ينزان من زاوية فيه ويجريان على وجهه ورقبته ، ثم على الأرض . والدم يتدفق بحرية من تحتة . وكانت ساقاه تضطجعا بترهل ، وسرواله المريض يلتصق بالأرض ، يبدو بوضوح وجلاء أنه مبلول . وكانت الأرض مفروشة بالرمل مما جعلها تلتصق كالشمس ، ونهيرات من الدماء تتسابق ناحية الباب ، تتصاوب ببهاء عندما تتصلب مع خطوط شعاعات الشمس المسترسلة .

كان تسيجانوك مضطجعا دون حراك ، ممدود الذراعين ، ينقر بأصبعه

على الارض ، واخلفه الملوءة بالونة الصباغ تشرق في الشمس البراقة

وجئت المربية يفجينا الى جانب ايفان تحاول ان تضع سمعة في يده ، ولكنه لم يستطع الامساك بها ، فسقطت وانطفأت شعلتها في الدماء . وعادت المربية فالتقطتها ثانية ، ومسحتها بطرف مئزرها ، ثم حاولت مرة اخرى ان تضعها بين اصابعه المتحركة بدون هدوء . وكان المطبخ يغلي بهياج شديد دفع بي كالريح عن العتبة ، وكاد يرمي بي لو لم اتمسك بقضة الباب .

قال الخال ياكوف في صوت لا رنة فيه وهو يهز رأسه ، وقد بدا — هو الآخر — ضعيف البنية ، متكرش الوجه ، تطرف عيناه المتكاسلتان باستمرار :

— لقد تعثر !... لقد سقط ، فسحقه ... ضربه على ظهره . وكناد يحطمانا نحن الاخرين ، لو لم نفلت في الوقت المناسب .

فقال جريجوري بصوت مبجوح :

— اذن ، فانتما اللذان سحقتهما !...

— ولكن ، ماذا تظن اننا ؟

— انتما !...

ظلت الدماء تتدفق بحرية حتى شكلت بالقرب من الباب بحيرة صغيرة اسودت ولاحت انها ترتفع كالماء حينما يصطدم بسد منيع ، وتسيجانوك ملقى هناك يبعث بتلك الضوضاء التي يحدثها في نومه ، والزبد الوردي اللون يتابع جريانه من فمه ، وجسده يضمحل ويزداد تسطحا ، وينبسط على الارض كما لو كان يغوص فيها .

همس الخال ياكوف :

— لقد امتطى ميخائيل حصانا ومضى الى الكنيسة يخبر والدنا ! انا انا فقلبت على عربة واسرعت الى هنا . . حسنا فعلت اذ لم احمل القاعدة بنفسني ، والا فالام كنت ساصير !...

وثبتت المربية ، مرة ثانية ، الشمعة في يد تسيجانوك ، وهي تساقط

الشمع والدموع على راحته ، فصاح بها جريجوري في خشونة :

— ضعي الشمعة على الأرض قرب رأسه ، ايتها الخرقاء !

— هذا صحيح !

— انزعوا عنه قبعته !

نزعَت المربية القبعة ، فضرب رأس ايفان الأرض محدثا صوتا اصم . واستدار رأسه اثر ذلك ، فازداد تدفق الدم من فمه ، لكن من جهة واحدة فحسب . واستمرت الحال هكذا زمنا طويلا مرعبا . ولم ادرك تماما ماذا حدث ... توقعت ، بادىء ذي بدء ، ان تسيجانوك يأخذ قسطا من الراحة ، وانه لن يلبث وينهض ويصق كراهية ، ويقول بنغمته المعتادة . تفو ! يا الحرارة ! كما اعتاد ان يقول دوما ، بعد ان يصحو من غفوة الظهيرة ايام الاحاد . ولكنه لم ينهض ، بل ظل مضطجعا هناك يذوي ويذوب شيئا فشيئا ...

وانسحبت الشمس ، فقصرت شعاعاتها بحيث لم تبلغ ابعد من حفاف النافذة . واصبح لوجه ايفان ويديه لون شام ، وخمدت اصابعه عن الحركة ، وتوقف الزبد عن الانصباب من فمه ، بينما كانت ثلاث شمعات تشتعل حول رأسه تضئ شعاعاتها الذهبية كتل شعوره الازرق المسود ، وقمة انفسه الضيقة ، واسنانه المصوغة بالدماء ، ثم ترمى بومضات متماوجة من انوارها فوق خديه الاسمرين .

واستمرت المربية تبكي الى جانبه وهى جائئة على قدميها ، وتهمس :

— آه ، ايتها الحمامة الصغيرة المسكينة ! لقد كنت عزاء حقيقيا !

كان الجو باردا مرعبا قارسا ، فتسللت واختبأت تحت الطاولة وساعتئذ دخل جدي المطبخ متاثلا في فروته السوداء تتبعه جدتي في معطفها السميك المطرزة بإقنانه باذناب صغيرة ، ودخل معهما الخال ميخائيل ، والاطفال ، وعدة غرباء ... ورمى جدي فروته على الأرض ، وصاح :

— يا لاولئك الاوغاد ! يصنعون هكذا بمثل هذا المئتي ! خمس سنوات اخرى وبصبح يساوي ثقله ذهبيا !

.. : واخذت الثياب الملقاة على الارض ايفان عن ناظري . فوقفت ، وانسا
اسمى للحصول على موضع آخر ممتاز ، بين قدمي جدي ، فركلني جانباً
وهو يهز قبضته الحمراء الصغيرة في وجه خالي :

— ايها الذئبان !

ثم ارتمى على الدكة واطبق باصابعه عليها في عنف ، وهو يفهم
ويجمجم في صوت اجش :

— اوه ، انا اعرف — لقد كان شوكة في حلقكما ! آه ، يا ثانيا ، ايها
الولد الفتى ! ماذا نستطيع ان نعمل الان ؟ انسا اسالك ماذا نستطيع ان
نعمل ! ان الخيل غريبة ، واللجام مهتريء عتيق ... انظري ، يا امه ، فكان
الرب لم يعد يحبنا في هذه السنوات القليلة الاخيرة ! ليس كذلك ، يا ام ؟

فانطرحت جدتي على الارض بالقرب من ايفان تتحسس وجهه ،
ورأسه ، وصدره ، وتنفخ في عينيه ، وتمسك يديه وتفرکہا ... فطاحت في
اثناء ذلك بالشمعات كلها . ونهضت اخيراً على قدميها تشبه صورة سوداء
قاتمة ، وثوبها الاسود يلمع ، وعيناها السوداءوان تقذفان شرراً هائلاً مخيفاً،
وهي تقول في صوت خفيض :

— اخرجوا من هنا ، يا ملاعين

فاختفى الجميع عدا جدي ...

وثوى تسيجانوك ببساطة ، دون ان يسترعي ادنى انتباه ...

٤

كنت اضطجع في سرير عريض ، ملنفا بلحاف ثقيل يحيط بي من كل
جانب ، اصفي الى جدتي تصلي ... كانت تجثو على ركبتيها ، وتضغط
صدرها باحدى يديها ، وترسم بالثانية — من وقت لآخر وبدون اي اسراع —
اشارة الصليب .

وكانت قرعة تكسر اللبد وراء النافذة تبلغ سمسمي ، ونور القمر

الجُحُضِر يَرْنُو من خلال السجقة المزرَكُشَة التي تَغطِي زجاج النافذة ، فيضيء
بِأَنْوَارِهِ المِسْكَوْرِيَةِ ذلك الوجه اللطيف بأَنفِهِ البارز ، وعَيْنِيهِ السُودَاوِين .
وكان غطاء الرأس الحريري الذي يخفي شعر جَدَّتِي بشع كالْمَعْدَن ، وثوبها
الأسود يتدلَّى عن كتفِها بِثِيَابٍ مُتَبَدِّلَةٍ تكومت على الأرض تحف بها من كل
جانب .

وحين كانت تنتوي من تلاوة الصلاة ، تنضو عنها ثيابها في صمت
وتضعها بعناية على صندوق الملابس القائم في زاوية الغرفة ، ثم تقترب من
السريِر ، فأتظاهِر بالنوم . . وتقول بهدوء :

— كفك تصنعا ، أيها الخبيث الصغير ! أنت لست بنائم ! ليس الآن ،
ليس كذلك أيها الطير الصغير ؟ هيا ، دعنا نصيب شيئا من هذا اللحاف .

كنت أدرك ما سيتبع ذلك ، ولذا لا استطيت الامتناع عن الابتسام . .

وتصيح :

— آه ، أنك تود أن تعمل من جدتك ملهاة ، اليس كذلك ؟

وتمسك بحافة اللحاف وتشده إليها بقوة ومهارة عظيمتين بحيث ارتفع
كالصاروخ في الهواء ، وأنا أدور حول نفسي . ثم أعود ثانية إلى السريِر
الريشي ، في حين تنفجر هي في عاصفة من الضحك :

— خذها ، أيها الجنى الصغير ! أنك تستحقها !

كانت تصلي طويلا في بعض الأحيان ، فأنام دون أن انتبه إليها عندما
ترد السريِر . . .

كانت أيام المتاعب والشجار والمُتَال تَنْتَهِى دوما في مثل هذه الصلوات
الطيبة ، فكنيت أصغي بانتباه واهتمام إلى جدتي تحدث الرب بكل تفاصيل
حوادث النهار . كانت تجثو كالهرم ، وتبدأ صلاتها بهمس سريع مبهم ، يعلو
شيئا فشيئا حتى يصبح دمدمة عميقة :

— أنت تعرف ، يا الله ، أن كل إنسان يسمى وراء مصلحته الخاصة ،
وذلك أمر طبيعي جدا . أن ميخائيل الآن هو ولدي البكر ، فعليه يقع اذن

واجب البقاء في البلدة هنا — وانها لاساءة اليه أن يبعث به عبر النهر الى مكان جديد لم يختبره أحد من قبل ، وليس من يدري كيف يمكن أن يخرج منه . ولكن الاب يفضل ياكوف عليه . أمن العدل ان يحب الاب اولاده بصورة غير متساوية ؟ انه خلوق عنيد ، ذلك المعجوز ! وانك لتعمل خيرا ان وهبته بعض العقل ، يا الهي !

كانت تشخص الى الايقونات المظلمة الدامسة بعينيها الواسعتين البرائتين ، وهي تتابع تقديم نصائحها لالهها الذي تعبده .

— هلا جعلته يحلم حلما طيبا ، يا الهي ، فتعلمه كيف يةسم حبه بين ولديه بصورة متساوية عادلة !

وكانت ترسم اشارة الصليب ، ثم تنحني حتى تمس جبهتها العريضة السجادة ، ومن ثم تعاود كلامها باقتناع ، وهي تنهض :

— ولم لا ترسل من لدنك لغارفارا قليلا من الفرح ؟ ماذا فعلت حتى تغضب عليها ، يا الهي ؟ اهي اسوا من الاخرين ؟ ومن سمع عن امرأة صبية قوية تعيش في مثل هذا البؤس ؟ وثم جريجوري يا الهي — احفظ له عينيته اللتين تسوءان يوما بعد يوم . فان هو امسى فاقد النظر ، فماذا يتبقى له سوى التسول في الطرقات ؟ وهل يكون ذلك من العدل في شيء ؟ هو الذي يفتني قوته كلها في أعمال ذلك الجد . . . ولكن ، هل يساعد الجد ان فقد النظر ؟ . . آه يا الهي ، يا الهي العزيز !

ثم تظل صامتة برهة طويلة ، وقد أحنّت رأسها ، وأرخت ذراعيها وكأنها غرقت في النوم ، أو تصلبت أطرافها وتجمدت . . . وتقول أخيرا ، وهي ترف بجفنيها :

— وماذا ايضا ؟ كن رحوما بكل الاتقياء ! وسامحني ، أنا الحمقاء الملعونة ! أنت تعرف جيدا انني اذا ارتكبت الخطيئة فمن حماقة ، وليس عن خبث وتعمد للشر .

ثم تند عنها تنهدة عميقة ، وتقول بقناعة لطيفة :

— ولكن ، ليس هناك شيء يخفي عليك ، يا الهي العزيز ! فأنت تعرف كل شيء ، أيها الاب المجد !

كنت مولعا جدا بآله جدتي ، هذا الذي يبدو قريبا وعزيزا لديها . . . وكنت أقول لها :

— حدثيني عن الله . . .

كانت لها طريقة خاصة في التحدث عنه ، فتجلس ، وتغلق عينيها ، وتتحدث بصوت مخفوف ، وهي تتفوه بكلماتها بغرابة فائقة . وما زلت أذكر ، حتى الآن ، كيف كانت تستعد لذلك ، فتقتعد السرير ، وترمي بمنديل على رأسها ، وتأخذ بنسج قصتها الخيالية حتى أبخض في النوم :

— إن الله يجلس هناك فوق هضبة عالية ، محوطا بجنان الفردوس . . . إنه يقعد على عرش من الياقوت تحت أشجار الصنصاف الفضية ، أشجار نظل مزهرة طوال السنة ، لأنه ليس في الفردوس شتاء ، ولا خريف ، بل تنقي الورد مبرعمة دوما على مر السنين ، تجلب الغبطة لاتقياء السماء . وحول الرب يطير حشد من الملائكة — يحومون كقطع كثيفة من الثلج ، أو كجماعات من النحل — بل قل أنها أسراب من الحمام الأبيض تطير من السماء إلى الأرض ، ثم تعود من الأرض إلى السماء لتحدث الله عنا ، نحن المخلوقات التي نعيش في العالم الأسفل . . . أن لكل منا ملاكه الخاص — ملك ملاك ، ولي ملاكي ، ولجداك ملاكه — لأن الله سواء بالنسبة إلى جميع مخلوقاته . . . يأتي ملاكك مثلا إلى الرب ، ويقول له :

« إن الكسي أخرج لسائه لجده .

» وعندئذ يصدر الرب أوامره :

« — فليجلده الرجل الشيخ اذن !

» وهذا ما يحصل لكل فرد ولكل شيء دون تفريق . . . كل ينال حسب ما يستحق — التعاسة للبعض ، والفرح للآخرين . وكل هذا يحدث بشكل رائع بحيث تأخذ الملائكة تصفق باجنتها بسرور ، وهي ترتل دوما :

« المجد لك يا الله ، المجد لك في العلا !

» بينما يتطلع الله حوله ، وهو يبتسم ، وكأنه يقول :

« — حسنا ، تابعي انشادك أيتها الملائكة الجميلة ما دام ذلك يسرك ! » .

وتبتسم جدتي ، وهي تهز رأسها ...

— أرايت هذا كله ؟

فتجيب مؤكدة :

— كلا ، أنا لم أره . ولكنني أعرمه ...

كانت ، كلما تحدثت عن الله والفردوس والملائكة ، تغدو صغيرة أنيسة ، يفقد وجهها آثار الشيخوخة ، وتلتصق عيناها النديتان بنور دائم خاص ، فأتناول صفائرها الثقيلة وألف بها عنقي ، وأنا أجلس دون حراك ، يرقص قلبي طربا لتلك الاقاصيص التي لا أشبع منها أبدا .

— لقد حرم على الفانين رؤية وجه الله — كيلا يصابوا بالعمى ...
والقديسون وحدهم يستطيعون أن يروا اليه بعيون مفتوحة . ولكنني رأيت الملائكة ، فهم يظهرون للإنسان الطاهر القلب . لقد كنت في الكنيسة أحضر خدمة الصباح ، فرأيت اثنين من الملائكة في الهيكل — كانا يشبهان الضباب — تستطيع أن ترى كل شيء من خلالهما ، يلعبان كالبرق ، واجنحتهما تبلغ الأرض ، كلها دنتلة وحرير . وراحا يدوران حول المذبح يساعدان الأب المعجوز إيليا ، فإذا أراد رفع ساعديه المتعبين للصلاة أسرع لمعونته وسندا مرفقه . كان شبحا ضريبا ، حتى ليتعثر بكل شيء ، ثم مات بعد ذلك بزمان قصير . ولقد اغتبطت كثيرا برؤيتي لهما حتى صعقت من الفرح ، وآلمني قلبي كثيرا ، وتخلصت عينا بالدموع ... أه ، كم كان ذلك رائعا ! لكم هو جميل أيضا كل شيء هنا على الأرض !

— حتى هنا ، في بيتنا هذا ؟

فأجابت جدتي ، وهم ، ترسم إشارة الصليب :

— نعم ، في كل مكان ! المجد للعذراء النور !

حينئذ ذلك الجواب ، وأدهشني ، وصعب علي جدا أن أفهم كيف يسير كل شيء على ما يرام في بيتنا ، حيث تزداد العلاقات سوءا وتوترها يوما بعد يوم .

وأنا أفكر أنني مررت بالقرب من باب غرفة خالي ميخائيل ، وكان مفتوحا ، فرأيت الخالة ناتاليا ، مجللة بالبياض ، تدور في الغرفة وقد ضمت

يديها بقوة الى صدرها ، وهي تهتف بصوت مخفوض يبعث على الخوف
والرهبة :

أواه يا الهي خلصني من هنا خذني اليك

ولقد فهمت ما تريد بصلاتها ، كما أنهم جريجوري عندما يفهم :

— سامضي واتسول عندما أصبح أعمى . وسأكون عندئذ أفضل مني
هنا !

كنت أود أن يصبح أعمى في أقرب وقت حتى أضحي ذليلا ، فذهب معا
لنجوم العالم ، نتسول لنعيش ونحيا . ولقد أفضيت له ذات يوم بأمنيته
هذه ، فحك في لحيته وقال :

— حسنا ، سنذهب معا . وسأصرخ في الشوارع بحيث يسمعي جميع
الناس : هذا هو حفيد فاسيلي كاشرين ، صاحب معامل الصباغ ! وسيكون
ذلك مضحكا ، أليس ؟

وكثيرا ما لاحظت تورما في شفتي العمة ناتاليا ، وعلامة سوداء وزرقاء
تعلو وجهها الاصفر اللون . فسألت جدتي مرة :

— ترى ايضربها خالسي ؟

فاجابت ، وهي تتنهد :

— انه يفعل ذلك خفية ، لعنة الله عليه ! لقد منعه جدك عن ذلك ،
ولذا فهو يضربها ليلا . انه شرير ، وهي جبانة .

ثم تتابع الحديث ، متحمسة لقصتها :

— ولكنهم لا يضربون في هذه الايام كما اعتادوا ان يفعلوا في الماضي .
لقد غدا الناس اليوم اقل منهم وحشية بالامس ! نعم ، انهم يضربون في بعض
الاحيان على الاسنان ، او الاذان ، او الراس ، مدة دقيقة او دقيقتين ،
وهذا كل شيء . . . ولكنهم كانوا قليلا يعذبون ضحياتهم طوال ساعات
كاملة ! لقد ضربني جدك مرة ، في اليوم الاول من الفصح ، منذ صلاة الصباح
الباكرة حتى غروب الشمس — كان يضربني ، ويأخذ قسطا من الراحة ، ثم
يعود الى الضرب ثانية . . وكان يضربني بلجام الغرس ، او بالحبال ، أو ساي
شيء اخر يقع في متناول يده .

— ولم ذلك ؟

— لا أستطيع أن أتذكر الآن . لقد ضربني مرة حتى أمسيت نصف ميتة ، ثم حرمني من الطعام خمسة أيام — وبأعجوبة نجوت من الموت في تلك المرة . ومرة أخرى . . .

أذهلنتني هذه الوقائع ، فان جدتي تكبر زوجها مرتين حجبا ، ولم أستطيع أن أتصور كيف يتغلب عليها . . . سألت :

— أهو أقوى منك كثيرا ؟

— كلا ، ليس أقوى ! بل اكبر سنا ! وإلى جانب ذلك فهو زوجي ! وقد أراد الله أن يتكفل بي ، وأرادني على تحمل ذلك .

كنت أحب أن أراقبها تمسح الغبار عن الايقونات وتنظف ثيابها . كانت أيقوناتنا منقنة المصنع ، غالية ، مزخرفة باللالية والاحجار الكريمة ، ومرسعة بالفضة . وكانت جدتي تقبض عليها بأصابع ماهرة ، وتغفم وهي ترسم اشارة الصليب وتقبل الصور :

— يا لها من وجوه حلوة ! كيف يمكن للغبار والأتربة أن تغطيها ؟ يا أم ! الله الكثير الحنان ، الفائقة البركات المجيدة ، يا منبع الغبطة التي لا توصف ! انظر هنا فقط ، لكم هو جميل هذا الرسم ، يا اليوشا ، يا حمامتي الحبيبة ! أنها وجوه لطيفة ، ولكل ميزاته الخاصة . . . فهذا يدعى « العيد الاثني عشرى » ، وهذه « فيودورفسكا » تقف في الوسط — انها سيده لطيفة وهذه « لا تبكي يا امه بالقرب من مقبري ! » .

كان يخجل الي ، في كثير من الاحايين ، انها تلعب بالايقونات بجدة وسذاجة ، تماما كما كانت تفعل ابنة خالي الصغيرة كاترينا بدمياتها الناعمة . . .

وكثيرا ما كانت ترى بعض الشياطين ، أن افرادا أو جماعات . . .

— حدث ذلك في احدى الامسيات اثناء الصيام الكبير ، وأنا أقطع الدرب قرب منزل آل رودولف — كأن كل شيء يلمع في ضوء القمر . . . وعلى

حين غرة ، بصرت بشيطان يتسلق السطح بالقرب من المدخنة . كان كبيرا خشنا ، وقد دلى قرنيه داخل المدخنة ، وهو يتنشق وينفخ بمنخريه ، ويضرب بذيله على السطح ، ويحاول ان يخفي أذنيه الكبيرتين ، فرسمت اشارته الصليب ، وقلت : « سينهض المسيح ثانية ليميت أعداءه جميعا ! » فصرخ فجأة بصوت عال ، ثم تدرج حتى الساحة ، لقد قتله ذكر المسيح ! ومما لا ريب فيه ان عائلة رودولف لم تلتزم الصيام ذلك النهار ، فكان الشيطان يستنشق رائحة الطعام المطبوخ مغتبطا ...

راقت لي صورة الشيطان يتشقلب حتى الساحة فأنفجرت ضاحكا ... وضحكت جدتي بدورها ، وتابعت :

— وانهم ليحبون ، مع ذلك ، اللهو واللعب ، فهم أشبه بالاطفال الصغار تماها ، خبثا ، يتعشقون الداعبة . وقد حدث ذات ليلة ، وأنا أغسل في حمام المنزل ، والساعة تقارب منتصف الليل ، أن فتح باب الموقد بغتة وخرجت الشياطين منه — صفارا أقزاما — بعضهم أحمر اللون ، وبعضهم خضر ، وبعضهم اسود كالصراير ... فركضت ابغي الباب ، ولكنهم لم يتركوني اجتازه ، فقد سدوا الطريق علي ! وهكذا أصبحت حبيسة مع أولئك الشياطين ، وكانوا يعدون بالملايين ، يملأون غرفة الحمام — متراكمين تحت قدمي ، وفوق ساقي ، يقرصونني ، يعضونني ، ويلدغونني ، حتى لم أعد أستطيع ان أرسم اشارة الصليب لأرغمهم على الهرب . لقد كانوا ناعمين دافئين ، يغطيهم وبر طويل ، يشبهون في ذلك القطط الصغيرة ، يقفزون دوما على أرجلهم الخلفية ، يدورون ويتقلبون على الأرض ، ويكثرون عن اسنانهم الشبيهة بأسنان الفيران ، تومض أعينهم الصغيرة الخضر ، وهم يهزجون رؤوسهم حيث برزت قرونها ، ويهزون أذنانهم الصغيرة الشبيهة بأذنان الخنازير ... يا الهي ، أية ساعة قضيتها يومذاك ! لقد فقدت نعم فقدت شعوري ! وعندما استعدت صوابي كانت الشعلة قد احترقت كلها تقريبا ، والمياه قد بردت ، والثياب المغسولة ملقاة على الأرض . فقلت في نفسي : « تفو ! .. اخذك الطاعون ، أيتها الشياطين اللعينة ! » .

واغمضت عيني ، فاستطعت ان أرى الى باب الموقد ذي الحجارة

الرمادية اللون يفتح ، ويتدحرج منه سيل من الشياطين يتقلبون على الأرض
، ويملاؤن غرفة الحمام ، ينفخون على الشمعة ، ويمدون السننهم الحمراء
الوسخة . كان ذلك مسلا ومرعبا في وقت واحد .

حككت جدتي رأسها ، وظلت صامئة برهة ، حتى استولت عليها حمى
جديدة من الخيال :

— ولقد شاهدت أيضا بعض الذين حلت عليهم اللعنة . كان ذلك في
نيله شتائية شديدة الاعصار ، وأنا اجتاز خندق عائلة دوكونف ، حيث أراد
خلاك ميخائيل وياكونف ، كما أخبرك مرة ، ان يرميا والدك الى الماء من فوهة
في الجليد ، كنت ، اذن ، ذاهبة الى هناك ، وأنا اقطع الممر المفضي الى قاع
الخندق ، فاذا بى اسمع فجأة صوت صغير وصراخ حاد . ! فتطلعت ،
فلقيت عربة صغيرة تجرها عدة جياد سوداء تعدو في اتجاهي ، وقف
سائقها — وهو شيطان صغير مدور الجسم يلبس قبعة حمراء — على كرسيه
ملدا ذراعيه ، وراح يسوق الخيول التي يربط لجامها بعدة سلاسل صغيرة
بدلا من العنان . ولما لم تستطع الخيول ان تمر عبر الخندق ، اخذت طريق
البحيرة مثرة سحابة من الثلج وراءها . . . وكان ركاب العربة من
الشياطين ايضا ، يصفرون ، ويصيحون ، ويلوحون بقبعاتهم . . . وقد مرت
بالقرب منى سبع عربات تسرع كالقطار ، وخبولها سوداء فاحمة كالليل ،
وجميع الذين تحملهم قوم ملعونون من ابائهم وامهاتهم ! ان هؤلاء القوم
غنيمة باردة للشيطان ، فقتل عنهم ، واركبهم تلك العربات ، وسار بهم
اثناء الليل ليشرکہم في احتفالاته . . . اظن اني شاهدت عرسا للشياطين في
ذلك المساء . . .

كانت جدتي تتحدث ببساطة واقناع بحيث يسمح عدم تصديقها . . .
ولكنها كانت تتجلى خاصة في القصائد التي تحفظها عن العذراء الطاهرة ،
والتي تروي كيف سارت ام الاله فوق الطريق الشائكة في هذا العالم لتحذر
« الاميرة المصاة » ، نيجاليسفا وتردعها عن السرقة وقتل الروسيين . وكانت
تنشد ايضا شعرا عن « الكسي رجل الله » وعن « ايفان المحارب » ، وتروي
قصصا عن « الحكيمة فاسيليا » ، وعن « الكاهن تيس الماعز » ، وعن
« ربب الله » ، وخرافات مخوفة عن « مارغا بوسادنييري » ، وعن

« بابا اسطه » زعيم اللصوص ، وعن « مريم » الخاطئة المصرية ، وعن
حزن والمدة اللص » ! . لقد كانت مؤننتها من القصص والخرافات والشعر
لا تنضب البتة ولا ينقطع لها اوار ...

لم تكن تخاف من الناس ، بما فيهم جدي ، او الشياطين ، او اي سحر
اسود آخر ... لكنها كانت تخاف الصراير الى حد غريب ، تتجنب وجودها
حتى عن بعد بعيد . . . وكانت تبعثني بن النوم ، في اغلب الاحيان ، في منتصف
الليل ، وتهمس في اذني :

— يا عزيزي اليوشا ، هناك صراير سرح ! اقتله ، حبا بالمسيح !

فكنت اشعل الشمعة ، وانا نصف مستيقظ ، وادب على الارض ، على
اربع ، افقش عن ذلك العدو اللدود . ولكن محاولاتي لم تكن تنجح دوما ،
فاقول لها :

— لم اجد شيئا !

فتروح تلك حيث تضطجع دون حراك ، ثم تغمر رأسها باللحاف :

— اوه ، نعم انه موجود ! تابع صيدك ، ارجوك ! انه هناك ، انا
اعرف ذلك ؟ ...

كانت على حق دائما ، اذ اقع على احد الصراير تجول بعدا عن
السريير :

— اقتله ! اقتله ؟ آه ، شكرا لله !، وشكرا لك ، يا غرامي !

كانت تقول ذلك ، وترمي اللحاف عن رأسها ، وهي تبسم ابتسامة
السعادة والغبطة . اما اذا اخفقت في العثور على الصرار ، فهي لا تذوق
اذن طعما للنوم على الاطلاق .

كنت احس جسدها يرتعش بوضوح في سكون الليل وهداته ، واسمع
الى همسها وهي تتنفس بضعف ووهن :

— انه هناك ، قرب الباب ... هو الان تحت الصندوق ...

— لم تخافين من المصراعير ؟

فتقول ، في جوابها ما يكني من الاقتناع :

— واية فائدة لها ؟ انها تهيم هنا وهناك في الغرفة . هذه الشياطين السود ، وهذا كل شيء ! لقد اعطى الله ، حتى لادنى مخلوقاته ، هدمًا في الحياة . فالخنافس تدل على أن في البيت رطوبة ، والبق يبرهن على وساخة الجدران ، واذا ما عثرت على قملة في ثيابك فهذا يعني أنك ستقع مريضاً . كل هذا واضح ، اما هي — فمن يستطيع ان يخبرني ما هي فائدتها ، وأي حق لها في الحياة ؟

• • •

حدث ذات ليلة ، بينما جدتي جاثية على ركبتها ، مشتركة مع الله في حديث حماسي ، ان دفع جدي الباب على مصراعيه ، وصاح بصوت اجش :

— هيا يا اماء ، انه امتقاد من الله ! هيا ! ... اننا نحرق !

فصاحت ، وهي تناضل للوقوف على قدميها :

— ماذا ؟

واندفعت وجدي يصخبان في ظلمة الرواق الفسيح ...

شرعت تصدر اوامرها بصوت مال رزين :

— انزلي الايقونات ، يا يجهينيا ! وانت يا ناتاليا ، البسي الاطفال ثيابهن !

وبكى جدي ، وطلق ينوح :

— آه — ه — ه ! ...

فركضت حتى المطبخ ... كانت النوافذ المطلة على الساحة تلتهم كالذهب ، وبقع صفر تتدحرج على الارض وتسيل ، والخال ياكوف يدمع بقدميه الحائيتين في حذائه ، ويقفز عاليا كأن تلك البقع تحرق نعليه .. صاح :

— آه ، وان ميخائيل قد اضرم النار . لقد شغلنا بها وهرب ...
فدفعته جدتي خارج الباب حتى كاد يسقط على الارض ، وقالت :
— صه ، ايها الوغد ؟

كنت استطيع ان ارى ، من خلال الجليد الذي يغطي زجاج النوافذ ،
الى المعمل وهو يحترق ، والى المسنة النيران تنطلق من خلال الباب المفتوح
على المصراعين . وهذه شهب حمر من النار تلتحم ، وهي تبعث دخانها
الاسود في ذلك الليل الساكن فيجتمع غيوما تعلو وتعلو في الفضاء ، دون ان
تفكر آثار « درب التبان » الفضي . وهذا الثلج يتورد بانعكاس الشعاعات
الارجوانية عليه ، وجدران المنزل تهتز وتترنح فكأنها تسمى مبتهجة الى زاوية
المساحة حيث تلعب النار ، فتضيء بالحمرة الشبوق العريضة القائمة في
جدران المعمل ، وتدفع بالسنتها اللامعة الملتوية من خلالها . وهذه شرائط
حمر ذهبية تنزلق بسرعة فوق اخشاب السقف الجافة ، تضع بينها المدخنة
الضيقة المصنوعة من الصلصال وهي تصب في الجو ينبوعا رفيعا من الدخان،
وطقطقة ناعمة لطيفة ، اشبه باحتكاك الحرير ، تند عن زجاج النافذة . وقد
شرعت النار تشتد ، وراح رونقها يضيف على المعمل جبالا يجعله اشبه
بالايونسطاس في الكنائس ، فيجذبني اليه بقوة لم استطع مقاومة لاغرائها
وفتونها .

رميت معطفا سميكاً من جلد الماعز فوق رأسي ، ولبست اول حذاء
وقعت عليه ، ثم اسرعت في الممر حتى عتبة الباب حيث وقفت مذهولا —
وقد غشى بصري لهيب النيران ، وصم سمعي صوت تأججها ، وصيحات
جدي ، وخالي ، وجريجوري ... وارتعت من تصرف جدتي ، اذ لفت بكيس
فارغ على رأسها ، ولفت نفسها بحرام سميك نكسو به الخيل عادة ،
واندفعت داخل المعمل المتأثر وهي تصيح وتزعق :

— حامض الكبريت ، ايها الحمقى ! ان حامض الكبريت سيلتهب !
وصاح جدي :

— اوقفها ، يا جريجوري ! اوه ، لقد قضي عليها ! .
ولكن جدتي رجعت سريعا ، والدخان ينعقد فوق رأسها ، وقد انحنت
تحت ثقل اناء حامض الكبريت الكبير . وصاحت بصوت اجش ، وهي تسعل :
— اخرجوا الحصان ، يا ابتاه ! واسحبوا هذا الشيء عني — الا
ترون انني احترق ؟

فانتزع جريجوري حرام الحصان المحترق عن كتفها ، ثم اختطف معولا
زانحنى يهشم الكمية الضخمة من الجليد المتراكمة على باب المعمل ، ويلقي
بها في جوف النار ، وخالي يقفز حواليه وفي يديه كأس كبيرة . وانطلق جدي
في أعقاب جدتي يرميها بالثلج ، وهي تدفن اناء حامض الكبريت في كومة من
الجليد . وعندما انتهت ، اسرعت تفتح بوابة الساحة . . . وصاحت هناك ،
وهي تنحني للناس الذين قدموا اليها يركضون :

— انقذوا مخزن الغلال ، ايها الجيرة ! ان النار ستمتد حتى مخزن
الغلال ومخزن العشب المجفف — ان ما بيننا سيحترق عن آخره . وسيجيء
دورك بعدنا . انزعوا السقف وارموا الاعشاب داخل الحديقة ! وانت يا
جريجوري ، انثر الثلج عاليا — فاي نفع فيه على الارض ؟ وانت يا كوف ،
كفك ركضا ، اعط القوم معاول وفؤوسا ! ايها القوم الطيبون ، ساعدونا ،
وليكن الله معكم !

كانت جدتي وقد اخضعتها شعلات اللهب التي تلوح
امامها ، تتجول كخيال اسود في الساحة ، فهي في كل مكان في
تلاحظ كل شيء وتصدر اوامرها للجميع على حد سواء .

وركض نساراب داخل الساحة ، ثم شب على قائمتيه الخلفيتين ، فطرح
جدي بقدميه على الارض ، كانت عيناه المدورتان تشعان حمرة بانعكاس
لهيب النيران فيهما . وراح يقفز ، وهو ينفخ بمنخريه ، ويحرن ، ويشب على
عنق حتى افلت له جدي اللجام وابتعد عنه هاربا ، وهو يصيح :

— امسكه ، يا ابي-اه !

غرمت جدتي بنفسها تحت قوائم ذلك الحصان الجامح ووقف دون
حرك ، وقد فتحت له ذراعيها . فسهل الحصان متألما وهدا ، وهو يرنو
بنظرات مسترقة الى النار الداخنة . قالت جدتي في صوت عميق ، وهي تربعت
على رقبته وتأخذ اللجام بكلتا يديها :

— لا بخف ! اتخلي عنك في مثل هذه اللحظة الرهيبة ؟ انت ، ايها
الفار الصغير الطائش ؟

فراح ذلك الفار الذي يكبرها بثلاث مرات يتبعها بلطف وخنوع حتى

البوابة ، وهو بصهل كلما تطلع الى وجهها المتورد .

وخرجت المريية يهجينيا مع الاطفال من المنزل ... كانوا ، جميعا ،
مدثرين بالاحرمة يدمدمون بأشياء غير مفهومة ... صاحت :

— اني لم استطع العثور على الكسي ، يا فاسيلي فاسيليفيتش !

فأختبأت تحت درجات الباب حتى لا تحملني بعيدا مع الآخرين ، في حين
صاح جدي بها :

— دعينا ، دعينا !

وانهار ستقف المعمل مخلفا مكانه عاصفة من الدخان استمرت زمنا
طويلا تنطلق باستقامة نحو السماء . وجاءنا من داخل البناء انفجار من النار
احمر اللون ، تبعه آخر اخضر ، وثمة آخر ازرق ، اندلعت جميعا من
الساحة في اتجاه جمهرة القوم الذين يحاولون اطفاء ذلك اللهب الهائل بنثرهم
الثلج عليه . وشرعت الاحواض تغلي ثائرة وتفور ، وهي تبعث بسحب من
الدخان والابخرة فتملأ الساحة برائحة غريبة ، وتجعل الدموع تترقرق في
العيون .

خرجت من حيث اختبأت وارتميت بالقرب من قدمي جدي ، فصاحت :

— امض من هنا ! والا دهبوك ! ابتعد ...

ودلف الى الساحة خيال يلبس خوذة معدنية واسعة ، يملو الزيد فم
حصانه الاشقر ، وطلق بلوح بسوطه ويزعق متوعدا :

— افسحوا الطريق !

وارتفع رنين اجراس صغيرة عديدة تدق مبتهجة ... كان كل شيء
جميلا ومسلما كما في ايام الاعياد والانراح ... ودفعني جدي من قسرب
الباب ، قائلا :

— الم تسمعي ؟ قلت لك امض من هنا !

كان يستحيل ان اعصيها في مثل تلك اللحظة . رجعت الى المطبخ ،
وجلسيت الى النافذة مرة ثانية . ولكن تلك الجموع السود من الناس كانت
تختفي احيانا ، واحيانا تخفي على مسرح النار فلا استطيع ان ارى الا لمعان
الخوذ المعدنية وهي تثقل بين تلك القبعات الشتائية السوداء .

أخمدت النيران سريعا بحصرها في منطقة واحدة وصب الماء عليها .
وفرقت المترطبة الجماهير المزدحمة . وعندما انتهى كل شيء رجعت
جدتي ادراجها الى المطبخ ...
— من هناك ؟ انت ؟ الم تنم ؟ هل انت خائف ؟ لا تخف ! لقد انتهى
كل شيء الان !

جلست بجانبى تتأرجح الى الامام والخلف دون ان تنطق بحرف واحد .
كنت سعيدا بان يستعيد الليل هدوءه وظلمته . ولكنني كنت ، في ذات الوقت ،
أسف على خسارتي مشهد النار . .

وظهر جدي على العتبة :

— امه ؟

— ماذا ؟

— هل احترقت ؟

— لا شيء يذكر ...

اشعل عود كبريت ، فاضاء لهبه الأزرق وجهه السنجابي الملطخ
بالدخان . واشعل الشمعة الموضوعة على الطاولة ، ثم قبع بالقرب من
جدتي . قالت :

— يجب ان تفتسلي !

كانت مغطاة هي الاخرى بطبقة كثيفة من الهباب . .

وتنهذ جدي :

— ما اعظم رحمة الله اذ وهبك كل هذا الذكاء !

ضربها بلطف على كتفها ، واضاف وقد انفرجت اسارير وجهه :

— اعني انه يهبك اياه للحظات قصيرة ، وفي نوبات متباعدة . ولكنه
يرسله على اية حال ! ...

مضحكت جدتي بدورها وارادت ان تقول شيئا لكن جدي قطب وجهه ،
وتابع :

— يجب أن نتخلص من جريجوري ، فكل ما حدث كان بسبب إهماله .
ان هذا الموجيك لم يعد يصلح لشيء . اليك ياكوف الذي يبكي عند العتبة .
ياله من أحق ! يحسن جدا أن تخرجي اليه . . .

فنهضت وخرجت . . . وقد رفعت يديها تنفخ على أصابعها ! . . .
سال جدي ، دون أن يتكلف التطلع الي :

— أرايت الحريق منذ بدايته ؟ حسنا ، ما رأيك بجذتك هذه ؟ لا تنس
انها امرأة عجوز . . . محطمة . . . منهارة . . . ان في هذا لدرسا لك ،
ولجميع ايضا — تفو !

وانطوى على نفسه ، وظل صامتا بعض الوقت . ثم نهض واقفا ،
واطفأ لهيب الشمعة بأصابعه ، وهو يسال :

— اخففت ؟

— كلا !

— حسنا ، فلم يكن هناك ما يستوجب الخوف .

ونزع عنه قميصه بحركة ساخطة ، ومضى الى المفصلة الموضوعة في
زاوية المطبخ ، وضرب الأرض بقدميه وصاح :

— الحريق ! تلك حماقة كبرى وربى ! والذي يحدث حريق في بيته
يجب أن يجلد في الساحة العامة كمجنون او لص ! هذا ما يجب أن يفعلوه
مع مثل هؤلاء الناس ، وحينئذ يمتنع الحريق تماما ! . . . عد الى سريرك ،
فما بقاؤك هنا ؟

اطمعت امره ، ولكن النوم هرب عن جفني في تلك الليلة . ولم اكذ ازحف
الى السرير حتى رددت الي الحباة بصراخ لا انساني . فركضت ، مرة ثانية ، عائدا
الى المطبخ ، حيث وجدته واقفا في وسطه وقد خلع قميصه ، وحمل شمعة
مرتجفة الشعلة ، وهو ينقل قدميه دون أن يتحرك من مكانه قيد أنملة .

قال لاهثا :

— اماه . ياكوف ، ما هذا ؟ ماذا جرى ؟

فقفزت فوق الموقد ، وتكورت في زاويته . ومرة ثانية عاد كل شيء الى
ما كان عليه من بلبلة واضطراب اثناء اشتعال النار . وكان العويل يصطدم

بأمواج منتظمة على الجدران والسقف ، وهو يزداد ارتفاعا ولجاجة ...
وراح جدي وخالي يركضان هنا وهناك كالمجانسين ، وجدتي تطردهما خارج
المطبخ وجريجوري يحدث ضجة صاخبة بالأخشاب التي يلقيها في الموقد . ثم
راح يملأ بعض الغلايات بالماء وهو يهز رأسه كاحد جمال استراخان .

امرت جدتي :

— اشعل النار أولا !

فتسلق جريجوري الموقد بلطف ، فوقع بصره على قدمي ، فاذا به يصيح
مرتاعسا :

— من هناك ؟ تفو ، لقد ملأتني رعبا ! أنت تنطرح دائما حيث لا حاجة
اليك على الاطلاق .

— ماذا هناك ؟

فاجاب بهدوء ، وهو يرجع الى الارض :

— ان الخالة ناتاليا تلد !

فتذكرت ان والدتي لم تصرخ هكذا يوم وضعت . وحين رفع جريجوري
الغلايات على الموقد ، تسلقه حتى صاقتني ، ثم اخرج من جيبه غلبونا من
الخزف . قال ، وهو يريني الغليرون :

— لقد بدأت ادخن لان في ذلك شفاء لعيني ، وجدتك تنصحنسي ان
استعمل السعوط ، ولكنني اعتقد ان التدخين احسن وافضل ...

جلس ، وقدماه مدليتان فوق حافة الموقد ، يشخص الى ضوء الشمعة
الخافت ، وقد تلوثت اذناه وخداه بالدخان الاسود ، وتمزق قميصه ، بحيث
رايت الى اضلاعه وهي تبرز وتغور ، وتشققت احدى زجاجتي نظارته
السوداء وسقطت منها قطعة كبيرة ، فتركت فرجة يستطيع المرء ان يرى منها
الى عينه الحمراء التي تبدو كجرح مفتوح يدمي .

وملا غليونه بورق التبغ ، وراح يستمع الى انين تلك المرأة الماخض ،
وهو يتمتم لنفسه كما لم يكن ثملا :

— يبدو ان النصار نالت جدتك على اية حال . ترى ، كف ستدبر امر
نوليد خالتك ؟ قل لي ، هل سمعت كيف قصت خالتك نهارها ؟ لقد نسوها

تماما لقد شرعت في الاثنين منذ بدء الحريق ، وقد أوجعها الخوف كثيرا ...
انظر فقط كم يصعب حمل مخلوق جديد الى هذا العالم ! ومع ذلك ، فان احدا
لم يلق بالا الى تلك المرأة . ان المراقبة يجب ان تحترم ، فهي أم ، وهذه هي
الحقيقة ، فلا تنسها أبدا .

غفوت برهة من الزمن ايقظني بعدها صرير الباب ، وصيحات الخال
ميخائيل السكران الملتخ ، ثم صوت جلبة عامة شاملة ... وتناهت الى
سمعي كلمات غريبة منها :

— يجب ان تفتح الابواب الملوكية في الكنيسة ...

— اعطها بعض زيت الايقونة والروم ، واخلطهما بالهباب : نصف قدح
من الزيت ، ونصف قدح من الروم ، وملعقة من الهباب ...
وتابع الخال ميخائيل صيحاته :

— اريد ان القي عليها نظرة ...

كان جالسا على الارض يبصق امامه وقد مد رجله المنفرجتين ، وراح
يضربهما بكلتا يديه . واصبحت الحرارة لا تطاق على الموقد ، فأسرعت
بالهبوط عنه . ولكني لم اكد اقترب من خالي حتى لبطني بقدمه فأوقعتني
على الارض ، واصطدم رأسي بها ... صرخت :

— احمق !

فوثب على قدميه ، واختطفني ، ثم أرجعني في الهواء وهو يغمغم :

— ساحطمك على الموقد !

وعندما استعدت صوابي كنت مضطجعا على ركبتي جدي في الصالون
الكبير . كان قابعا في زاوية الايقونات ، بهدهدني الى الامام والخلف ، وعيناه
مبتتان في السقف ، وهو يجمع :

— لن ينال احدا منا المغفرة ، ولا واحدا أبدا ...

كان لهيب الايقونات يحرق بقوة فوق رأسه ، وفي وسط الغرفة ، على
الطاولة ، شمعة مضاءة . . وهناك صباح شتائي مكثف يطل علينا من
النافذة .

سألني جدي ، وهو يحنو علي :

— ماذا يؤلمك ؟

كان كل شيء في يؤلمني ، فراسي مبلول ، وجسدي يشبه الرصاص وزنا . ولكني لم أرغب في التحدث عن ذلك . كان كل ما يحيط بي غريبا غير معهود . فهناك جمهور من الناس غير المألوفين لدي يشغلون عدة مقاعد في الغرفة — وهذا كاهن في حلة أرجوانية اللون ، وهناك شيخ أشهب الشعر يضع نظارة ويلبس بزة عسكرية ، وهناك عدة أشخاص آخرين يجلسون بدون حراك ، وقد جمدهم البرد ، فهم أشبه بتمائيل من الخشب ، يسمعون في سكون الى غليان الماء في مكان ما عن قرب . . . وكان خالي ياكوف يقف منتصبا قرب الباب ، وقد وضع يديه خلف ظهره .

قال جدي :

— تعال أحمله الى سريريه ، يا ياكوف .

فأومأ خالي الي ، فمضينا على رؤوس أصابعنا حتى وصلنا غرفة جدتي . . همس الخال في أذني ، عندما تكورت على السرير :

— لقد توفيت خالتك ناتاليا . . .

فلم يدهشني ذلك — لأنها ظلت مدة طويلة لا تظهر في أرجاء البيت — ولا تدخل المطبخ ، بل لا تقترب الطاولة لتناول الطعام .

— أين هي جدتي ؟

فأجاب ، وهو يحرك يده :

— هناك ، تحت !

ثم رجع مثلما جاء ، يسير على رؤوس أصابعه الحافية . . .

اضطجعت على السرير أتطلع حولي قلقلًا . وراحت تتراءى لي ، على زجاج النافذة ، عدة وجوه شائبة الشعر . كان ثوب جدتي معلقا في الزاوية فوق الصندوق — كنت أعرف هذا ، ولكن الثوب بدا لي وكأنه مخلوق حي يتربص هناك بين الظلال ، فخبأت رأسي تحت المائدة ، واحتفظت بأحدى عيني مثبتة في الباب . كنت أود أن اقتفز من السرير وأهرب . . . كانت الغرفة حارة ، وقد عيج المنزل برائحة غريبة تذكرني كيف لاقيت تسبجانوك

حتفه ، والدم يتدفق منه على أرض المطبخ . وخيل الي ان راسي ، بل قلبي ،
بنتفخ . . . وأن كل شيء اشاهده في ذلك البيت يمرق في جسدي مثل
مركبة جلدية تسرع في درب ثلجي ، وهي تشدد الخناق علي ، ثم تمحوني
من الوجود تماما .

وسمعت الباب يفتح ببطء ، ومنه دلفت جدتي . . . ثم دغعت الباب
بكنفيها ، فأغلقتة ، وظلت مستندة اليه وقد مدت ذراعيها ناحية اللهب
الازرق الذي يبعثه قنديل الايقونات .

وهمست في نغمة صبيانية شاكية :
يا ليدي المسكينتين ! . . كيف احترقتا ! . .



حصل تقسيم الاملاك في مطلع الربيع ، فتخلف ياكوف في المدينة ، اما ميخائيل فغبر النهر الى كوناقينو . واقتنى جدي لنفسه منزلا جديدا رائعا حجري البناء في شارع بوليفوي ، في الطابق الارضي منه خمارة واسعة ، وعلى السطح غرفة أنيقة صغيرة ، ويلحق بهذا المنزل حديقة تشرف على واد يعج بأشجار الصفصاف المعراة .

غمزني جدي بعينه مبتهجا ، وقال يخاطبني ونحن نطوي الممرات الطرية الناعمة نجوب ارجاء الحديقة ونتفحصها :

— ما اكثر القضبان هنا ! في وقت قريب سابدأ بتعليمك القراءة والكتابة ، وعندئذ ساكون في أمس الحاجة الى هذه القضبان !

كان المنزل يفيض بالمستأجرين ، فاختص جدي نفسه بغرفة واسعة في الطابق العلوي أعدوها لاستقبال الضيوف ايضا . وكان نصيبنا ، جدتي وأنا ، غرفة السطح التي تطل نوافذها على الطريق ، فاذا ما جلست اليها استطعت ان اشاهد السكارى الخارجين من الخمارة في الامسيات وايام الاعياد ، يترنحون وهم يعبرون الشارع ، يستندون الى مزاريب المياه ويزمجون ... وغالبا ما كانوا يرمون من الخمارة وكأنهم اكياس فارغة من الطحين ، فيعودون الى الباب يدفعونه، ويهاجمونه بأيديهم ، او يضربون عليه بدقاقتة المتعفنة ، وهم يسبون ويشتمون . وكان الباب يخضع لهم أحيانا ، فتتشب عندئذ معركة لا أدري نتائجها ... كان ذلك كله في الحقيقة مثيرا للاهتمام حتى الدرجة القصوى . وكان جدي يمضي كل صباح الى معبلي ولديه ليساعدهما في تنظيم أمورهما . ثم يعود مساء غاضبا ، متعب الجسم ، كئيب القلب ، حاد الطبع .

أما جدتي فكانت تقوم بتدبير المنزل ، وتهيء الطعام ، وتبش الحديقة ، وهي تكردح هنا وهناك النهار بطوله كخزوف كبير ، وكأنها يسيرها سوط خفي غير منظور . وكانت تستنشق معوطها ، ثم تعطس باشتهاء ، وهي تراقب كل شيء وتجنف وجهها المتصبب عرقا :

— شكرا للقديسين والملائكة حتى آخر الدهور ! لقد انتقلنا أخيرا الى حياة هادئة ، يا اليوشا ، يا طيري العزيز ! أن كل شيء جميل ورائع بالنسبة الينا ، فشكرا للمعذراء الطاهرة !

ولكنني لم أجد شيئا من الهدوء في حياتنا . . . فقد كان المستاجرون يخبون منذ الصباح حتى المساء في الساحة وداخل المنزل ، والجيران يأتوننا وهم في عجلة من أمرهم دوما ، ودوما متأخرون يسعون وراء شيء ما ، ودوما يتأهبون لعمل ما من الاعمال . وكانوا ينادون جدتي :

— اكولينا ايفانوفنا !

فتوزع اكولينا ايفانوفنا ابتساماتها العذبة عليهم بلطف جم على عادتها ، وتصغى اليهم بانتباه زائد ، وهي تدفع السعوط داخل منخريها ، ثم تمسح انفها وأصبعها باتقان في مذيبل احمر اللون .

كانت تقول :

— تريدون ان تتخلصوا من القمل ؟ يجب عليكم اذن ، يا أعزائي ، حين تربدون التخلص من القمل ان تغتسلوا في الحمام في فترات متتالية ، وأفضل على ذلك ان تعرضوا انفسكم لابخرة زيت النعناع . ولكن ! اذا كان القمل تحت الجلد فيجب ان تتناولوا ملعقة من شحم الوز ، من انقى أنواعه ، وملعقة قهوة من السليمانني وثلاث قطرات من الزئبق ، وامزجوها جميعا سبع مرات في هاون صيني ، ثم ادلكوا جسدكم بها . اياكم أبدا واستعمال ملاعق الخشب والمعاج والافسد الزئبق ، واياكم ومسه بال نحاس أو الفضة لان ذلك يكون عظيم الضرر اذن .

وكانت تشير أحيانا ، بعد تبصر وامعان دقيقين :

— الأفضل ان تذهبي الى الناسك آزاف في صومعته ، يا سيدتي الطيبة . ان سؤالك صعب لا أستطيع له تفسيراً أو جواباً .

وكانت تعمل قابلة ، وحكما في المشاجرات البيتية ، وتداوي المرضى من

الاطفال الصغار ، ونروي قصة « حلم العذراء » عن ظهر قلب لتتعلّمها النسوة فينلن السعادة والغبطة ، ثم تعطي نصائحها في شؤون البيت وقضاياها :

— ان الخبر نفسه يعرف الزمن الذي يجب ان يكبس فيه ، وذلك مباشرة عندما تزول منه رائحة الارض وسواها ، فيصبح عندئذ قابلا للتليخ ... وللحصول على كفاس (١) طيب يجب ان يكون حار المذاق ، لان مشروباً كالكفاس لا يتفق ابداً مع أي شيء حلو المذاق . ولكن ، لا مانع من ان تضيفوا اليه شيئاً من الزبيب ، او قليلاً جداً من السكر — ملحقة واحدة لكل دلو منه . وان هناك طعاماً مختلفاً للقشطة حسب طريقة صنعها ، فهناك أسلوب اهل الدانوب في ذلك ، وكذلك الطريقة الاسبانية ، ومن ثم الطريقة الفوقازية .

اما انا فحنت اخب في اعقابها وادب النهار بطوله ، متعلقاً باثوابها ان في الساحة او في الحديقة او عند الجيران . حيث كانت تجلس لبضعة ساعات تحتسى الشاي وتعيد سرد ما لديها من قصص واخبار ... وكنت ابدو ، وقتذاك ، وكأنني قطعة منها . وانا لا اذكر احداً خلال تلك الفترة من حياتي ، اللهم الا هذه العجوز الكدود اللطيفة .

وغالباً ما كانت امي تظهر بيننا في فترات قصيرات . كانت ما تزال متكبرة ، عابسة الوجه ، تراقب كل شيء بعينين باردتين مظلمتين كاشعة شمس الشتاء ... ولا تقيم بيننا طويلاً ، بل ما أسرع ان تختفي دون أن تخلف وراءها أثراً يذكرنا بها .

سألت جدتي ذات يوم :

— أنت ساحرة ؟

فضحكت :

— حقا ؟ من اين اخترعت هذا ؟

(١) شراب شبيه بالبيرة .

وسرعان ما ارتسمت على محياها علائم الجد ، وازافت :

— ومن أنا لاكون ساحرة ؟ ان السحر فن صعب ، وانا لا اكاد افقه
الاله ، بن الباء ! انظر الى جدك ! يا له من رجل متعلم ! ولكن العذراء
الطاهرة لم تعطني ، انا ، الكثير من الحكمة والمعرفة .

وحينذاك اتتمنتني على جزء اخر من حياتها :

— لقد شببت يتيمة انا الاخرى . فقد كانت امي فلاحه معدمة ، ومقعدة
بالاضافة الى ذلك . وقد أخافها مرة سيد نبيل وهي لما تنزل بنتا بعد ...
ولذا فقد ألقت بنفسها ، ذات ليلة ، من احدى النوافذ ، فكسرت خاصرتها
وكتفها ، بحيث وهن ذراعها عن الحركة ، ذراعها الايمن ، ذراعها الجوهري
في العمل ، اذ كانت عاملة تطريز ماهرة . وقد حررها النبيل بعد ذلك بزمان
قصير لعدم انتفاعهم منها ، وكأنهم قالوا لها : عيشي كما تهوين وتبغين .
ولكن ، كيف يمكنها ذلك بيد واحدة ؟ وهكذا أمست مستعوية في الطرقات .
وكان سكان بالاخنا ، في ذلك الحين ، أكثر غنى وأطيب قلبا — كانوا نجارين
شجعانا ، وعاملات تطريز ماهرات ، قلوبهم من ذهب ، وكل منهم أفضل من
الاخر . فلم نغادر المدينة ، بل رحنا — امي وانا — نبتجدي الناس طوال
الخريف والشتاء . ونكننا نرحنا عن بلدتنا عندما رفع رئيس الملائكة جبرائيل
سيفه فآزاح الجليد عن الاراضي ، فاذا الربيع يتخطر على وجهه البسيطة
بأبهى حله — نرحنا حيث قادتنا اقداما ، فمضينا الى موروم ، ومنها الى
يوريفست ، ثم سرنا على طول الفولجا ونهر اوكا الهادىء . لكم كان مسيرنا
جميلا رائعا ! الارض تفوح برائحة الربيع والخريف ، والتراب ناعم الملمس ،
والعشب يشبه المخمل في طراوته ، والعذراء قد نثرت الزهور في كل مكان
بحيث يغمر السرور قلبك ، ويمتد الفضاء العريض الواسع امام عينيك
الطامحتين بهجة وغبطة ... وعندئذ ، كانت والدتي تغلق عينيها الزرقاوين
نصف اغلاقة ، فاذا بغنائها يرتفع نحو السماء مسبحا ... كان صوتها حنونا
حلوا ، يخيل اليك معه ان كل ما يحيط بنا قد ركن الى الهدوء والسكون ،
فكأنه يرمي بسمعه اليها . لكم كان التسول حسنا في ذلك الزمان ! غير ان
والدتي رفضت ، يوم بلغت العاشرة من عمري ، ان اصحبها للتسول . كانت
تجد ذلك مخجلا ، بل فضيحة شائنة ... وهكذا استقرت في بالاخنا ، وهناك
كانت تطرق الابواب ايام الاسبوع طلبا للخز ، وتقف ايام الاحاد على

باب الكنيسة تستعطي الناس والمصلين . اما أنا فكنت أتخلف في البيت اتعلم التطريز . ولم استطع ان اتعلم ذلك بسرعة . وان كنت تواقه جدا الى مساعدة امي المسكينة . ولطالما بكيت وتساقتطت الدموع من عيني بغزارة عندما يكون صعبا فلا انجح في تحقيقه ولكن سرعان ما تعلمت في سنتين - تأمل ! - تلك المهنة الصعبة ، وذاعت شهرتي في البلدة وضواحيها . وكان القوم يأتوننا ، عندما يريدون عملا ممتازا ، ويقولون : « حسنا يا اكوليا ، هلا لعبت بأصابعك وأبرك ؟ » . وكنت سعيدة بذلك ، وان كنت لا استحق في الحقيقة ذلك الصيت الذي كانت امي أجدر به مني ، لأنها هي وحدها التي علمتني . ورغم عجزها عن العمل بيد واحدة ، فقد كانت تستطيع ان تعلمني ، والمعلم الطيب أفضل من عشرة عمال . ولكنني كنت متكبرة جدا ، فقلت لها : « انك تستطيعين الآن ، يا أماء ، ان تكفي عن التسول ، فانا اقدر ان اطعمك من عمل يدي ! » . ولكنها قالت : « صه ! الا تعلمين ان هذا المال يجب ان يكون مهرا لك ؟ » . وما أسرع ان ظهر جدك بعد ذلك - رجل يافع ملحوظ ، في الثانية والعشرين من العمر ، ومع ذلك يكسب كمية لا بأس بها من المال . . وتفحصتني أمه جيدا ، ورات ما أنا عليه من الفقر - وانني ابنة امرأة مستعطية فاستنتجت من ذلك انني سأكون زوجة مطيعة . مطيعة . . سمعت ! . . وكأنت ، بدورها ، بائعة للحلوى والكعك ، ذات نفس خبيثة شريرة . . . ولكن ، سامحني الله ، لم نتحدث بالسوء عن الأموات ؟ وما فائدة ذكر القوم الاشرار ، ان الله يراهم ، والشيطان بحبهم . . .

وأطلقت ضحكاتها الصادرة عن القلب ، فاهتز أنفها بشكل يبعث على السخرية ، وشملتني حينها بعطف حنون يفصح عن مراده أكثر مما تفصح الكلمات . . .

. . .

وأنا أذكر ليلة هادئة كنت أشرب فيها الشاي وجدتي في غرفة جدي . كان مريضا يقبع في سريره وقد خلع عنه قميصه ، وغطى كتفيه بمنشفة طويلة يمسح بها ، بين الفينة والفينة ، العرق المتصدر على جبينه وكان تنفسه سريما أجش الجرس ، وعيناه الخضراوان تغشيهما سحابة داكنة ،

ووجهه محمرا منتفخا ، وأذناه المدببتان الصغيرتان متوردتين ، ويده ترتجف
— كلما حاول أن يتناول قدح الشاي — بشكل يثير الشفقة حقا . كان
رقيقا ، في ذلك اليوم ، على غير عادته ...

وراح يشنكي لجدتي بنغمة طفل مدلل :

— لم لم تضعي لي بعض السكر ؟

فاجابت بلطف ، في شيء من العزم أيضا :

— لأن العسل أصلح لك .

فجرع قدح الشاي متمللا باكيا ... قال :

— احذري أن أموت .

— لا تقلقي ، فأنا ساهرة غير غافية .

— حسنا ! أنا لو مت الآن لاشبهت من لم يعيش على الإطلاق — أو من
عاش من أجل لا شيء ...

— اضطجع ، وكفك ثرثرة .

ظل مضطجعا مدة قصيرة ، دون حراك ، مغمض العينين ، وهو يتلمظ
شفتيه الزرقاوين . ثم قفز فجأة ، وكأن أحدهم قرصه :

— يجب أن تزوجي ياكوف وميخائيل بأقصى ما تستطيعين من سرعة .
فلربما جعلهما ذلك أكثر الفة وهدوءا . ما تقولك ؟

وشرع يستعرض فتيات البلدة اللائقات أن يتزوج ولداه منهن ، بينما
راحت جدتي تشتف الكأس من الشاي تلو الأخرى ، دون أن يبدو عليها
أدنى اهتمام بالموضوع .

كنت ممنوعا ، عقابا على بعض ذنوب ارتكبتها ، من النزول إلى
الحديقة ... فجلست إلى النافذة أراقب غروب الشمس ينعكس بريقه على
نوافذ المنازل ، وأمتع الأنظار بالقليلة المشتعلة فوق المدينة . كانت جموع
من الخنافس تدوي في الحديقة تحت شجر البتولا ، واحد العمال يضرب

بالمطرقة برميلا في الساحة المجاورة ، وشخص ما يشحذ السكاكين في مكان قريب مني . وكانت ترد من الوادي ، خلف الحديقة ، صيحات أطفال يلعبون بين الاشجار الكثيفة ، فاشتاق يانسا ، وقد اثقلت كآبة الغسق على قلبي ، ان اكون بينهم اشاركهم لعبهم .

وأخرج جدي ، على حين بغتة ، كتابا انيقا للغاية ، لطمه براحة يده . وناداني بصوت أنيس :

— انت ، أيها السنونو الصغير ! انت ، يا صاحب الاذنين الملفوفتين ! انت ، تعال هنا ! اجلس ، أيها المتثري الوجه ! اترى هذه الاشارة ؟ انها « الف » في أب ، « ب » في باب ، « ت » في توت . ما هذه ؟

— « ب » في باب .

— مضبوط ، وهذه ؟

— « ت » في توت .

— غلط ! « الف » في اب ، انظر هنا ... « د » في دار ، « ج » في جار ، « ف » في فار ... ما هذه ؟

— « ج » في جار .

— صحيح ، وهذه ؟

— « د » في دار .

— رائع ، وهذه ؟

— « الف » في أب .

فقاطعتنا جدتي :

— يحسن بك ان تضطجع بهدوء ، يا ابتساه !

— أطبق شفتيك ! ان هذا يروح عني ويبعد المتاعب عن ذهني ، تابع ، يا الكسي ! ...

ولف ساعده الحار الرطب حول رقبتني ، وأشار الى الحروف ، بينما امسك في اليد الاخرى بالكتاب تحت أنفي مباشرة .

كان يفوح منه مزيج من رائحة الخل ، والعرق ، والبصل المشوي ،
نكاد ان تخنقني ...

واهتاج فجأة ، بشكل غريب ، وصاح في أذني :

ـ « م » في مطبخ ... « س » في سيده ...

كانت تلك الكلمات والاصوات مألوفة لدي ، وكذلك الامور التي نعبر
عنها ، ولكن الحروف السلافية لم يكن لها ادنى شبه بها على الاطلاق .
فالسین تبدو أكثر شبها بالدودة منها بالسيدة ، والميم بجريجوري الاحدب
منها بالمطبخ ، أما الجيم المنتفخة فتذكرني بجديتي ، بينما كان في جدي شيء
يجعله يشبه سائر الحروف كل الشبه . واسنمر طويلا يعلنني حروف
الهجاء ، يسألني عنها بانتظام مرة ، وحسب هواه مرة اخرى . واصابني
بعدوى ثورته ، فمرحت اتصيب عرقا بدوري ، واصيح بأعلى صوتي ، الامر
الذي راق له كثيرا فاغرق في الضحك حتى اصابتة نوبات متتابة من
السعال .

كان يتنهد ، وهو يضرب بيده على صدره والكتاب معا :

ـ انظري كيف تحمس لذلك ، يا اماء ! تغو ! تغو ! ايها الطاعون
الاستراخاني ، ما بالك تصيح بهذا العنف ؟

ـ انك انت الذي يصيح ...

ورحت ارنو اليه مبتهجا ، وقد جلست جدتي الينا ومرفقاها على
الطاولة ، واصابعها على خديها ، تضحك بهدوء وهي تراقبنا ... قالت :

ـ كفكما صياحا يذهب بعقليكما !

والثفت جدي الي ، وهو يفسر لي بالفة :

ـ اني اصيح لاني مريض . ولكن ، لم تصيح انت ؟

ثم حك رأسه الناضح عرقا ، وقال مخاطبا جدتي :

ـ لقد كانت المرحومة ناتاليا مخطئة عندما قالت ان ذاكرته رديئة . انها
اشبه بذاكرة الحصان ! تابع ، ايها الافطس الاتف !
ثم جذبني ، فنيما بعد ، ناحية السرير مازحا :

— ذلك يكفي ! احتفظ بالكتاب . سأسألك في الغداة عن كامل الأبجدية ،
فمايك ان تخطيء في تلاوتها . وسأعطيك خمسة كوبيكات لقاء ذلك .

وعندما اقتربت لاستلم الكتاب ، ضمنى اليه ، وقال بأسى :

— ما الذي دفعك الى الذهاب واهمالك هنا ، يا بني !

فتدخلت جدتي :

— ما معنى الحديث عن ذلك الان ، يا أبتاه ؟

— ان الحزن يدفعني الى ذلك . . . آه ، يا لها فتاة من المؤسف ان
تضل !

ودفعني عنه بحركة عنيفة :

— امض من هنا والمعب ! ولكنني امنعك من الخروج الى الشارع ،
ابق في الساحة او في الحديقة . أسمع ؟

كانت الحديقة هي بغيتي بالضبط ، اذ لا اكاد اظهر فيها حتى يشرع
الاطفال الذين يلعبون في النوادي يرموني بالحجارة ، فلا أرغب الا في ان اكيل
لهم الصاع ضامين .

كانوا يصيحون ، عندما يبصرون بي :

— ها هي ذي البقرة !

— اضربوه !

لم اكن املك أية فكرة عن ماهية البقرة ، وهذا يعني انه لا يمكنني اعتبار
اقوال الاولاد اهانة موجهة الي . وكنت اغتبط اذ اجد نفسي خصما لكل تلك
الجهرة ، وأرى اليهم يتراكمون عندما أصليهم بنار من الحجارة حامية لا
تخطيء الهدف هنا وهناك ، ويختبئون وراء الادغال الكثيفة . وكانت أمثال
تلك المعارك لا تحمل حقدا ولا تترك شعورا بالاذية والضرر ، بل تنتهي دائما
على خير وجه .

تعلمت القراءة بسرعة ، وأظن ذلك ما جعل جدي يوجه الي المزيد من
العناية والاهتمام ، ويقلل من مرات جلدي ، مع انني كنت ، في رأيي ،
أستاهل من الضرب والجلد اكثر مني قبلا بما لا يقاس . ولما كنت ازداد سنا

واقوى جسدا ، فقد شرعت اخالف اوامره كثيرا ، فيكتفي بتعنيفي او بهز اصابعه في وجهي .

صور لي ، وقتئذ ، انه غالبا ما كان يجلدني في صغري دونما ادنى فائدة او سبب معقول ، واخبرته برابي هذا ذات يوم ، منقر نقرة خفيفة نحت دقني ، وحلق في عيني ، وقال وهو يتشدد بكلامه :
— ما ... ذا ؟

تم اضاف ، وهو يتهقنه :

— انت ، ايها الهرطوقي الصغير ! من انت حتى تقرر عدد المرات التي استأملت الجلد فيها ؟ .. انا الوحيد الذي يعرف ذلك ! افهمت ؟

وامسك بي من كتفي - بينما كنت استدير عنه ، ومرة نائية راح يحملق في عيني :

انت خبيث ام ابله ؟

— لست ادري .

— لست تدري ، ما ؟ سأخبرك اذن — انت خبيث ، وهذا افضل من ان تكون ابله ! ان الخراف بلهاء ، افهمت ، والان ، امض والمعب ...

وسرعان ما ابتدأت اتهجا كتاب المزامير . وجدي يدرسني ، غالبا ، بعد تناول الشاي مساء ، حيث اقرا في كل مرة مزمورا كاملا .

— س ، ع ، ي ، د ... سعيد ... ا ، ل ، ر ، ج ل ... رجل ...
... الرجل ... سعيد الرجل ...

كنت اتهجي ذلك ، واصبعي الوسطى تنتقل على طول السطر . وكان الضجر يغمرني ، فاطرح عدة اسئلة مختلفة :

— من هو السعيد ؟ اهو الخال ياكوف ؟

— سأضربك على نقرتك فتعرف وقتئذ من هو السعيد .

كان جدي يهتف بهذه الكلمات وهو يلهث غاضبا . ولكنني اشعر أن غضبه ليس صحيحا ، بل من تأثير العادة فقط ، ولحفظ النظام ليس غير .

لم اكن لاخطيء قط ، اذ لا يلبث ، بعد لحظة ، ان يهيم ناسيا وجودي :

— أف . عندما يأخذ باللعب والغناء يشبه الملك داوود كل الشبه ،
ولكنه يشبه ابشالوم الخبيث في أعماله . قوي ، غشاش ، مهرج — تفو !
يرقص ويمرح فوق العشب ! حسنا : ولكن الى أي حد سيذهب بك
رقصك ! أعتقد انه لن يطول !

فاتوقف عن القراءة لاستمع اليه ، واتطلع الى وجهه الانيس المضطرب .
كانت عيناه الضيقتان ترنوان من فوق رأسي الى ما ورائي ، مليئتتين بحزن
عنيف يذوب مساوته المعتادة ، وحاجباه الذهبيان يرتعشان ، وأظافر أصابعه
الملوثة بالصباغ تلتصق وهو ينقر على الطاولة بعصبية .

— ماذا ؟

— قص علي قصة ...

فيدمدم . وهو يفرك عينيه كما لو استيقظ لساعته من النوم :
— هيا ! تابع قراءتك ، ايها الكسول ! اننت تفضل ان تستمع الى
المخراقات أكثر منك الى المزامير !

كنت واثقا انه يفضل القصص الخرافية على المزامير التي يحفظها عن
ظهر قلب . وقد نذر الا ينام قبل أن يقرأ جزءا منها كل ليلة بصوت مرتفع ،
فبرتلها كشماس الكنيسة عندما يرتل في كتاب الصلوات .

والح عليه حتى يرق قلبه أخيرا ، فيروي لي إحدى قصصه قائلا :

— أوه ، حسنا ، اننت ستحتفظ بالمزامير معك طوال حياتك ، أما أنا
فسأضي قريبا لاقابل خالتي أمام كرسي الدينونة .

ويلقي برأسه الى الوراء ، وهو يستند الى حافة الكرسي العتيق
الحادة ، ويثبت عينيه في السقف ، ويغرق في ذكريات أيامه الخالية . ثم يأخذ
بالحديث عن أبيه والزمان الغابر . لقد حدث ، ذات مرة ، أن عصابة من
الصوص أغارت على بالأخنا مستهدفة دكان التاجر زاييسف ، فركض والد
جدي الى قبة الكنيسة لينبه الناس ، ولكن اللصوص أدركوه ، ومزقوه
بسيوفهم ، ورموا بقطعه من فوق البرج .

— كنت طفلا صغيرا بعد فلم أشهد تلك الحادثة ، بل لم أعد أذكرها
أيضا . فذكرياتي الأولى تعود الى مجيء الفرنسيين عام ١٨١٢ — وسني

حينذاك لا تتجاوز الثانية عشرة — حين ساقوا ثلاثين أسيرا الى بالاخنا ، وهم جميعا صفار البنية ، برزت عظامهم ، وتهلّلت نياهم حتى انسبّت اسمان المتسولين — كانوا ، على أية حال ، اسوا من هؤلاء منظرا — يرتعشون ويرتجفون ، وقد تجمدت اطراف بعضهم بردا فاضحوا عاجزين لا يستطيعون النهوض على اقدامهم . واراد الفلاحون قتلهم جميعا . ولكن الحراس وحامية المدينة منعوهم عن ذلك ، وردوهم طرا الى اكواخهم . ثم سار كل شيء على ما برام ، واعناد الطرفان بعضهما بعضا ، فاذا الفرنسيين اذكاء القلب ، ثابتوا الفكر ، خففوا الحركة ، يتغنون بأغانهم حيثما طاب لهم . وراح نبالونا بنحدرون من نيجنسى نوهجورود في العربات للنفرج عليهم ، وفريق منهم يلعن الفرنسيين ويهز قبضته في وجوههم ، بل يضربهم في بعض الاحيان . . . بينما يحدثهم الفريق الآخر بلطف بلغتهم الفرنسية ، ويقدم اليهم المال والنياب العتيقة لبفرح قلوبهم بها . وانا اذكر شيئا منهم ، كان من كبار النداء ، أخفى وجهه بيديه ، مرة وطفق يبكي وبسح : « هلا راسم الى ما جناد ذلك الشيطان نابليون بحق هؤلاء الفرنسيين ؟ » . تمنع في ذلك — روسي نبيل ذو قلب طيب — تأخذه الشفقة بمثل هذا الشكل على اولئك الغرباء الاجانب .

ويصمت جدي برهة ، وبغمض عينيه ، ويحنى راسه ، وبصف بيده شعره الطويل . . . ومن ثم يتابع الحديث بعناية ، منقبا في مهامه ذكرياته القديمة :

وجاء ذلك الشتاء ، باعصاره الثائر المريع ، وريحه الباردة تزمجر بقسوة وعناد فوق الاكواخ ، فكان الفرنسيون يتراكمون احسانا حتى نوافذنا بنادون والدتي — وكانت تصنع كعكا للبيع — يقرعون الزجاج عليها ، ينبون عن الارض ويطلبون الكعك الساخن منها . ولم تكن أمي تسمح لهم بالدخول الى المكوخ ، بل نناولهم ما يطلبون من خلال النافذة ، فيتخاطفونه حارا يتصاعد البخار منه ، بعد خروجه من الفرن مباشرة ، ثم يخبثونه في طبابت قمعسانهم ، ويضمونه الى اجسادهم المنجمدة ، ردا فوق القلاب نما . ولم أكن افهم كيف يمكنهم تحمل تلك الحرارة الشديدة ! ولقد مات اكثرهم من البرد ، لان . كان البلاد الحارة لا يتحملون مثل ذلك الجليد . وقد أقام انان منهم

عندنا ، احدهما ضابط والاخر تابع له يدعى ميرون ، فاسكناهما غرفة الحمام في اقصى الحديقة . وكان ذلك الضابط فارغ الطول ، نحيل الجسم ، لا يزيد عن حزمة من العظام والجلد ، يتجول في معطف نسائي يصل حتى ركبتيه . وكان لطيفا ، ذا نفس طيبة علقه الوحيدة ادمانه على الشراب . ولما كانت امي تصنع الجعة وتبيعها خفية ، فقد كان يشتري مقادير كبيرة منها . . . فاذا اصبح شملا راح ينشد أغنياته التي لا تنتهي . ولقد تعلم شيئا من لغتنا ، فكان يردد أحيانا : « ان بلادكم غير بيضاء ، انها سوداء جافة . . . » . وكان حديثه متقطع الالفاظ ، ولكنك تفهم ما يقصده . والحقيقة التي لا مرأء فيها ان المنطقة الشمالية جافة مظلة . ولكنك اذا ما انحدرت مع الفولجا أصبحت الاراضي دافئة ناعمة ، لا بل يقال انك اذا ما تخطيت بحر قزوين لم تثر للثلج اثرا . . . ولربما كان في ذلك شيء من الصحة ، فانظر كيف يخلو الانجيل ، وكتاب اعمال الرسل ، وسفر الزامير ، من ذكر الثلوج او الشتاء ، والسيد المسح ولد وعاش في تلك البلاد . . . عندما سننتهي من قراءة الزامير سأتشرح واياك قراءة الانجيل .

وبعود الى الصمت ، فيخيل الي انه يغفو . . . ثم يشخص من خلال النافذة ، وقد ركز انتباهه في امر ما ، وضيق فرجة عينيه ، واتخذت ملامحه مظهر الحدة . . . فاهمس بهدوء :

— هلا تابعت ؟

فيجيب ، وهو ينتفض :

— آه ، حسنا ! عما كنت أتحدث ؟ عن الفرنسيين ؟ حسنا ! لقد كانوا ، بدورهم ، مخلوقات بشرية ليست اردا منا نحن الخطاة . . . وكانوا يتراكضون خلف والدتي وهم يصيحون : « مدام ، مدام ! » ويعنون بذلك « يا سيدتي » . ولكن تلك « السيدة » تخب نحو المنزل تحمل كيسا من الطحين يزيد وزنا عن المائة كيلو غراما ، فقد كانت تفوق الثور قوة وبأسا ، ظلت تفعل سى ما تشاء حتى جاوزت العشرين من العمر . وأنا لم اكن أبدا ، في ذلك الوقت ، ضعيف النية أو جبانا . أما ذلك التابع ميرون فكان مولعا بالخيل كثيرا ، ينتقل بين الاسطبلات ، ويسال الناس بالاشارات السماح له بالعنابة بالخيل . ولكن القوم خافوا منه بادىء الامر — فهو عدو ليس ما يمنعه من الحاق الاذى بها . ولكن لم تمض فترة من الزمن حتى أصبح النلاحون ، بعد

ان تجربوه ، يأتون اليه من تلقاء انفسهم : « هي ، انت ، ميرون ، هـلا
اتيـت ؟ » . فـيضحك ويهز رأسه كالثور ، ويعدو نحوهم ركضا . كان شعره
أحمر اللون كالجزرة ، له أنف كبير ، وشفتان عريضتان ، وهو سائس خيل
عظيم ، له خبرة واسعة عن كيفية العناية بالخيل مهما كان مرضها . . وقد
اضحى ، بعد ذلك ، سائسا في فيجنـي نوجـورود ، لكنه فقد عقله فيما بعد .
وفي ذات يوم ، انهال رجال المطافئ عليه ضربا حتى مات . . . اما الضابط
فراح يذبل ويذبل مع قدوم الربيع ، ثم مات دون أدنى صوت او ضجة ، في عيد
القديس نيقولا . كان يجلس الى النافذة في مسكنه غارقا في بحر من الاحلام
فتوفى هكذا ، وهو يتطلع الى العالم ، وشعرت بالاسف من أجله ، وذرفت
عليه بعض الدموع خفية ، فقد كان انسانا لطيفا ، اعتاد ان يمسك بأذني
لبسكب فيها كلاما ناعما بلغته الخاصة . ولم أكن افهم مما يقول شيئا ،
لكن وقع تلك الكلمات في نفسي كان رائعا للغاية . ان العالم لا يحوي عددا
كبيرا من ذوي القلوب الطيبة ، ومثل هذه الصداقات لا تباع في السوق .
ولقد شرع ، مرة يعلمني طريقة الحديث بلغته الاصلية ، ولكن لمي منعه
عن ذلك ، وقادتني الى الكاهن الذي امرها بجلدي ، ثم رفع شكوى ضد ذلك
الضابط . لقد كان الناس شديدي البأس في تلك الايام ، يا صغيري ! وانت
لن تذوق ما قاسيناه في زماننا — فان انسانا اخرين تحملوا ذلك عنك ، وهذا
ما يجب الا تنساه أبدا ! خذني مثلا — لو انك تعلم فقط مبلغ ما عانيت !

واحلولكت الظلمة ، وكان جدي يتمدد في ذلك الجو القاتم بشكل غريب ،
وعيناه تشعان وتبرقان كعيني القط . وهو يتحدث عادة بهدوء ، واحتراس ،
وتأمل . . . ولكنه أمسى ، اذ راح يتحدث عن نفسه ، أكثر حمية وتفاخرا :
ولم يكن ذلك منه يروق لي ، ولا كنت احب ايضا عظاته المستمرة :

— « تذكر ذلك ! » . . . « اياك ان تنساه ! » .

لقد اطلعني على اشياء عديدة اتوق بكل نفسي الى نسيانها جميعا ،
ولكنها تتشبهت بذاكرتي مثل شوكة مؤلمة يستحيل انتزاعها . . . لم يكن يروي
لي شيئا من افاصيص المجن — بل كانت سائر حكاياته مستمدة من واقع
الحياة ، ومن ماضيه بصورة خاصة . ولقد اكتشفت ان كثرة الاسئلة تزعجه
كثيرا ، ولذا كنت اغتم كل فرصة لالقي عليه اكبر عدد منها :

— قل لي أيهما أفضل — الروسي أم الفرنسي ؟

فيجب مغلظا :

— ومن يستطيع الاجابة على ذلك ؟ انا لم أر الفرنسيين في وطنهم الاصلي .

— ان الفار نفسه لفاضل في حجره الخاص .

— وهل الروسيون طيبون ؟

— بعضهم ذلك وبعضهم لا ! كانوا اكثر طيبة ايام كاثنوا عبيدا تقيدهم السلاسل . اما الان ، وقد اصبحوا احرارا ، فقد نسوا العادات القديمة . ولا ريب ان الاسياد قساة المظلوم نوعا ما ، ولكنهم اعقل من الموبجيك . لا اقول هذا عنهم جميعا ، ولكن النبيل اذا كان طيب القلب مرة ، كان فاضلا جسدا . . . وبعضهم حمقى تمانيا ، يتقبلون ، كالاكياس ، كل ما تضعه فيهم . حقا ، ان بيننا لكثيرا من القشور ، ومن الصدق الفارغ ، يبهدون للوهلة الاولى كالكائنات البشرية ، فاذا اقتربت منهم وتمعننت فيهم رأيتهم قشورا لالب فيها . ان ما نحتاج اليه هو شيء من الثقافة ، ان ما يلزمنا هو ان نشحذ عقولنا . ولكن ، لا يوجد هناك ما نشحذها به . .

— هل الروسيون اقوياء ؟

— بعضهم اقوياء ، ولكن القيمة ليست في القوة ، بل في المهارة ! فلأنت مهما بلغت من القوة يظل الحصان متفوقا عليك في هذا المضمار .

— لماذا حاربنا الفرنسيون ؟

— حسنا ! الحروب مهمة الحكومات والقيصر — وليس لنا ، نحن الناس البسطاء ، ان نفهم هذه الامور . . .

ولكنني لن انسى ، ما حييت ، ما اجابني به جدي يوم سألته عن بونابرت من يكون . . . قال :

— لقد كان رجلا شجاعا اراد ان يستولي على العالم اجمع حتى يستطيع جميع الناس ان يعيشوا في مساواة عادلة . فلا نبلاء ، ولا موظفون ، بل الجميع في مستوى واحد ، وستختلف الاسماء لكن الحقوق ستتساوى للجميع . . . ولن يكون هناك ايضا الا ايمان واحد للجميع ، وتلك فكرة بلهاء

بالطبع لا معنى لها ... فليس الا سرطانات الماء تشبه بعضها بعضا ...
خذ الاسماك مثلا ، حتى هي تختلف عن بعضها : مُحوت سليمان لا يشبه
السماك الابيض ابدا ، والسماك النهري لا يداني السمك البحري ... ولقد
كان لنا ، بدورنا ، بونابرتاتا — فهناك مثلا رازين ستيفان تيموغيف :
وبوكاتش ايميليان ايفنوف — ولكني ساخبرك عنهما في وقت اخر ...
وقد كان ، في اغلب الاحيان ، يرنو الي بعينه المتسعنين مدة طويلة ،
وكانه يراني للمرة الاولى ، وكان هذا يزعجني كثيرا .
ولكنه لم يحدثنى ، ابدا ، عن والدي او عن والدتي ...

...

كانت جدتي تدلف احيانا الى الغرفة اثناء هذه الاحاديث .. فتقتعد ،
في هدوء جم ، كرسيها في زاوية الغرفة ، وتعتصم بالصمت مدة حتى تسأل
على حين فجأة بصوتها اللطيف :

— اتذكر ، يا ابتاه ، كم كانت جميلة تلك الايام التي حجبنا فيها الى
ميرون نזור العذراء الطاهرة ؟ في اي عام حدث ذلك ؟
— لست اذكر بالضبط ، لكن ذلك كان قبل الكوليرا ، في السنة التي
طهروا فيها الغابات من الاولنخاريين .

— صحيح ! انا اذكر كم كنا نخافهم !

— نعم ، نعم !

فسالته من يكون هؤلاء الاولنخاريون ، وما دفعهم الى الاختباء في
الغابات . فاجاب جدي باشمئزاز :

— لم يكونوا الا فلاحين ارقاء ، هربوا من العمل في المصانع والحقول .
— وكيف قبضوا عليهم ؟

— هل لك ان تحزر ؟ كان ذلك أشبه بالاطفال وهم يلعبون ... البعض
يركضون ويختبئون ، والآخرين يمسكون بهم . وعندما تم القبض عليهم جلدوا
بالسياط ، وضربوا بالعصي ، ثم جدمت أنوفهم ، وكويت جباههم بالنار كي
يتضح للملأ العقاب الذي انزل بهم .

— ولم ذلك ؟

— من يدري ؟ ان ذلك امرا مبهما غامض الاسرار ، ومن الصعب ان تميز المخطيء فيهم — اهو الذي فر ، أم الذي قبض على الفار ؟

وقالت جدتي ثانية :

— اتذكر ، يا ابتاه ، ما الذي حدث بعد النار العظيمة ؟

فاستفسر جدي ، وقد قطب وجهه بدقة :

— اية نار عظيمة ؟

وغرقا في ذكرياتهما ، وكاتا دوما ينسيان وجودي في مثل هذه الحال ، فتمعلى كلماتها بهدوء ، موزونة ، حتى يخيل الي انها ينشدان اغنية شجية ، لكنها اغنية حزينة في الوقت ذاته ، موضوعها النار ، والأمراض ، والمصائب التي تنزل بساح المخلوقات البشرية ، والموت المفاجيء ، واللصوص الاذكياء ، والدراويش ، والنبلاء النزقون المنحدرون من الطبقات المراقية ، والمتسولون المتعددون ...

وتمتم جدي :

— ما اكثر ما شاهدنا ! ما اكثر ما عشنا !

فسألت جدتي :

— وهل كانت حياة سيئة ؟ هلا ذكرت روعة ذلك الربيع الذي ولدت فيه فارفارا ؟

— كان ذلك سنة ١٨٤٨ ، سنة الحملة على المجر ، ولقد ساقوا معهم عرابها تيخون بعد يوم واحد من عبادها فحسب .

فتنهدت جدتي ، وقالت :

— وهو لم يرجع منذ ذلك الحين !

نعم ، لم يرجع ! ومنذ ذلك اليوم حتى الان ورحمة الله تنزلق بعيدا عنا ، كالماء اذ يسيل على سطح مشحم ... آه ، ان فارفارا ...

— كفى ، يا ابتاه ...

فأجاب غاضبا :

لماذا كفى ؟ هؤلاء اولادنا ينقلبون ارذالا رغم كل العناية التي بذلت لهم .
لقد ذهبت سائر جهودنا هباء منثورا ! كما نظن ، انت وانا ، اننا نضع
اشيائنا في حرز امين ، ولكن الله اراد ان يضيع كل شيء من بين ايدينا ...

وكمن وسم بالنار ، اخذ يقفز بين زوايا الغرفة ، يئن ؛ ويهاجم اولاده ،
ويهز قبضته المتعظمة الصغيرة في وجه جدتي ، وهو يصيح :

— وانت دامت دوما عن هؤلاء اللصوص ، وانسدتهم بتدليكك لهم ،
انت ، ايتها الساحرة ! انت ، ايتها الساحرة !

والتي به غضبه العنيف في زاوية الايقونات ، حيث شرع يضرب صدره
النحيل بكلتا قبضتيه ، وينوح بصورة مؤثرة :

— لم ذلك ، يا ربي ؟ هل انا اكثر خطيئة من سواي من الناس حتى
استحق هذا العقاب المقاسي ؟

وراحت عيناه النديتان تلمعان سخطا والما ، وجسده يرتجف كالورقة
الجافة في مهب الريح ...

كانت جدتي تظل تابعة في الظلمة ، وهي ترسم اشارة الصليب ، ثم
تنهض ، وتمشي اليه بحذر ، وتقول معزية :

— لم تعذب نفسك هكذا ؟ ان الله بكل ما تصنع يداه عليم ! فليس
هناك كثرة من الاولاد افضل من ابنائك . ان الامر متشابه في كل مكان ، يا
ابنائه .. خصومات ، ونزاعات ، وضوضاء ... ان جميع الامهات والآباء
يفسلون خطاياهم بدموعهم الخاصة ، ولست الوحيد الذي ...

كانت كلماتها ، احيانا ، ترد اليه الهدوء ، فينزلق في فرائشه متعبا
بينما ننطلق ، جدتي وانا ، الى جناحنا الخاص . ولكنه ، اذ اقتربت منه
ذات مرة ، تخاطبه بكلماتها اللطيفة ، استدار حول نفسه ولطمها بقبضته
لطمة رنانة على وجهها . فترنحت جدتي ، وقد شددت يدها على شفتيها ،
حتى اذا استردت هدوءها ، قالت في صوت هادئ لطيف :

— يا لك من احمق !

ثم بصقت الدم عند قدميه . فرفع ذراعيه فوق راسه ، وزعق مرنين :

— اذهبي من وجهي قبل ان اقتلك !

فرددت جدتي ، وهي تتجه صوب الباب :

— أحرق !

فالتقى بنفسه خلفها ، ولكنها اجتازت العتبة دون تسرع ، وصفتت الباب في وجهه . . . مصرخ الشيخ ، أحمر اللون كاللحم المتأجج ، وقد أمسك بقبضة الباب يضرب عليه بأظافره :

— يا للفاجرة العجوز !

كنت جالسا على ظهر الموقد ميتا أكثر مني حياء ، عاجزا عن تصديق عيني . لقد كانت المرة الاولى التي تضرب فيها جدتي في حضوري ، ولقد تأملت من شناعة ذلك ، وكثيفت فعلته تلك عن صفة جديدة فيه لا يمكن ان يبررها شيء على الإطلاق ، راحت تثقل علي بنير لا يطاق . . . ظل واقفا هناك متعلقا بقبضة الباب ، وقد أربد وجهه فكان الرماد ذر عليه . وفجأة ، خطا الى منتصف الغرفة ، وسقط على ركبتيه ، وارتمى الى الامام مستندا على ذراعه . ثم نهض واقفا ، وضرب صدره بكلتا يديه ، وهو يصيح :

— يا الله ! يا الله !

فتدحرجت على قرميد الدكة الحار السذي بدا لي وكأنه مصنوع من الجليد ، ثم أطلقت ساتي هاربا . . .

كانت جدتي في الطابق العلوي تغدو وتروح ، وهي تفرغر كمية من الماء في فمها .

هل تتألمين ؟

فلمضت الى زاوية الغرفة ، وبصقت الماء في المغسلة . . .

أجابت برزانة :

— لا ، أبدا ! ان أسناني لم تصب بسوء — لقد جرححت في شفتي فقط . . .

— لماذا فعل ذلك ؟

فأجابت ، وهي تشخص الى النافذة :

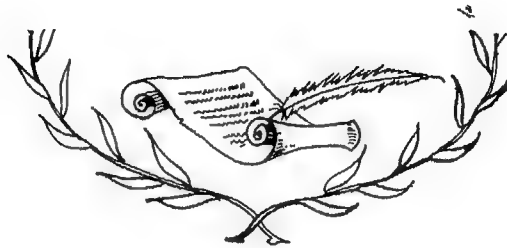
— لقد فقد صوابه ! كم يصعب عليه ، هو الرجل الشيخ ، ان يتحمل
هذه المصائب كلها ! ... اذهب انت الى فراشك ، وانس ما جرى ..
فسألتها عن شيء اخر ، ولكنها صاحت بشدة غير مقصودة ، وغير
معتادة :

— ألم تسمعني ؟ اذهب الى فراشك ! يا لك من ولد عاق !

جلست قرب النافذة تمص شفتها وتبصق ، من حين لآخر ، في منديلها .
ظلمت أنظر اليها طول الوقت ، وأنا أطلع ثيابي ، وفوق رأسها تلمع كوكبة
من النجوم في غسق الليل . كان كل شيء هادئاً في الخارج ، وكل شيء
في الداخل مظلماً . وعندما التحفت الغطاء تقدمت مني ، وداعبت جبينني
بلطف :

— نم في سلام . اني سأنزل اليه الآن ... فلا تأسف من اجلي ، أيها
العصفور الصغير ! ان لاخطائي نصيباً كبيراً في ذلك . هيا ، الى النوم !

قبلتني وخرجت ، وخلفتني غارقاً في بحر من الحزن والاليم . فقفزت
خارج السرير الدافئ الطري ، ومضيت الى النافذة حيث رحت أحملق فهي
الطريق الخالي ، وأنا أرزح تحت عبء عذاب لا يطاق ...



مرة أخرى ، امست الحياة كابوسا لا يحتفل ! ففي ذات مساء ، وقد انتهينا من تناول الشاي ولجأنا ، جدي وأنا ، الى قراءة المزامير ، بينما راحت جدتي تغسل الصحون والاواني ، اندفع الخال ياكوف كالريح العاصفة داخل الغرفة . . . كان اتسعت الشعر كعادته ، يشبه الى حد بعيد مكنسة بالية مهترئة . ودمى بقبعته في احدى زوايا الحجرة وراح يتكلم بسرعة دون ان يلقي سلاما او تحية ، وهو يقوم اثناء ذلك بحركات جنونية همجية غريبة :

— ان ميخائيل مفتاظ ، يا ابتاه ! لقد تناول الغداء عندنا ، وشرب حتى الثمالة ، وامسى كالجنون ! فكسر الصحون ، ومزق ثوبا من الصوف يخص أحد العملاء ، وحطم النافذة ، وشتمني وجريجوري ، وهو الان في طريقه الى هنا ، وقد اقسم ان ينال منك ! كان يعوي : « سأنتف الشعر عن لحية والدي ! » ، ثم يصيح : « وسأقتله ! . . . » . يحسن بك ان تنتبه لنفسك . . .
وانحنى جدي على الطاولة ، ونهض على قدميه بصعوبة ، وقد تشنج وجهه وتجمع عند أنفه حتى اشبهه بلطة صغيرة ، وزعق قائلا :

— اتسمعين ذلك ، يا اماء ؟ ما قولك ، ايه ؟ انه يريسدان يقتل والده ! هذا هو ، من لحمي ودمي ! حسنا ، لقد حان الوقت ! لقد حان الوقت ! يا شباب . . .

واصلح من وضع كتفيه ، وراح يتخطر في الغرفة غدوة ورواحا ، ثم مضى الى الباب واترسه بمزلاجه الثقيل . قال :

— انكما تتسابقان وراء مهر فارغارا دوما ! انا اعرف ذلك ! ولكن اليك
ما ستنااله ...

واستدار نحو ياكوف ، وانحنى ساخرا تحت أنفه مباشرة ...

وتراجع هذا الاخر ، وقال بصوت مفتاط :

— وما ذنبي انا ، يا أبتاه ؟

— أنت ؟ اني اعرفك انت ايضا !

لم تقل جدتي شيئا البتة . بل راحت تضع الفناجين بسرعة في الخزانة
— بكل بساطة — ثم تغلق عليها .

— لقد جئت احميك !

فضحك جدي بخبث :

— ها ! ذلك جميل اعرفه ! اشكرك ، يا بني ! اسمعي ، يا أماه !
اعطي هذا الثعلب شيئا يشتغل به ، قضيب النار ، أو المكواة ، وأنت يا ياكوف
فسيلينيتش ، في اللحظة التي يتوصل أخوك فيها الى الدخول فاعطه اياها
— على رأسي ...

فدفع خالي يديه في جيبه ، وانتحى بعيدا احدى الزوايا :

— حسنا ، ما دمت لا تريد ان تصدقني .

فصاح الجد ، وهو يضرب الارض بقدمه :

— اصدقك ؟ أنت ؟ افضل ان اصدق قطا ، أو جرذا ، أو خنزيرا ، أما
انت فلا ! فأنت الذي سقيته المسكر واثرتة ... انا اعرف ذلك ا حسنا ...
والان ، عليك ان تتخلص من أحد الاثنين . هيا ، واختر ... اقتل احدا :
هو أو انا !

واستدارت جدتي الي ، وهمست :

— أسرع الى الطابق العلوي ، وارقب خالك ميخائيل من خلال النافذة ،
واخبرنا سريعا عندما تلمحه ! هيا الى فوق ، اركض !

نصعدت السلم نهبا ، وارتفعت النافذة ...

كنت خائفا نوعا ما لمجرد تفكري بها سيفعله خالي الحانق عندما يبلغ المنزل ، لكن مزهوا بالمسؤولية الخطيرة التي عهد بها الي . كان الشارع عريضا ، غطته سحابة كثيفة من الغبار تبدو من خلالها حوانيت الحدائين ، وهو يذهب بعيدا ناحيه الشمال وينجاوز المنحدر ، ويفضي الى ساحة اوسنروجنيا ، حيث ترتفع ابنية السجن القديمة الشهباء اللون بابرأجها الاربعه المنتصبة بروسوخ في التربة الطينية . وكان في ذلك البناء جمال كئيب مثير للشعور . والى اليمين ، لم يكن الا ثمة ثلاثة منازل بفصل دارنا عن ساحة سينايا التي يحدها من الجهة المقابلة معسكرات الاسرى الصفراء ، وبرج المراقبة الذي يدور الحارس فيه ككلب تقيده سلسلته ... اما الساحة فكانت مليئة بالخنادق والحفر التي طاف تأع احداها بوحل مخضر ... وعن يمين ذلك ، كانت بحيرة دوكونف حيث حفر خالاي مرة ، كما روت لي جدتي فيما بعد ، تغرة في الجليد يريدان القاء والذي فيها ... وثمة درب ضيق جانبي يفتح مقابل نافذتي تماما ، تحف به منازل صفيرة كثيرة الاسوان تنتهي عند كنيسة الاقمار الثلاثة ، وهي بناء ضخم يجثم على الارض بثقل وارهاق . كنت اذا نظرت من نافذتي باستقامة بدت لي السقوف أشبه بقوارب متلوثة مقلوبة تسبح فوق امواج الحداثق الخضراء وتعموم .

وكانت دور شارعنا المغبراء التي جرد لونها بفعل رياح فصول الشتاء الطويلة ، والتي طالما اغتسلت بأمطار الخريف اللامنتهية ، تتراكم متراسة الى بعضها كجماعة من المتسولين عند بوابة الكنيسة ، تسترق النظر بنوافذها النائنة وكأنها مثلي تنتظر شيئا ما ، والناس القلائل الذين وقع بصري عليهم يقطعون الطريق مبطينين ، وكأنهم تلك الصراصير الناعسة تتسلق جدران الموقد لتأوي الى الظل مرتاحة اليه . . وشرعت حرارة خانقة تهب على نافذتي ، تحمل في طياتها رائحة غريبة كريهة في مزيج من مجل الربيع وجزره . وما زلت اذكر ، حتى هذه الايام الحاضرة ، ان تلك الرائحة لم تكن تطاق ، وانها بعثت في نفسي مقدارا عظيما من كآبة لا مبرر لها ولا سبب .

كان المنظر مملا ، مملا حتى ليصعب احتماله ، فإذا بصدري يزدحم بشيء أشبه بالرصاص السائل ثقلا ، راح يضغط على أضلامي حتى صور لي انني سأنفجر مثل اناء مليء بالبخار ، تضيق تلك الغرفة الصغيرة المشبيهة بالنعش من استيعابه .

وفجأة ، لمحت خالي ميخائيل يبرز من وراء احد المنازل المشهاء في زاوية الدرب الجانبي ، وقد غاص رأسه في قبعته حتى الاذنين . كان يرتدي معطفا قصيرا ، وحذائين يبلغان ركبتيه غطاها القبار تماما ، وقد اختفت احدي يديه في جيب سرواله ، بينما أمسكت الاخرى بلحيته تشد عليها بحقن وغيظ . ولم استطع ان أميز ملامح وجهه ، ولكن مظهره كان يوحي بانه يستعد لان يقفز خلال الشارع ، ويغمد مخالبه السوداء المليئة بالشعر في منزل جدي . وكان يجب علي ان أهبط الدرج بسرعة لأخبرهم بمجيئه ، ولكني لم استطع سبيلا الى اننزاع نفسي بعيدا عن النافذة ، بل رحت أراقبه يتقدم بحذر شديد ، يعبر الشارع وكأنه يخاف على حذائيه الرماديين ان يتسحبا ، ومن ثم بلغ سمعي قرعقة الزجاج وصرير المفصلات وهو يفتح باب الحانة وينسل الى داخلها .

هبطت الدرج اربعا اربعا ، وطرقت باب غرفة جدي ، فصاح العجوز بخشونة دون ان يفتح الباب :

— من هناك ؟ انت ؟ حسنا ؟ ادخل الى الحانة ؟ ماذا تقول ؟ لا بأس !
عد من حيث أتيت ...

— انسي خائف ! ...

— لا حيلة لي في ذلك .

فرجعت ادراجي الى النافذة ... كانت الظلمة قد ابتدأت تنتشر ، فازداد غبار الطريق كثافة وسوادا . وتدرجت من النوافذ أضواء مصفرة راحت تنتشر كبقع زيتية متزايدة الاتساع ، وتصاعد من المنزل المقابل ضجيج موسيقى بعضها جميل مفرح ، وبعضها الاخر كئيب محزن . . . وكان احدهم يغني في الحانة ، وكلما فتح الباب تنأى الى سمعي صوت منكسر متعب أعرف فيه صوت المتسول نيكيتوشكا الأعور ، وهو شيخ ملتجأ اغمضت عينه ليسرى ، بينما اشبهت اليمنى فحمة حمراء تنفث لها . وكان اصطفاق يطغى على غناؤه ، فنصمت الاغنية وكأنها قطعت بضربة ناس قطعا مباغتاً ...

كانت جدتي تحسد ذلك المتسول ، وحيثما كانت تسمع اليه يغني تنهد وتقول :

— ما أسعده في هذه النعمة-اذ يعرف جميع هذه الاغاني الرائعة !

وكانت تدعوه الى ساحتنا احيانا ، فيجلس على عتبة الباب مستندا الى عصاه ، يغني منظومات من الشعر ، بينما تقبع جدتي بالقرب منه تقاطعه بأسئلتها المتعددة :

— اتعني انك تود ان تقول ان العذراء الطاهرة ظهرت في ريزان ؟

فكان يجيب واثقا :

وزحفت على طول الشارع موجه من ضنى ناعس غير مشعور بها ضيقت الخناق على قلبي ، وراحت تعمل على اغلاق عيني . لو ان جدتي تأتي فقط! او حتى جدي أيضا ! أي رجل كان ابي حتى يبغضه خلاي وجدي هكذا ، في حين تتحدث جدتي وجريجوري والمربية يفجينيا عنه بكل ما هو جميل ولطيف ؟ واين هي والدتي ؟

اضحيت ، في المدة الاخيرة ، افكر فيها أكثر فاكتر ، أتصورها بطلية سائر قصص جدتي وأساطيرها . وكان صدوق ابي عن العيش مع عائلتها يكفي وحده ليرفع من قدرها في عيني ، ويضاعف من احترامي لها ، فأتخيل انها تحيا مع عصابة من قطاع الطرق في أحد الحانات ، يسرقون الاغنياء ويوزعون ما نهبوه على الفقراء من الناس ، او لعلها تعيش في كهف في الغابة، مع عصابة من اللصوص طيبي القلوب طبعاً ، تطبخ لهم طعامهم وتحرس ذهبهم المسروق ، او اني اراها هائمة على وجه الارض ، تضرب في أرجائها وتعدد كنوزها مثل ينجايتشيفا « الاميرة اللصة » ، تصحبها العذراء المقدسة التي تهمس لها باستمرار ، كما كانت تفعل للاميرة اللصة :

« أنا لم أجرد أرضنا عيشاً ،

مما حواه كنزها الذهبي ..

يا من سرقت المال لاهية ،

قومي ، واخفي المعار ، وانتحبي ! »

فتجيبها والدتي بكلمات الاميرة اللصة :

« اغفري لي ، أم الاله ، طموحي ،

وارحمي نفسي ، واصفحي عن ذنوبي !
فأنا لم أسرقه من أجل روحي ،
انما كان لابنسي المحبوب ! »
وعندئذ تسامحها العذراء المقدسة . وهي التي نحمل قلبا نقيًا طيبًا
كقلب جدتي ، ونقول لها :
« دعي الكهف ، فارفرتي ، واخجلي ،
وهيا اتركي الان اولئكما !
ولا تسرقي مال جارك الا
اذا كنت محتاجة ذلكا !
واياك ان تلعنسي أبدا ! ...
واياك ان تظلمني احدا ! ... »

وغرقت في ذكريات هذه الاساطير كما يغرق المرء في حلم لذيق عذب .
ولكن زعاقا ، وضجيجا ، وهتافات واردة من الحانة والساحة في الاسفل
بمثنئي من غفوتي ، فأنحنيت على حافة النافذة لأرى جدي ، والخال ياكوف ،
وشخصا آخر من مستخدمي الحانة تبعث هيئته على الضحك ، يدفعون
الخال ميخائيل التلخل خلال البوابة الى الطريق . كان يشق طريقه متعثرا ،
غيركلونه ، ويلطمونه على الذراعين ، والقفأ ، والكففين ، حتى ذهب أخيرا
بتدحرج في غبار الطريق ... وأغلقت البوابة وأرتجت بالمزلاج والمقراس ،
والقي بقبعة الخال السكران من فوق الحاجز . ثم اضحى كل شيء هادنا
صامتسا .

وبعد أن اضطجع خالي ميخائيل المنهول المهلهل ساكنا فترة من الزمن .
عاد فانتصب على قدميه ، وتناول حجرا من الارض قذف البوابة به محدثا
بذلك دويا أشبه بصوت برميل فارغ على الارض ، فاندفع من الحانة اناس
سود الوجوه ، يتزاحمون ويشربون باعناقهم وهم يحركون أذرعهم فسي
الفضاء ، كما أطلت بعض الرؤوس من نوافذ المنازل ، وأصبح الشارع يعمج
بالصياح والضحك . كان كل ذلك ساحرا حلوا كاحدى اساطير الجنيات ،
لكن مزعجا في الوقت ذاته ، ومخوفا ايضا ...

وعلى حين غرة انتهى كل شيء ، وانصرف الجميع ، وخيم السكون . . .
... وهذه جدتي متكورة على صندوق للثياب ، محدودبسة الظهر ،
عديمة الحركة ، تكاد لا تتنفس ، وأنا أقف قبالتها أربست على خديها الناعمين
المدافئين النديين ، دون أن تلقي فيما يبدو الى ذلك بالا ، وهي تتمتع بأثمة
بأشياء كثيرة :

— رياه العزيز . ألم يكن لديك ما يكفي من العقل لتوزعه علينا ، أنا
وأولادي ؟ رياه ، كن رحوما بنا . . .

. . .

احسب ان جدي لم يعيش في منزل بوليفوى أكثر من سنة واحدة — من
الربيع الى الربيع فقط . ولكن الدار اكتسبت ، في تلك المدة القصيرة ، شهرة
سيئة للغاية . فكان الصبية يأتون بوابتنا متراكضين متراحمين ، في كل أحد
نقريبا ، فيتجمهرون ويأخذون بالهتاف مبتهجين فرحين :

— هناك معركة جديدة في دار آل كاشيرين !

وكان الخال ميخائيل يأتي ، بصورة عامة ، في كل مساء تقريبا ويبقى
طوال الليل ، جاعلا من المنزل هدفا لحصاره ، ومن سكانه غريسة للقلق
الدائم . . .

وغالبا ما يصطحب . معه مساعدين أو ثلاثة ، وهم فتيان بائسون
يستخدمهم في عمل كوناينو ، فيتسلقون السور سوية ، ويهبطون الى
الحديقة حيث يطلقون العنان لما يمليه عليهم خالى الثمل ، فيقتلون جذور
الفريز ، والاغصان الخضراء ، وكل ما يقع في مساول أيديهم . وفي ذات
مساء ، انقضوا على غرفة الغسيل يحطمون كل ما يمكن تحطيمه فيها ، من
الرفوف حتى المقاعد والقدور . وأخذوا معهم الموقد بعد أن اقتلعوا بلاط
الأرض ، وخلعوا الباب وأخشاب النوافذ .

وكان جدي يقف الى النافذة ، صامتا ، مكهر الوجه ، يصفى اليهم وهم
يدمرون ممتلكاته ، أما جدتي فتركض عبر الساحة ، حيث تغيب في الظلمة
فلا يبلغنا منها سوى صوتها المتوسل .

— ميخائيل ! فكر فيما تفعل ، يا ميخائيل !

فتتلقى الجواب سلسلة من الاوساخ والشتائم الروسية البلهاء التي يتجاوز معناها ، من دون أدنى ريب ، افهام ومشاعر تلك الحيوانات التي تقسى بها .

لم يتبادر الى ذهني أبدا ان الحق بجديتي في مثل تلك اللحظات : كان ذلك مستحيلا ، ولكن البقاء دونها أمر مرعب حقا ، فامضي الى غرفة جدي ، ولكنه يزعق في وجهي بقسوة :

— اخرج من هنا ، ايها الملعون !

فأسرع الى الطابق العلوي ، اتفرس في ظلمة الحديقة ، مثبتا بصري في جديتي ، ساعيا الا تضبعها عيناى ، وأنا أصيح واناديها خوفا من ان يفتكوا بها . ولكنها تأبى الرجوع ، بينما بطلق خالى الثمل على امي ، لدى سماعه صوتي ، كل ما في جعبته العامرة من الشتائم الدنسة والسباب البذيء .

وحدث ان مرض حدي ذات مساء ، فتهدد في فراشه وراح يعول بشكل يقطع بباط القلب ، وهو يؤرجح رأسه الى الامام والخلف فوق الوسادة :

— اهذا ما عشت له ، واخطات من اجله ، وادخرت المال في سبيله ؟ لولا الخوف من العار لاستدعيت الشرطة ، وسقتهم امام المحكمة . . . يا للفضيحة ! من ذا الذي سمع ابوين يسلمان اولادهما للشرطة ؟ لم يبق امامك اذن ، ايها المعجوز ، الا ان تتحمل كل شيء او تظل مضطجعا هنا دون حراك ! . . .

وفجأة رمى قدميه عن حافة السرير ، ومضى يخسب الى النافذة . فصاحت جديتي ، وقد أمسكت به من ذراعه :

— قف ، الى ابن انت ذاهب ؟

فأمرها ، وهو يكاد يختنق :

— اعطني قنديلا !

فأشعلت جديتي شمعة قدمتها اليه ، فأمسك بها كالجندي اذ يمسك

بندقيته ، وصاح هازنا من خلال النافذة :

— تفو ، مبسكا ! يا سارق الليل ! ايها المجنون ! ايها الكلب المستكبر !

فاذا بلوح من زجاج النافذة يتهشم في اللحظة نفسها ، وتقع نصف آجرة على المائدة قرب جدتي . فهتف جدي في حالة لم ادر على الضبط ان كانت بكلاء أم ضحكا :

— لقد اخطأت الهدف !

ماللتقطته جدتي بين ذراعيها كما تفعل بي ، واحتملته الى السرير ، وهي

بغمغم بصوت مرنجف :

— ماذا تفعل بحق المسيح ؟ لو حدث شيء لكانت سييريا تنتظره !

اتظنه يدرك ماذا تعني سييريا عندما يكون في مثل هذه الحال ؟

واضطجع الجد . ترتجف ساقاه ، وهو يبكي بصوت خشن :

— فليقتلني ...

ودفد من الخارج صوت زمجرة وغضب وصخب ... فاختطفت قطعة

الاجر عن الطاولة ، وركضت الى النافذة ... ولكن جدتي أمسكت بي ، ودفعنني الى الزاوية ، وهي تفح :

— ابها الابله الصغير !

وفي مرة ثانية تسلق خالي الباب الخلفي ، وشرع يضرب عليه بهراوة

غليظة ، ووقف جدي في الصالة ينتظره ، يعضده اثنان من الجيرة ، يحمل كل منهم هراوة في احدى يديه . وكانت هناك أيضا زوج صاحب الحان البدينة ، تحمل حبلا طويلا مدورا . أما جدتي فقد وقفت خلف الجميع تتوسل :

— دعوني اهل اليه ... دعوني اقل له كلمة واحدة ...

ورفع جدي هراوته متهينا لكل طارئ ، وقد مد قدما الى الامام ،

فاضحى بذلك شبها بالفلاح حامل الرمح في لوحة « صياد الدبة » . وعندما

مضت جدتي اليه دفمها عنه ، بصمت ، بقدمه ومرفقه ... كانوا ، أربعتهم ، يقفون في وضع وعيد ، وتهديد ، وارتقاب ... وكان قنديل مثبت في الحائط فوق رؤوسهم يضيء وجوههم بشعاعاته المتلونة . أما أنا ، وقفت أراقب ذلك من الطابق العلوي ، تفعمني الرغبة في أن أخطف جدتي الى جانبي ، بعيدا عن ذلك المكان المرعب .

ظل خالي يضرب الباب ثائرا ، حتى تحطمت مفصلته السفلية وانهارت مفركته معلقا بالمفصلة العلوية وحدها ، وهي الاخرى تهدد بالانهيار بين لحظة وأخرى . واتجه جدي الى معاضديه ، وقال لهم بذات الصوت المتكسر :

— اضربوه على بديه وساقيه ، وحذار من اصابته في رأسه . انتبهوا !

كان بالقرب من الباب نافذة صغيرة لا تسمح لأكثر من الرأس بالمرور من خلالها ، فكسر خالي زجاجها ، وتركها فاعرة فاهها في الظلمة ، مزركشة بشظايا الزجاج المكسور كعين مقلوعة . فركضت جدتي الى هذه النافذة ودفعت يديها خلالها ، ولوحت بهما لميخائيل وهي تقول :

— ميشا ، بحق المسيح ، أرجع من حيث أتيت ! سيعطلون أحد أعضائك أن بقيت ! أرجع ! ...

ولكنه ضربها بهراوته ... واستطعت أن أرى شيئا ثقيلًا يومض قرب النافذة يصيب ذراعها ، فاذا بها تسقط على الأرض ، وهي تصيح مرة ثانية :

— ميشا ، اهرب ...

ثم تكومت على نفسها ، وصمتت ...

وصرخ جدي ، في صوت مخوف :

— آه ... أماه !

وفتح الباب ، واندفع خالي ميخائيل منه الى الداخل ، ولكنه سرعان ما ترنح وسقط على العتبة كثة من طسين .

وحملت زوج صاحب الحان البدينة جدتي الى غرفة جدي حيث تبعها بعد قليل ...

سال مغتما ، وقد انحنى عليها :

— هل كسر العظم ؟

فاجابت ، دون ان تفتح عينيها :
— يبدو كذلك ! ولكن ، ماذا فعلتم به — ماذا فعلتم به ؟
نصاح الجد غضبا :

— استردي عقلك ، يا امرأة ! اتظنين انني وحش مفترس ؟ لقد قيدناه ،
وهو يضطجع الان في الخارج ، في الاسطبل . لقد صببت سطلا من الماء على
وجهه ... يا لذلك الشيطان الذي انجبته ! ترى من أين جئت به ؟
فتأوهت جدتي ...

وقال جدي ، وهو يجلس الى جانبها على السرير :
— لقد ارسلت في طلب المجبرة ، حاولي ان تتحملي ذلك بعض الوقت .
انهما سيحملان الموت الينا ، يا اماء ! انهما سيؤديان بنا الى المقبرة قبل ان
بحين اجلنا !

— اعطهما كل شيء .
— وفارفارا ؟

استمرا في الحوار مدة طويلة ، جدتي بصوتها المهاديء الحزين ،
وجدي بصوته النزق الغاضب .

واخيرا ، ظهرت امرأة صغيرة حذاء ، يمتد فمها من الاذن الى الاذن ،
مفتوحا ابدا كفم السمكة فوق فمها الاسفل الذي يرتجف دون انقطاع ،
يشطر منخر حاد بارز شففتها العليا حتى ليخيل الى الناظر اليه انه يسعى
الى الارتواء في احضان الجوف الفاجر فاه . اما عيناها مصفرتان غائرتان ،
تستحيل رؤيتهما . ولم تكن تمشي ، بل تزحف بالاحرى على الارض متكئة
على عكازين ، وهي تحمل في احدي يديها حزمة صغيرة يصدر عنها رنين
غريب ...

ظننت انها الموت يزحف نحو جدتي ، فاندفعت اليها اصيح بكل ما في
من قوة :

— اخرجي من هنا !

لكن جدي اختطفني ، وحملني بين ذراعيه ، وصعد بي الى العلابق
العلوي .

أدركت في وقت مبكر جدا ان اله جدي يختلس كل الاختلاف عن اله
جدي . فقد كانت هذه الجدة ، بعد أن تستيقظ صباحا ، تظل في السرير مدة
طويلة تمشط شعرها المدهش ، فيهتز رأسها ، وتصر أسنانها ، وهي نسرح
خصله الحريرية السود الطويلة ، وتلعنها بصوت خفيض خسية ايقاظي :

فليصبك الجدي ... فليصبك الطاعون ... فلتحل اللعنة عليك ..

وكانت تصدف ألبانا عن تصفيفه فتجمعه ، دون عناية ، في جديلة -
واحدة ، ونعجل بالاعتسال ، وجمجمة غضب تند عنها طوال الوقت ، ثم
نحشو تجاه الايقونات دون ان يمحي عن وجهها العريض ما ارتسم عليه من
آثار الغيظ والنوم . وعندئذ يبدأ اغتسالها الحقيقي الصباحي الذي ينعشها
تماما ، ويرد عليها ، بصورة مفاجئة ، حيويتها كاملة غير منقوصة ... وإذا
بها تقوم عمودها الفقري ، وتشمخ برأسها الى العلاء ، وترمي به الى
الخلف ، قليلا ، وترنو بحنان الى وجه عذراء قازان الدور ، ومن ثم ترسم
اشارة الصليب بحماسة زائدة وهي تهمس :

— أيتها العذراء المباركة ، يا لم الاله المجيدة ، امنحينا بركاتك في هذا
اليوم الجديد ...

ثم تنحنى حتى تلامس جبهتها الارض ، ومن ثم تنهض ببطء ، وتعود
تهمس في حمية عظيمة ، وحنان متزايد أبدا :

— يا ينبوع السعادة والفرح ، أيها الجمال الطاهر ، يا شجرة تفاح في
أوج ازدهارها ...

كانت تجد في كل صباح كلمات جديدة من المديح والعبادة ، مما يجعلني

اعني بصلواتها ، فأعيرها أذني بانتباه زائد :

— أيها القلب العزيز الفائق الطهارة والالوهية ... يا ضياء نفسي ،
يا حارسة مأواي ، يا شمس السماء البهية الذهبية ، يا أم الحبيبة ، انقذينا
من تجارب الشيطان الماكر ، واحميني من أن أهين أحدا ، أو أتلقى الاهانة
من أي انسان دون ضرورة أو فائدة

وتبرق ابتسامة لطيفة في عينيها السوداوين ، فيخيل الي أنها تستعيد
صباها وشبابها ، ثم ترسم إشارة الصليب بحركة رزينة من يدها الثقيلة ،
وتستطرد :

— يا يسوع الحبيب ، يا ابن الله ، ارحمني أنا الخاطئة بشفاعمة
والدتك الطاهرة ...

كانت صلواتها ، دوما ، ذبائح من التمجيد والثناء ، تصدر عن قلب نقي
ساذج طاهر ... ولم تكن تطيل صلاة الصباح كثيرا ، اذ لا بد من القيام
الى أعمال البيت ، وفي المحل الاول تهيئة السماور ما دام جدي قد استغنى
عن معونة الخدم ، فاذا حدث ان تأخر شاي الصباح عن الموعد المحدد
كافأها جدي بسيل من اللوم والتقريع لا ينتهي .

كان يستيقظ ، في كثير من الاحايين ، قبل جدتي ، فيصعد اليها في
المطابق العلوي حيث يجدها غارقة في صلواتها ، فيهدف السمع بعض الوقت
في سكون ، وقد تراقصت على شفتيه الضيقتين ابتسامة احتقار ، ثم يخاطبها
— فغما بعد — ونحن نتناول طعام الافطار :

— كم مرة علمتك الصلاة ، أيتها الغبية المعجوز ؟ ومع ذلك فانت
تصرين ، في عناد ، على تلاوة سخافات من ابتكارك كما يفعل الهراطقة تماما !
كبق يستطيع الله ان يرضى بذلك ؟ هذا ما يفوق ادراكي !

فتجيب جدتي في ثقة :

— أما هو فهمهم ... فالمرء يستطيع ان يقول له كل ما يشاء ، وهو
بفهمه بكل تأكيد ...

— انك لاجنونة ، تلك هي حقيقتك ! تفسو !

كان الهها يصحبها طوال اليوم ، حتى انها تحدث الحيوانات عنه .

وكنت اشعر ان سائر المخلوقات ، من بشر ، وكلاب ، وطيور ، ونحل ، وحتى النباتات ايضا ، تخضع لذلك الاله القادر على كل شيء في غير عسر او صعوبة ، اذ كان لطيفا لكل حي على الارض ، وعزيزا عليه بالتالي .

وحدث ، ذات يوم ، ان قط زوجة صاحب الحان المدلل — وهو حيوان شرير ، سيء الطباع ، رمادي اللون ، ذهبي العينين ، يحبه الجميع بالرغم من انه خبيث متملق ، ولص اكل جشع بالاضافة — حدث ان هذا القط اصطاد احد الزراير ، فانزعجت منه جدتي الطائر المسكين ، واتجهت اليه غاضبة توبخه بقولها :

افلست تخاف الله ، ايها الحيوان الشنيع ؟ تلك هي مصيبتك ، ايها البائس !

فضحك البواب وزوج صاحب الحان البدينة من جدتي لهذه الكلمات ، ولكنها صاحت فيهما بنزق :

— اتظنان ان الحيوانات لا تعرف الله ؟ ان اقلها قيمة يعرفه كما تعرفانه ، انتما ايها المخلوقان الفظان !

وعندما كانت تسرج الحصان « ساراب » السمين ، لم تكن تتأخر عن النحدث اليه :

— لم انت حزين هكذا ؟ لم انت حزين هكذا ، يا خادم الله ؟ لقد هرمت على ما اعتقد ؟ ...

فيزغر الحصان ويهز راسه ...

ولكن اسم المولى ، بالرغم من ذلك كله ، لم يكن يتردد على شفيتها بمقدار ما كان جدي ينطق به . ولقد اصبحت انهم اله جدتي ، فلم يعد يخيفني البتة ، ومع ذلك كنت لا استطيع الكذب في حضرته : تلك تكون فضيحة اذن ! واتقاء لهذا العار لم اكذب على جدتي ابدا . ولقد كان يستحيل تماما ، بالاضافة ، اخفاء اي شيء عن ذلك الاله اللطيف ، وفي ذكرياتي اني لم اشعر قط يميل الى ذلك .

وحدث مرة ان تخاصم جدي وزوج صاحب الحان ، فشملت هذه جدتي البريئة في قدحها وذمها ، لا بل بلغ الامر بها ان ضربتها بجزرة كبيرة ، فلم تفعل جدتي اكثر من ان قالت لها :

— انك حمقاء ، يا سيدتي العظيمة !

ولكني استنات كثيرا من تصرف تلك المرأة تجاه جدتي ، وقررت ان اثار لها . . . فظللت ، مدة طويلة ، افتش عن احسن طريقة انال بها من تلك المرأة البدينة ، الحمراء الرأس ، المزدوجة الذقن ، والتي كان يستحيل على الانسان ان يرى عينيها الغارقتين في كتل الشحم الكثيفة .

كنت اعرف ، من مراقبتي لسائر مراحل الحروب المهلكة التي تنشب بين الجيران ، ان الثار يكون عادة اما بقطع اذنان القطط ، او تسميم الكلاب ، او قتل الفراخ الصغيرة ، او التسلل الى اقبية العدو ليلا وصب الكاز في براميل مخال الخيار والملفوف واواني المؤونة ، او نزع السدادات عن براميل الكفاس الصغيرة . ولكن هذه الطرق لم ترق لي : كان لا بد من اختراع شيء جديد اكثر تأثيرا ، واشد هولا .

واخيرا قر رأيي على التدبير التالي : انتظرت مرة زوج صاحب الحان البدينة حتى سعت الى القبو طلبا لحاجة ما ، فاغلقت الباب خلفها واقتلته ، وقمت برقصة الثار عنده ، ثم القيت بالمفتاح على السقف . ومن ثم اندفعت باقصى سرعة الى المطبخ حيث كانت جدتي تهيء الطعام . ولم تفهم بادىء الامر سببا لحماسي ، حتى اذا اكتشفت ذلك صفعتني عدة مرات على الاماكن المعبئة لهذا الغرض ، ثم جرّنتني الى الساحة وارسلتني الى السطح طلبا للمفتاح . فجنّت به صامتا ، مذهولا من هذه الخاتمة غير المنتظرة ، ثم هربت الى احدى زوايا الساحة ، حيث رحت اراقب جدتي تطلق سراح الاسيرة التي جاءت الي برمقتها ، وكلتاها تضحكان برقة ، فكانهما صديقتان حميمتان .

وهددتني زوج صاحب الحان البدينة ، وهي تهز قبضتها الغليظة في وجهي ، وان ظل وجهها الابله يبتسم بلطف وحنان ووداعة :

— سوف انتقم منك يوما ما ، ايها العفريت الصغير !

وجرّنتني جدتي من عنقي ، وقادتني حتى المطبخ ، وسالت :

— لم فعلت ذلك ؟

— الم تضربك بجزرة ؟

— آها ... لقد فعلت ذلك من اجلي اذن ، اليس كذلك ؟ سأحفظ ذلك لك ، ايها الصغير ، فارميك تحت الموقد بصحبة الفيران ، وعندئذ تسترد بعض الاحساس ! لقد جعلت من نفسك فارسا اذن ! تعالوا يا قوم وانظروا هذه المفقاعة قبل ان تنفجر ! ... ولو اخبرت جدك بذلك ، افلن يسلمخ الجلد من تفاك ؟ هيا ، اسرع الى الطابق العلوي الان والمسق نظرة على كتبك ...

لم تحدثني ابدا ببقية ذلك النهار ، لكنها جلست مساء ، قبل ان تجئو للحلابة ، على حافة سريرى ، وقالت هذه الكلمات التي لن انسها :

— اصغ ، ايها الطير الصغير ، وتذكر دوما ما سأقول لك : لا تتدخل ابدا في امور الكبار ، فالكبار جماعة شريرة مفسودة امتحنتها العقبات والتجارب ، أما انت فضعيف بعد ، وعليك اذن ان تعيش حسب سنك الصغيرة ومعلوماتك الحاضرة ، وتتصرف حسب ما يمليه عليك قلبك الطاهر حتى يجد الرب من الموافق ان يلمس قلبك ، ويبين لك واجبك ، ويقودك الى الدرب التي يجب ان تسير عليها ... افاهم انت ؟ فאלله يحكم ويقتص ، وذلك شأنه وليس شأننا ! اما من يستحق اللوم على هذا الامر او ذاك فليس من شأنك ابدا !

والتجأت الى الصمت لحظة استنشقت خلالها بعض السموط ، ثم ضيقت عينها اليمنى ، واضافت :

— واؤكد لك ان الله نفسه يصعب عليه ، في اغلب الاحيان ، ان يميز البريء من المذنب ...

فسألت مذهولا :

— لم ، الا يعرف الله كل شيء ؟

فأجابت بكآبة :

— انه لو كان يعرف كل شيء ، اذن لامتنع الناس عن ارتكاب العديد من الامور . انه يجلس هناك في السماء ، يراقبنا نحن الخطاه على الارض ، وكثيرا ما يذرف بعض الدموع ، وهو يتأوه ويقول : آه ، يا ابنائي ، يا ابنائي الاحباء المساكين ! لكم يتألم من اجلكم قلبي !

وبكت بدورها ، ثم مضت ، دون ان تجفف عينيها ، الى زاوية
الايقونات وشرعت بالصلاة ...

ومنذ ذلك الحين ، امسى الهها عزيزا على قلبي وغالينا اكثر من ذي
قبل ، واقرب الى ادراكي وفهمي ايضا ...

كان جدي يعلمني في دروسه ان الله يعرف كل شيء ، ويرى كل شيء
ويوجد في كل مكان ، وهو على استعداد لمساعدة الناس في سائر مشاكلهم
الطارئة . ولكنه كان يدلي بأسلوب يختلف كثيرا عن أسلوب صلاة زوجه
... فهو ، قبل ان يتلو صلاته صباحا ، يغتسل بعناية ويرتدي ثيابه ، ويصفف
شعر رأسه ولحيته الحمراء بتأنق فائق ، ولا يتجه نحو زاوية الايقونات —
الامر الذي يفعله خلسة دوما فيما يصور لي — الا بعد ان يصلح من وضع
قميصه امام المرأة ، ويعقد ربطة عنقه السوداء فوق صدريته الناصعة
البياض وكان يقف ، على الدوام ، في ذات البقعة من الارض الخشبية حيث
تركت اقدامه اثرا يشبه عين الحصان الى حد بعيد ، فيسمر ذراعيه الى
جانبه كالجندي ، ويظل فترة من الوقت غارقا في بحر من الصمت عميق ،
خاشع الرأس ، منتصب القامة ، نحيل الجسد ، اشبه ما يكون بمسار
كبير ، ثم يتم بتأثر :

— باسم الاب والابن والروح القدس !

وكان يخيل الي ان سكونا خاصا يرين على الغرفة بعد تلك الكلمات
— حتى ان الذباب نفسه يروح يوز بهدوء اعظم ! ...

ويرمي برأسه الى الخلف حتى توازي لحيته الذهبية الارض ، ويعقد
ما بين حاجبيه ، ويأخذ بتلاوة صلواته بصوت رزين وكأنه يستعيد أمثلة
عليه ان يحفظها عن ظهر قلب ، وهو يشدد على الكلمات كمن يفسن بها :

— وسيجيء يوم الحساب ، على غير انتظار ، وعندها تنكشف اعمال
البشر ...

ويشرع يضرب صدره بلطف ، ثم يلتبس قائلا :

— قدام وجهك ، قدام وجهك وحدك اخطأت ... فاصرف وجهك عن خطاياي ...

واذ ينلو « دستور الايمان » تنطلق الكلمات من فيه باندفاع وعزم وتأخذ ساقه اليمنى بالارتجاج زمنا طويلا ، ويميل جسده كله في اتجاه الايقونات ، ويبدو كما لو كان يكبر ، وينحل ، ويقسو ...

— انت ، يا من ولدت المخلص العظيم ، طهري قلبي من جميع الخطايا واصفي الى انين نفسي ، واغفري لي يا ام الاله الطاهرة !
ثم يبكي بهدوء ، وتلتهمع الدموع في عينيه الخضراوين :

— يا الهي ، دع ايماني ينب عن اعماله ، وامح كل ماثم ...

ومن بعد يرسم شارة الصليب عدة مرات ، بسرعة وارتعاش ، ويحن رأسه مثل تيس يناطح . ويتحدث بصوت باك كئيب ... وعندما سبحت لي الفرصة ، فيما بعد ، لزيارة مجامع اليهود ، ادركت ان جدي لا يختلف في صلاته عن احد الاسرائيليين ...

كان السماور يغلي منذ زمن بعيد على الطاولة ، وقد امتلأت الغرفة برائحة كمك الجاودار الحار والقشطة الطازجة . ان معدتي لتعوي من الجوع ... وقد وقفت بجدي مستندة الى الباب تتشعب وتكثر ، ترنو الى الارض لا تحيد بنظراتها عنها ، والشمس تطل جذلانة مراحنة من خلال النافذة ، والندى يتضوأ كاللؤلؤ على الاشجار ، ونسيم الصباح العليل يحمل رائحة طرية من نبات الشمار ، والزبيب ، والتفاح الناضج .

ولكن جدي يتابع عويله ونواحه ، وهو يتلو صلواته :

— اطفئ نار اهوائي لانني بائس ملعون !

كنت احفظ صلاة السحر التي يتلوها ، وكذلك صلاة الغروب عن ظهر قلب ، ولذا كنت اتأثره بانتباه مركزا املا في ان يخطيء مرة او ينقص منها شيئا ، ولو كلمة واحدة فقط . وكانت تلك الفرص نادرة جدا ، ولكنها توقظ في دوما احساسا خبيثا بالنصر .

وعندما ينتهي جدي من صلاته ، يلتفت الينا ، ويلقي السلام :

— انعمتما صباحا !

• فنحنني ، ثم نتخذ اماكننا من المائدة ...

قلت مرة ، وقد استدرت ناحيته :

— لقد اسقطت اليوم كلمة « يكفيني » من صلاتك .

فسال مرتابا :

— بنقا ؟ اوافقك انك لا تكذب ؟

— نعم ! كان يجب ان تقول : « ولكن ايماني بكيفيني فاستغني بـ كل شيء ... » . ولكنك اسقطت كلمة يكفيني .

فقال : وهو يطرف شزرا :

— هم !

كنت ادفع غالبا ثمن ملاحظاتي هذه : ولكنني اشعر بالظفر والـ طالما اجده متضايقا مرتبكا .

وذات يوم ، قالت جدتي مازجة :

— لا ريب ان الاستماع الى صلواتك امر يبعث على الملل بالنسبة لله ، يا ابناه ! فانت تردد دوما الاشياء نفسها .

فتشدد بكلامه متوعدا :

— ... ا ... ا ... ذا ؟ بماذا تهذين ؟

— اقول اني لم اسمعك ، منذ معرفتي بك حتى اليوم ، تخاطب بكلمة واحدة من عندك صادرة عن قلبك

فاحمر وجهه ، واخذ يرتجف فوق مقعده ويرقص ، ثم يقفز على ورمها باحد الصحون الصغيرة ، وطفق يزعم كمنشار يقطع زجاجا :

— اخرجني من هنا ، ايتها الساحرة العجوز !

كان كلما حدثني عن قوة الله التي لا تقهر ، يشدد في الدرجة على قسوته وهول غضبه . مثلا ، ان الناس قد اخطوا مرة فاغرتهم في الطوفان ، واخطوا مرة ثانية فاحرق الله مدنهم ودمرها ، وفي مرة ثـ عوقبوا بالمجاعة والبطاعون فوق رؤوس الاشرار .

كان يحذرني ، وهو يقرع الطاولة باصبعه المتعظمة :
— ان كل من يخرق قوانين الله لا بد ان تكون عاقبته سيئة . فيحل
الشقاء والخراب في داره .

وكان الايمان بقسوة الله يصعب علي جدا ، فارناب في ان جدي يخلف
تلك الاحاديث ليبعث في ليس مخافة الله ، بل مخافته هو ...

سألته بصراحة ذات يوم :

— اتخبرني بهذه الامور لتجعلني اطيعك وحدك ؟

فأجاب بصراحة مماثلة :

— بالطبع ! ان شيئا عظيما سيحدث ان لم تطع ...

— ولكن جدتي ...

فأجاب بحدة :

— لا تلق بالا لتلك الحمقاء . لقد كانت طوال حياتها مجنونة ، جاهلة،
عديمة الحس السليم ، امية ... وسأمنعها من التحدث اليك بمثل هذه
الاشياء الهامة . والان ، اجيب على هذا السؤال : كم طبقة يوجد بين
الملائكة ؟

فأجبت ، ثم سألت :

— ماذا تعني هذه الكلمات : « فرد من الطبقة الراقية » ؟

فنفخ بمنخره ، اسبل جفنيه ، وعض شفتيه ، وصاح :

— ايجب ان تلم بكل شيء ؟

ثم شرح لي ذلك ، بعد لحظة قصيرة ، بصوت متردد :

— ان ذلك لا يتعلق بالله ، بل هو من خصائص البشر — افراد من
الطبقة الراقية — انهم امثال موظفي الحكومة . فالموظف هو احد الذين
يعيشون من القوانين ويلتزمون بها ...

— اية قوانين ؟ وما هو القانون ؟

فأجاب الشيخ ، وقد مضت عيناه الحادثان النديتان باللذة :

— القانون ؟ انه ، على حد تعبيرهم ، الشيء الذي يتخذه الناس عادة .
فالناس يعيشون سوية ، ويتفقون فيما بينهم على ان هذا الاسلوب او ذاك ،
مثلا ، افضل ما يسرون عليه في التعامل مع بعضهم البعض ، ولذلك يتخذون
منه عادة ، ويجعلون منه قاعدة ، او قانونا كما يسمونه ، مثلهم في ذلك مثل
جماعة من الصبيان يتجهرون ليلعبوا لعبة ما ، ويقررون بسين بعضهم كيف
سيلعبون ، فهذا الذي يقررونه يسمونه القانون .

— والموظفون ؟

— انهم يشبهون الاولاد الشريرين الذين يخرقون القانون ، مع ان
حراسه اوكلت اليهم .

— ولم ؟

فقال ، وهو يزمجر :

— ذلك ما لا تقدر ان تفهمه ! انك اصغر من ان تعرف هذه الامور ثم
بعود الى متابعة الدرس :

— ان الله يراقب اعمال الجميع . وهم يريدون شيئا ، وهو يريد شيئا
اخر . ولكن ارادة الانسان مزعزعة سريعة العطب ، ويكفي ان ينفخ الرب
عليها حتى يتبدد كل شيء مع الريح فكانه الهباء المنثور .

كانت هناك عدة اسباب هامة تدفعني الى الاهتمام بالموظفين ، ولذا
تشبثت بوجهة نظري ، وعدت الى الكر قائلا :

— ان هناك اغنية يرددها الخال ياكوف تقول : « الملائكة الابرار هم
خدم الله . . . وموظفو الحكومة هم عبيد الشيطان ! » .

فأغلق جدي عينيه ، ووضع لحيته في راحة يديه ثم دفعها في فمه .
كنت أستطيع ان الحظ ، من ارتجاف خديه ، انه يضحك في سره . قال :

— يجب ان توضع انت والخال ياكوف في كيس من الخيش ثم يلتقى بكما
في النهر . ما شأنه حتى يغني مثل هذه الاغنيات ، وما شأنك حتى تستمع

اليه ؟ انها دعايات وضعها الهراطقة والمنشقون عن الكنيسة — وهم جماعة
من الماجنين الاشرار .

ثم حلق في لحظة ، واضاف وهو بتنهد :

— تفو ! يا لهم من قوم !

كان يضع الهه عاليا في السماء ، يشرف من هناك على سائر اعمال
البشر ، ويشركه مع ذلك في سائر اعماله ، مع عدد لا يحصى من القديسين .
وكذلك كانت تفعل جدتي بالهها الخاص ، وان كانت تجهل ، فيما يبدو ،
القديسين جميعا ، اللهم الا نيقولاوس ، وجاورجيوس ، وفرولا ، ولعازر ،
وهم جميعا لطفاء طيبون ، قضوا حياتهم في التنقل من قرية الى قرية ، ومن
مدينة الى مدينة ، يساعدون الناس ويقاسمونهم مصائبهم فلا يخلفون عنهم
في شيء ، ولا يميزون بأي عمل متفوق . وبالمقابل ، كان سائر قديسي جدي
من الشهداء الذين حطموا التماثيل ، وقاموا ضد القياصرة واباطرة روما ،
ولذلك عذبوا او احرقوا على الخازوق ، او سلخ جلداهم عنهم وهم احياء .

— لو يساعدني الله فابيع هذه الدار بربح خمسمائة روبلا ، اذن لاقت
قداسا احتفاليا للقديس نيقولاوس !

فتضحك جدتي ، وتهمس في اذني :

— يا لذلك الاحمق المعجوز ! ايظن ان لا عمل لنيقولاوس الا ان يبيع
المنازل له ويبتاعها ؟!

بقيت طويلا محتفظا بتقويم جدي الكنسي ، وقد كتب في حواشيه
ملاحظات متباينة بخط يده . ففي الصفحة المقابلة لعيد يواكيم وحنة مثلا ،
كتب بالحبر الاحمر : « لقد تخلصنا ، بفضلها ، من بلية عظيمة » . . . وانا
اذكر حقيقة تلك « البلية » . . فقد اخذ جدي يتعامل بالربا خفية ليساعد
ولديه اللذين اخذت اعمالهما تسوء يوما بعد يوم ، ويأخذ لقاء ذلك بعض
الحاجيات الثمينة رهنا وضمانة . . . فوشى به أحدهم الى الشرطة التي
هاجمت الدار ، ذات مساء ، وقامت بتفتيشها . . . وكان هرج عظيم ، ولكن
كل شيء انتهى على خير وجه من حسن الحظ . وظل جدي يصلي حتى بزغ

الفجر ، وفي الصباح ، قبل طعام الافطار ، كتب تلك الكلمات على النقود
بحضوري .

• • •

كنا نقرا معا ، قبل العشاء ، فصولا من المزامير ، او مقطوعات من
كتاب الصلوات ، او صفحات من مجلد ضخيم من تأليف يفرهم سيرين ، فاذا .
انتهينا من العشاء ، عاد يصلي ثانية ، فتنثال كلمات توبته المطردة الفظ
زمننا طويلا ، في سكون المساء ، على وتيرة واحدة :

— الرب وحده اعطى ، الرب وحده اخذ . . . ايها الملك المجد الذي
يموت . . . لا تدخلنا في التجربة . . نجنا من الشرير . . ولتحلني دموعي من
خطيئتي . . .

وكانت جدتي تقاطعه في أغلب الاحيان بقولها :

— اوه ، كم أنا متعبة ! يبدو اني سأزحف الى الفراش دون ان اتلا
صلاتي هذه الليلة !

ومما لا ريب فيه انني لم احسن هنا التعبير عن ذلك التمييز الصبيانم
الذي اقمته بين الالهين ، بل اعطيت عنه بالاحرى صورة اقرب الى السخف
والعبث . وعلى كل حال فإن هذا التمييز سبب لي ، فيما بعد ، الشيء
الكثير من النزاع الروحي . فاننا اخاف اله جدي واكرهه ، هذا الذي لا يحب
أحدا ، بل يسلط عينا حادة على سائر البشر ، وينصرف اهتمامه ، قبل كل
شيء ، الى اكتشاف الشر والخطيئة والرذيلة في الانسان . وكنت أشعر
بوضوح انه لا يؤمن بالناس او يثق بهم ابدا ، بل هو ينتظر منهم دوما التوبة .
ويبتهج كثيرا اذ ينزل عقابه المصارم بهم . . .

وفي تلك الايام ، كان التفكير في الله يؤلف غذاء نفسي الرئيسي ، فهو
الجمال الوحيد الذي لقيته في هذه الحياة ، بينا سائر الانطباعات الاخرى
تصدمني ، او تؤلني بما فيها من رذيلة ووحشية . ان الله — وأعني به اله
جدتي وصديق كل حي على الارض — لابهى وأفضل من كل شيء اخر يحيط به .

والغريب حقا ، وهذا ما كنت أعجز عن فهمه ، أن يمسى جدي عن هذا
الاله الطيب القلب . . .

. كان النزول الى الشارع محروفا علي لفرط ما كان يثيرني ، لا بل يسكرني ان صح هذا التعبير . وقد كنت فيه محور الفضائح التي منشؤها حميتي ، وميلتي الى القتال ، وعصيانتي الدائب . ولذا لم ارب صداقات ابدا ، بل كان سائر أبناء الجيران ينامبونني العداء . وعندما لاحظوا اني اكره ان ادعى كاشرين ، اصبحوا يتلذذون باغاظتي فينادونني بذلك الاسم كلما لحوني من بعد او قريب :

— ها هو ذا حفيد كاشرين ، ذلك البخيل العجوز ، آت الينا ! انظروا !
— ارموه ارضا !

وعندها تبدأ المعركة ...

كنت قويا بالنسبة الى عمري ، ومقاتلا جريئا ... حتى اعدائي كانوا يسلمون بذلك ، فلا يهاجموني الا مجتمعين ، فيتغلبون على الدوام بكثرتهم ، وانال من كماتهم الشيء الكثير ، واعدوا الى الدار بانف نازف ، وشفتين مجروحتين ، ووجه مكلوم ، وثياب ممزقة ...

وفي البيت تستقبلني جدتي ، مرتجفة ، يفيض الحنان منها :

— ماذا ؟ احاربت ثانية ، ايها الجرذ الصغير ؟ ساطعمك من الضرب ما لن تنساه ! فمن اين ابدا ؟

وتغسل وجهي ، ثم تضع قطعة من العملة النحاسية ، او بعض الامشاب ، او الاملاح الخاصة ، على جروحي وهي تدمدم طوال الوقت :

— ما الذي يدفعك الى القتال هكذا ؟ انت في البيت طفل هادئ ، ولكنك تنقلب عفريتا عندما تضع رجلك في الشارع . هلا تخجل ؟ ساخبر جدك فيحظر عليك بعد الان الخروج من البيت .

وكان جدي يلاحظ آثار الضرب والجروح فلا يغضب ، بل يقول بكل بساطة :

— هل ارتديت اوسمتك مرة ثانية ؟ يا للمحارب الشجاع ! لكن ، اياك ان تسمح لي بمفاجأتك في الشارع مرة اخرى ، اتسمع ؟

لم تكن لي رغبة في الخروج الى الشارع حين يخيم الهدوء والسلام

عليه ، غاذا ما بلغتني صيحات الاطفال المرحة ترتفع فيه ، نسيت تهديد الجد ووعيده ، وافلت من ساحة الدار باي ثمن كان . ولم أكن أعني بآثار الضرب والجروح أبدا ، بل اشمئز فقط واستاء من الوحشية التي تسيطر على العاب الاطفال ، وحشية أجدها تحت مختلف المظاهر ، فتثير غضبي ، ونقمتي ، وتسوقني الى ما يشبه الجنون . . . كنت أثور كلما رأيتهم يدفعون الديوك والكلاب الى قتال بعضها بعضا ، أو يؤذون القطط ويمذبونها ، أو يطاردون تطعان الماعز التي تخص اليهود ، أو يكابدون المتسولين الثملين ويسخرون منهم ، وخاصة ذاك المتقي ايجوشا الملقب بـ « حامل الموت في جيبه » .

كان ايجوشا هذا رجلا طويل القامة ، نحيل البنية ، عابس الوجه ، ذا لحية خشنة تتميز بركب شعراتها خاصة في أسفل وجهه المتعظم ، يرتدي في جميع الاوقات ، سترة من جلد الماعز تتأرجح بشكل غريب ، ويجتاز الشارع محدودب الظهر ، مثبت البعنين في الارض بقوة وعناد ، فلا ينحني يمنة أو يسرة قيد أنملة . كان وجهه المظلم ، وهيئته المنكمشة ، وغيناه الحزيتان تبعث في الاحترام والهيبية نحوه ، فيخيل الي ان مشاغل خطيرة تقلق بال هذا الرجل حتى لا يجوز أبدا ازعاجه وتأخيره عن تحقيق المهمات الملقاة على عاتقه .

وكان الصبية يتراكمون خلفه يرمون ظهره الاحدب بالحجارة . اما هم فيبطل فترة طويلة من الوقت لا يعيرهم ادنى انتباه ، فكانه لا يحس ما يكبلونه له من ضربات ، حتى اذا نفذ صبره اخيرا وقف ، على حين غرة ، ورفع راسه بقوة ، وتفحص تبعته الشفعاء في حركات مضطربة ، وتطلع حوله كمن نهض من النوم لتوه . ويصيح الاطفال به :

— ايجوشا ! يا حامل الموت في جيبك ! ايجوشا ! الى اين تدب ؟ انظ في جيبك فقط — واخبرنا هل الموت جائم فيها ؟

فهمسك ايجوشا بجيبه ، وينحني على الارض ليتناول حجرا أو قبض من التراب ، ثم يلوح بذراعه الطويل في غير انتقان ولا خبرة ، وهو يتم بعض الشكائم . وكانت جعبته من السباب ثلاث كلمات سافلة لا يعرف ا بردد سواها — اما قاموس الاطفال فكان أغنى من ذلك بشكل يفوق التصور وكان يركض وراءهم ، احيانا ، وهو يعرج ، فيعترض معطيه الطويل طرية ويرميه ارضا ، فيقع على ركبتيه معتمدا بنفسه على ذراعيه القذرتين

الشبيبتين بعصاوين جانبيين . وعند ذاك يفرقه الاطفال في سيل من الحجارة ،
بينما يركض اليه اشجعهم ويرمي بملء يده التراب على راسه ، ثم يفر
هاربا .

نكن اشد مناظر الشارع ابلاما ، بالنسبة الي ، كانت رؤية رئيس
عمالنا السابق جريجوري ايفانوفيتش الذي امسى فاقد البصر تماما ، يقضي
ايامه متجولا خلال البلدة يستعطي اكف الناس . كان فارغ العود ، مغلق
الوجه ، جميل الطلعة ، تقوده امرأة عجوز صغيرة الجسم شائبة الشعر
تقف به تحت كل نافذة وتهتف في صوت يصرصر ، وهي تنظر ابدا الى جهة
اخرى :

— ساعدوا المستعطي الضريع ، محبة بالمسيح !

اما جريجوري فيظل بالسمت معتصما ، نرنو نظاراته السوداء وان بثبات
الى جدران المنازل ، او النوافذ ، او وجه اي انسان يصادفه في طريقه ،
وتروح يده الملوثة ببقايا الصباغ تداعب لحيته العريضة ، بينما تظل شفتاه
مطبقتين بأحكام .

كنت القاه كثيرا ، ولكنني لم اسمع قط كلمة واحدة تصدر عن هاتين
الشفتين المغلقتين ابدا ، غاتالم واتضايق من ذلك الصمت الذي لا ينتهي اكثر
من اي شيء اخر . ولم اكن امضي اليه بل لا اكاد المحه حتى اعود الى
البيت راكضا اخبر جدتي :

— ان جريجوري في طريقه الينا !

فتقول ، وقد تملكها اضطراب مؤلم :

— آه ، حقا ! خذ ، اركض واعطه هذه !

فارفض بغظاظلة ، وعندئذ تذهب جدتي بنفسها الى البوابة ، وتقف
هناك تتحدث اليه زمنا طويلا . كان يضحك ، ويحك لحيته ، ولكن لا ينبس
ابدا ببنت شفة . وكانت جدتي تدعوه ، في كثير من الاحايين ، الى المطبخ ،
فقطعه ثم تقدم اليه الشاي . وسالها مرة عنى ، فنادتني ، ولكنني هربت
واختبأت بين اكوام الاخشاب . لم اكن استطيع له لقاء ، بل اشعر بالخجل
في حضوره ، واعلم علم اليقين ان جدتي تشعر نفس شعورى ايضا . وقد

تحدثنا عنه ، جدتي وانا ، مرة واحدة فقط ، بعد ان رافقته حتى البوابة وعادت، متمهلة الى المساحة ، محنية الراس ، تذرف الدموع ... فمضيت اليها ، وامسكت بيدها ، فسالتهني بهدوء :

— لم تهرب منه دائما ؟ أنه يحبك كثيرا ، وهو رجل طيب ...

لم لا يطعمه جدي ؟

— جددك ؟

توقفت عن السير ، وضمنتني اليها ، وهمست بنغمة تنبؤية :

— تذكر هذه الكلمات : ان الله سيعاقبنا عقابا صارما من اجل تصرفنا مع هذا الرجل ! عقابا صارما جدا !

ولم تكن مخطئة فيما ذهبت اليه ، اذ لم تمض عشر سنوات على ذلك ، وكانت جدتي قد رقدت الى الابد ، حتى كان جدي ، وقد اضحى شقيا مجنونا — يستجدي في طرقات المدينة ، تحت النوافذ ، شيئا يسد به رمقه :

— ايها العشرة الطيبة ، اعطيني بعض اللحم — قطعة صغيرة من حسب . تفو ! يا لهم من قوم ! ...

كانت كلماته القاسية الجافة : « تفو ! يا لهم من قوم ! ... » الشيء الوحيد الذي بقي له من ماضيه ...

وبالاضافة الى ايجوشا وجريجوري ايفانوفيتش ، كانت هناك امرأة مستهترة تدعى فورونيكنا ، تدفعني الى الفرار من الشارع كلما صادفتها فيه . كانت تظهر صباح كل احد — ضخمة الجثة ، شعناء الشعر ، ثملة ، لها مشية غريبة كأنها لا تحرك قدميها أو تمس بهما الارض ، بل تطير كسحابة من سحب العواصف تزمجر باغان فاسقة خليعة . وكان القوم يهربون بسرعة من امامها في الشوارع ، ويخفون في الدكاكين أو في منعطفات الازقة حتى ليتمكن أن يقال انها تكنس الدرب من كل ما فيها ... وكان وجهها أزرق اللون منتفخا كالبالون ، وعيناها الجاحظتان الرماديتان تدوران في محجريهما بشكل مربع وساخر في آن واحد . وكثيرا ما كانت تصيح ، دون ما سبب ظاهر :

— أين انتم ، يا أولادي ، يا أولادي !

فسألت جدني ماذا تعني بذلك ، فأجابت :

— ذلك لا يجوز لك معرفته .

ولكنها اوضحت لي ذلك ، فيها بعد ، بكلمات قليلة ...

وخلاصة القصة ان تلك السيدة تزوجت قديما من موظف يدعى فورونوف . ولكنه باعها ، طمعا في الترقية الى رتبة عالية ، لرئيسه الذي احتفظ بها ما يقارب المستتين ، عادت بعدها الى زوجها الاول لتجد أن طفلها — وهما صبي وبنت — قد توفيا ! ... وشرع زوجها بعد ذلك يقامر بأموال الحكومة العامة حتى التي به في السجن ... فأخذت المرأة تشرب بنت العنب لتغرق فيها حزنها . ومنذ ذلك الحين وهي تعيش حياة العهر والفحش ، حتى ان الشرطة تلتقطها ، كل أحد ، من عرض الشوارع .

لم يكن هناك مجال للشك في أن المنزل أفضل من الشوارع . وكنت أعشق خاصة تلك السوبعات التي تلي الغداء ، اذ يمضي جدي لزيارة الخال ياكوف ، وتعود جدتي الى النافذة تروي لي قصصا خرافية رائعة ، او تحدثني عن والدي ...

كانت قد قصت ، في كثير من الحلق ، جناح الزرور الذي انقذته من القطعة ، واستبدلت ساقه المقطوعة بعود خشبي صغير . وعندما تماثل الطير للشفاء ، أخذت تعلمه الحديث ، فقف ساعات كاملة بالقرب من القفص الموضوع على حافة النافذة ، وهي تردد الكلمات التي تود تعليمه اياها :

— تعال الان ، قل : اعطيني قليلا من البرغل !

ويطرف الطير بعينه المدورة ناحيتها كما يفعل ماجن الاسطورة ، ثم بضرب بساقه الخشبية ارض القفص ، ويمد عنقه ، ويصفر مثل الارغن مقلدا طير ابو زريق والوقواق ، محاولا ان يموء كالقط ، او ينبج كالكلب ، دون ان ينجح في تقلد الاصوات البشرية .

وتقول جدتي باهتمام ومرح :

— كف عن هذه الخزعبلات ! حاول ذلك الان ، قل : اعطيني قليلاً من
البرغل !

وعندما كان ذلك القرد الزاهي الريش يصيح بشيء يشبه كلمات
جدتي ، كانت تضحك مغتبطة ، ثم تقدم له على أصابعها كمية من البرغل ،
وتؤنّب في كثير من السخرية بقولها :

— آه ! أنا امرئك جيداً ، ايها الماجن الصغير ! انك تستطيع ان تقول
كل ما تشاء لو أردت ذلك فقط .

وهكذا علمته ان يتكلم ، فلم يمض طويل زمن حتى راح يطلب البرغل
بوضوح تام ، وكان يهتف ، اذا رأى جدتي ، بشيء ما يبرن شبيهاً بكلمة
« مرحباً » !

كان قفصه معلقاً باديء الامر في غرفة جدي ، ولكنه سرعان ما نفاه
الى غرفتنا بعد أن أخذ يقتله . وكان جدي يبتهل بصوت واضح ، فاذا ذلك
الزرزور ، كلما سمعه يصلي ، يمد منقاره الاصفر كالشمع من خلال قضبان
القفس ، ويصيح :

— تر . ر . ر . و . تر . ر . ر

... او . او . او .

وكان هذا يضايق جدي كثيراً . . وفي ذات يوم قطع صلواته ، وضرب
الارض بقدمه ، وصاح غاضباً حائقاً :

— اخرجني هذا الشيطان من الغرفة قبل أن اقتله !

كان في منزلنا أمور كثيرة تثير الاهتمام ، وأشياء أخرى عديدة يطرب
لها القلب . لكن شعوراً عنيفاً بالحزن كان يطغى علي أحياناً فكأنه حمل
وازن يئيد علي ، فيصور لي أنني أغوص في قاع حفرة سوداء مظلمة ، وقد
زالت حواسي ، وفقدت البصر والسمع والشعور ، أهوي ، نصف حي نصف
ميت ، في الهاوية التي لا قرار لها !

باع جدي منزلنا ، على غير انتظار ، الى صاحب الحان وابتاع منزلا آخر في شارع كاناتانيا . . كان هذا الشارع ، نظيفا ، هادئا ، غير معبد ، مغطى بالعشب ، يفضي في نهايته الى الحقول ، تحف به من الجانبين منازل صغيرة زاهية الالوان .

كان المسكن الجديد اكثر بهجة وانسا من السابق ، فواجهته مدهونة باللون الاحمر القاتم ، تنفصل عنها بجلاء مصاريع نوافذ الطابق السفلي الثلاثة الزرق ، وشعريات نوافذ الطابق العلوي التي تنتصب ببهاء وروعة . وعن اليسار ، كان السطح مزخرفا باغصان الدردار والليمون . اما الساحة والحديقة فمليفتان بعدد لا يحصى من الخلوات المريحة ، تبدو وكأنها جعلت خصيصا للعبة الطميمة . راقت لي الحديقة بصورة خاصة ، فهي ليست عظيمة الاتساع ، ولكنها مغطاة بشجرات صغيرة ، فائنة ، كثيفة ، متعانقة ، تقوم غرفة الغسيل في احدى زواياها ، صغيرة اشبه بصندوق للدمى . . . وفي زاوية اخرى ، حفرة قليلة الغور ، مغطاة بالعشب البري ، تندفع منها كتل خشبية مسودة هي بمثابة حريق لغرفة غسيل سابقة . . . اما عن اليمين ، فابنة صغيرة تابعة لال بيتلينغ ، وكانت الحديقة تنتهي الى اليسار باسطبلات تخص الكولونيل اوفسيانيكوف ، بينما الجهة المقابلة للمنزل قد الحقت ببناء « صائنة الالبان بتروفنا » ، وهي مخلوقة سميئة ، حمراء الوجه ، مزعجة ، تشبه جرسا واسعا كبيرا . كان منزلها الصغير ، الاسود ، المتهدم ، يتربع براحة على الارض ، مغطى بالطحلب من كل جانب ، تطل نافذاته على الحقول الواسعة ، ممزقتين باخاديد عميقة ، ناظرتين الى ضباب الغابة البعيدة الازرق وكان عدد عديد من الجنود يتبرنون ، طوال

النهار ، في تلك الحقول ، فتلمع حرايب بنادقهم كالبرق الابيض تحت اشعة
شمس الخريف المحزنة .

كانت الدار تعج بجمع من الناس لم يقع عليهم بصري من قبل قط ،
فالجناح الامامي يشغله ضابط تتري المولد ترافقه زوجه الصغيرة المدورة ،
وكانت هذه المرأة لا تنقطع عن الضحك والضحك والعزف على قيثارة مزخرفة
بشتى الالوان البهية الغربية منذ الصباح حتى المساء . وكانت تغني بصوت
حاد ، رنان ، ونردد بصورة خاصة اغنية ، هذه بعض كلماتها :

« اني ، يا صاح ، لا عجب لك
اتعيش وزوجك لا تهواك ؟
فتعسال نفتش عن أخرى ،
عن زوج تعرف ان ترعاك »

وكان زوجها ، المدور كالكرة ، يجلس طويلا الى النافذة تتورد وجنتاه
الزرقاوان كلما نفخ في غليونيه ، يجيل عينيه البنبتين الضاحكتين الصغيرتين
هنا وهناك ، ويسعل بنباح غريب :

— ا.د. د. د. م ! ا.د. م ! .

وكان يعيش ، في جناح صغير مبني فوق المخزن والاسطبل ، رجلان
مهنتهما سوق العربات . . كان احدهما رجلا صغيرا ، اثنى عشر ، ينادونه
بالعم بيوتر ، اما الاخر ، وهو ابن اخيه ويدعى ستيبا ، فكان اطرش
ابكم ، لين الخلق ، هادئ الطبع ، ذا وجه يشبه صينية نحاسية حمراء
اللون . وكان يشاركهما المسكن تتري كالح الوجه ، مرتب الهندام ، يدعى
فالي . كان هذا الجمع كله غريبا علي ، فبدأ لي غنيا بالامانيات الجديدة التي
سلبت لي سلفا ، وراحت تمنيني بمغامرات لا تعد ولا تحصى .

بيد أن الشخص الذي اجتذبنني وسحرني اكثر من سواء هو المستاجر
المتطفل « هذا رائع ! » ، الذي يشغل غرفة تجاور المطبخ في اقصى الدار،
كانت غرفته هذه واسعة طويلة ذات نافذتين تطل احدهما على الحديقة ،
والثانية على الساحة .

كان ذلك المستاجر باسق الطول ، منحني الجسم ، ذا لحية متشعبة
تضاعف شحوب وجهه ، وعينين لطيفتين تحميها نظارتان كبيرتان ، هادئا

على العموم ، منطويا على نفسه ، سكوتا ، كلما دعي الى العشاء أو .
الشاي أجاب بقوله :

— هذا رائع !

وظفقت جدتي تدعو « هذا رائع ! » ان يحضر للشاي !

أو كانت تقول :

— تناول شيئا آخر ، يا « هذا رائع ! » فأنت لم تأكل كفاية .

كانت غرفته مزدحمة بالصناديق والكتب الضخمة المطبوعة بأحرف لم
انجح في حل طلاسمها المعضلة . وكنت تجد ، في كل مكان ، زجاجات مليئة
بسوائل مختلفة الالوان ، وقطعا صغيرة من النحاس ، والحديد ، ومساطر
من الرصاص لا عد لها . وكان صاحبنا يرتدي دائما معطفا بنيا من الجلد ،
وقفازين رماديين ملطخين بالدهان ، تفوح منهما رائحة كريهة ، ويقضي
اليوم بطوله في غرفته ، منذ الصباح حتى المساء ، يصهر الرصاص ، ويلحم
النحاس ، ويزن قطعا صغيرة من المعدن في ميزانه الدقيق ، وهو يزجر من
وقت لآخر اذ يحرق اصابعه ، فينفخ عليها ، ومن ثم يروح يحنو على بعض
الاشكال الهندسية المعلقة على الحائط ، ويأخذ — بعد ان يمسخ نظارتيه —
يفحصها عن قرب بحيث يكاد يشمها بأنفه الناصع البياض الشبيه بالحوار .
وكان يقف ، أحيانا ، ودون سابق انذار ، منتصبا في وسط الغرفة أو قرب
النافذة ، ويظل هكذا زمنا طويلا جدا ، مغلقي العينين ، خافض الرأس ،
ساكنا ، لا حراك به . . .

تسلقت مرة سطح المظلة الممتدة على طول الساحة ، ورحت أراقبه من
خلال النافذة المفتوحة . كنت أستطيع ان أرى الي اللهب الأزرق المتصاعد
من فتيل مصباح الكحول الذي يشتعل فوق الطاولة ، وقد انحنت قامة الرجل
نومته ، أو أراه يكتب أشياء عديدة على دفتر ملاحظات ممزق ، ونظاراته
تلمعان ببرود في ضوء اللهب الأزرق كأنهما قطعتان من الجليد .

كان العناء الذي يتحمله ذلك الرجل يسهرني على السطح طوال
ساعات عديدة ، وقد تملكني فضول عنيف يعذبني بشكل غريب . . . وكان
يقف ، في أحيان أخرى ، مستندا الى النافذة ، وقد وضع يديه خلف ظهره ،
يشخص باستقامة الى السطح دون ان يراني أو يعرثنني ، الامر الذي كان

بعيظاني جدا . ثم يقفز فجأة في اتجاه طاولة ، وينحنى عليها وهو بنفث
سأهتنام بين الاوراق والملفات المراكمة فوقها .

ربما كنت اخافه لو كان أكثر ثراء ، وافضل لباسا ، ولكنه كان فقيرا
معدما فياقتة قميصه المجعد الوسخة تبرز من تحت معطفه الجلدى ،
وسرواله مرقع ملطخ ببقع كثيرة الالوان ، اما حذاؤه فاسوا من ان يلبس
تبرز من خلاله اصابع قدميه العاريتين . والفقر لا يبعثون خوفا ولا يثيرون
خطرا ، هذا ما اقنعتني به شيئا فشيئا شفقة جدتي نحوهم ، وكراهيه
حدي لهم .

كان جميع من في الدار يكرهون « هذا رائع ! » كثيرا ، ويتحدثون عنه
بسخرية فائقة : فتدعوه زوج الضابط المرحه بـ « صاحب الانف الطيشوري » ،
والعم بيوتر بـ « الكبياني الساهر » ، وجدي بـ « الصيدلي بائع السحر
الاسود » .

سألت جدتي مرة :

— ماذا يفعل « هذا رائع ! » ؟

فأجابت بفضاضة :

ذلك ليس من شأنك . أعرف متى تحتفظ بملك مغلقا .

وجمعت ، ذات يوم ، كل ما املك من شجاعة وأسهرت الى
نافذنه . . .

سأله ، وأنا أحاول بصعوبة اخفاء انفعالي :

— ماذا تفعل ؟

فبغت ، تم شخص الى طويلا من فوق نظارتيه ، ومد لي يده المحترقة
المفروشة ندوبا وجروحا ، وقال :

— تعال ، تسلق الى هنا !

والواقع ان سماحه لي بزيارته من خلال النافذة بدلا من ان يدعوني
الى عن طريق الباب ، قد رفعه كثيرا في عيني ، وزاد من تقديري له .

وجلس على احد الصناديق المبعثرة ، وأجلسني قبالة وهو يؤرجحني
يمنة ويسرة ، ثم سألني :

— من أين جئت ؟

كان السؤال غريبا جدا ، فأنا اجلس بالقرب منه الى المائدة في المطبخ أربع مرات يوميا ، أجبت :

— انى الحفيد هنا .

— آه ، نعم !

ثم غرق فيسكون عميق ، وهو يتأمل احدى أصابعه ...

رأيت من الضروري ان أوضح له الامر ، فقلت :

— ولكني لست من عائلة كاشيرين — أنا من آل بشكوف . الكسي بشكوف .

فردد ، وهو يشد على الثبرات :

— بشكوف ! الكسي بشكوف ؟ هذا رائع !

ودفعني عنه ، ونهض ، ثم ركض الى الطاولة وهو يقول آمرا :

— خسنا ! اجلس . اياك ان تحدث ضجة ما .

جلست هناك طويلا ، طويلا جدا ، اراقبه يبرد قطعة من النحاس امسك بها بين فكي كماشة صغيرة ، وعندما انتهى من ذلك ، جمع التراب الذهبي المتساقط على لوحة من الورق المقوى وصبه في بوتقة كثيفة ، ثم اضاف اليها قليلا من مسحوق ابيض كالمح اخذه من احدى الزجاجات ، وأخيرا سكب على الخليط شيئا من قنينة سوداء اللون ، فشرعت محتويات البوتقة تنفخ ، وتدخن ، وتغلي ، وتطلق رائحة حادة جعلتني أسعل قسرا .

سأل الساحر بفخر :

— نعم !

— آها ... هذا حسن با اخي ، هذا حسن جدا !

حاولت ان أجد في ذلك مدعاة للفخر فلم أفلح ...

قلت بعنف :

— ما دامت رائحته سيئة فيستحيل أن يكون حسنا اذن !

فصاح ، وهو يفرك عينيه :

— أحقا ماتتقول ؟ حسنا ، ليس ما تقول صحيحا دوما ، يا أخي ! اتحب
اللعب بالكعباب ؟

— نعم !

— أتريد أن اصنع لك كعبا من الرصاص ؟ أن أحدا لن يفلبك به !

— بالطبع اريد !

— اعطني كعبك اذن !

وانجه نحوي نائية ، يحمل البوتقة الداخنة في يده ، ثم خاطبني وهو
يرنو الى بعين واحدة :

— اتعدنى ، اذا ما صهرت الكعب لك ، ألا تعود الى هنا مرة ثانية ؟
أتفتننا ؟

فساعني ذلك كثيرا ...

قلت :

— لست بحاجة لذلك كي لا اعود الى هنا !

ثم مضيت الى الحديقة غضبان مكتئبا ...

وجدت جذبي منهمكا في تسميد الارض حول جذوع اشجار التفاح ...
كان الوقت خريفا ، واوراق الاشجار تتساقط منذ امد بعيد ...

ناولني المقص ، وقسال :

— خذ ، قص ادغال توت العليق ...

فسالست :

— ما هذا الذي يفعله « هذا رائع ! » ؟

فأجاب غاضبا :

— انه يخبص ، فهو يتلف الغرفة ، ويحرق الارض ، ويلطخ الجدران ،
حتى لقد مزق ثسما كبيرا من الورق الملصق عليها ... سأنذره بضرورة اخلاء

الغرفة نهائيا في اقرب وقت ...

فوافقت ، وأنا اشدب اطراف توت العليق :

— انك تفعل حسنا اذن !

ولكنني كنت متسرعا في قلبي هذا ...

...

كانت جدتي ، في الامسيات الماطرة ، عندها يخرج جدي الى بعض اعماله ، تحيي في المطبخ حفلات رائعة ... فتدعو جميع الجيرة ، دون استثناء ، بما فيهم السائقين ، والعسكري ، وزوجه المرحه ، وبترونا البدينة . اما « هذا رائع ! » فكننت تجده في زاوية قرب الموقد ، حيث يجلس صامتا لا يأتي بأدنى حركة ، بينما يلعب الابكم الاصم ستيبا بالورق مع التتري نالي الذي يلطمه ، بين الفينة والفينة ، على انفه العريض ويصيح :

— انت ، ايها الشيطان الهرم !

كان العم بيوتر يحمل معه رغيفا من الحنطة البيضاء ، وقطعة مليئة بمربي توت العليق ، فيشرح الخبز ، ويصب عليه المربي بكرم ، ثم يقدم تلك الشرائح على راحتيه الممدودتين للضيوف ثائلا ، وهو ينحنى انحناء خفيفة :

— هلا تفضلتم وتناولتم من هذا شيئا ؟

وكلما تناول احدهم قطعة ، يفحص العم بيوتر راحته السوداء ، فان شاهد عليها قطرات من المربي اسرع فلعقها بلسانه .

وكانت بترونا الحلوة تجلب معها قليلا من السوائل الروحية ، والجارة الصغيرة المرحه بعض الجوز وسكر النبات . وعندها تبدأ وليمة حقيقية تشرف عليها جدتي والغبطة تغمر قلبها الفرح الضاحك .

اقامت جدتي احدى هذه الحفلات بعد فترة قصيرة من محاولة « هذا رائع ! » رشوتي كي ابتعد عن غرفته . كانت اطار الخريف الكثيرة تنسج من اعالي الجو فتضرب الارض بعنف وقوة ، وريح عاتية تهب ، والاشجار

نلتطم وتضرب جدران المنزل بأغصانها . وكان جو المطبخ دافئاً لطيفاً ، والقوم قد تجهروا بعضهم قرب بعض هائنين مرححين ، وجدتني تشرف في سرد أقاصيصها الرائعة أكثر من المعتاد .

كانت تجلس على حافة دكة الموقد ، وقدماهما مسنريحتان على إحدى درجاته، تنحني على القوم ، ووجهها يشرف بابتسامة خفيفة لطيفة في ضوء القنديل الملتهب . كانت تختار ذلك المكان على السدوام كلها كانت منتعشة النفس ، متحمسة لرواية الأقاصيص ، وتقول :

— أود أن اتحدث من هذا المكان العالي . ذلك أسهل ، وهو يترك في النفس أثراً أعمق أيضاً .

جلست عند قدميها على الدرجة الأخيرة ، تماماً فوق رأس « هذا رائع ! » ، وهي تروي هذه المرة قصة « ايفان المحارب » و « الراهب ميران » الرائعة ، فماتينا كلماتها متلاحقة موزونة متناسقة كأروع الشعر :

« كان يعيش في غابر الزمان قائد شرير يدعى جورديون ، روحه خبيثة آثمة ، وقلبه كالحجر الاصم ، يكره الصدق والصديقين ، ولا يعرف الحنان إلى مؤاده سبيلاً ، يعيش في الشر كالخلد في كهف عميق سحيق لا يرى النور . وكان ابغض الناس إلى جورديون هذا راهب متدين اسمه ميرون ، يعيش ناسكاً في الصحراء ، قلبه ينبض بالسلام والمحبة ، ويتدفق دون وجل بالخير والصدق . وفي ذات يوم ، استدعى جورديون المحارب ايفانوشكا الشجاع إلى مجلسه ، وقال له :

— اذهب الآن إلى العجوز ميرون ، واذهب ذلك الشيخ المتكبر ، دق عنقه ولا تخف ، ارفعه عالياً من لحيته الكثيفة ، وجثني به وليمة مأخرة لكلا صيدي ...

فذهب ايفان ينفذ الأوامر بطاعة ، وقلبه يعتصره الألم ، يقول في نفسه : أنا لا أسير بنفسي ، وإنما الحاجة تسيرني . إنها الضرورة تدفعني إلى ذلك ، إنه النصيب المقدر لي من قبل الله . وأخفى سيفه القاطع تحت ثوبه ، وجاء إلى الراهب ، وانحنى أمامه باحترام ، وحياه قائلاً :

— سلاماً ، أيها الشيخ الجليل . . كيف حالك ؟ أما زال الله ينبغ

عليك نعمه ، ويصونك بحمايته المقدسة ؟

فابتسم ذلك الذي يعرف كل شيء ، ابتسم ميرون العجوز ، وسقطت من شفطيه الحكيمتين هذه الكلمات :

— لست ادري ، يا ايفان ، لماذا تكذب وتريد خداعي ! لكن الله الرب يعرف كل شيء . والخير والشر ملك يده . وهو ، من دون أدنى ارنيا ، علم بغايتك الشريرة .

فامتأ قلب ايفانوشكا خجلاً ، ولكنه خاف انتقام جورديون . فاسئل سيفه من غمده الجلدي ، وجر بشفرته الجارحة على ثيابه ، وقال :

— لقد اردت ان اوغر عنك رؤية هذا السيف ، واقتلك وانست في جهل مبارك من غاييتي . اما الان ، وقد عرفت كل شيء ، فهيا اركع ايها الشيخ العجوز على ركبتيك وصل للمرة الاخيرة ، وصل لينبوع الحياة ، صل من اجلي ، ومن اجلك ، ومن اجل سائر البشر ايضا ، وعندئذ اقطع رأسك . . .

فجأ الشيخ على ركبتيه ، جثا تحت شتلة سنديان مالت عليه بأغصانها الخضراء حادة ، ثم توجه الى محدثه يخاطبه وهو يبتسم :

— ايفان ، ايفان ! ان انتظارك سيطول كثيرا لان الصلاة من اجل خلاص الجنس البشري لا نهاية لها ، فالأفضل اذن ان تفهم حبل حياتي دون تأخير من ان تتعب نفسك بالتردد . فهيا ، عجل بالخاتمة ، وعد من حيث جئت سريعا .

وهنا قطب ايفان وجهه بغضب ، وأجاب الشيخ الجليل بحقن جم :

— أبدا ! ان ما قيل قد قيل ، وهكذا يجب ان يكون ! صل اذن ، وسانتظرك ولو قرنا كاملا .

فشرع الراهب يصلي حتى خيم الظلام الدامس ، واستمر يصلي من هبوط الليل حتى شروق الفجر ، ومنذ الفجر حتى عودة الظلام ، ومنذ الصيف حتى قدوم الربيع . . . وتناقلت الاغوام والراهب الطيب ما يزال راكعا تحت السنديانة التي نمت الان وراحت تطاول السماء ، وانبتقت غابة من ثمراتها ، ودعاؤه ما يزال يتصاعد دوما نحو العلاء .

وحنى هذا اليوم ، ما يزال الراهب ميرون يصلي ، دون كلل ، في قلب الغابة ، يسأل المعونة لكل البشر ، ويرجو العذراء أن تحنو على جميع الناس . وبالتقرب منه يقف ايفان المحارب ، وقد بلى سيفه وغمده بفعل الغبار ، وأكل الصدا دروعه وحديدتها ، واهترأت كل ثيابه وتفتتت ! على طول الشتاء يقف عريانا ، أهلكته الحرارة ، ومع ذلك لم يهلك ، التهمته الجائحات دون أن تجهز عليه ، تعرض الذئاب عنه ، والدببة تحيد عن طريقه ، توغره الأعاصير ، ولا يقتله الزمهرير ، وهو عاجز عن أن يتحرك من مكانه ، أو أن يرفع يدا أو يلفظ كلمة . . . وذلك كان عقابه لأنه انحط حتى تلك الدرجة من الشر ، وأخضع إرادته لإرادة سواه . أما صلوات الشيخ الجليل فما تزال ترتفع نحو الله من أجلنا نحن الخطاة ، متدفقة كالجدول يسيل نحو مياه المحيط . . . »

وقد لاحظت ، منذ بداية القصة ، أن « هذا رائع ! » قد تملكه ، لسبب ما ، اضطراب عظيم : فيداه ترتعشان بصورة غريبة ، وهو يضع نظارتيه ثم يخلعهما ، ثم يعود فيهزهما بحركة موزونة متناسقة مع الكلمات الشادية ، يهز رأسه ، ويضغط بأصابعه على عينيه ، ويمسح العرق المتصبب على جبهته وخديه . وكان ، كلما تحرك أحدهم أو سعل أو ضرب الأرض بقدمه ، يصيح بنزق :

— هس ! . . .

عندما انتهت جدتي من قصتها ، ومسحت بكمها العرق المتلألئ على جبهتها ، قفز « هذا رائع ! » بصخب وضجيج ، وراح يدور على أرض المطبخ بشكل حلزوني ، وقد بسط ذراعيه باضطراب ، وهو يهمهم :

— هذا رائع ! رائع جدا ! يجب أن يدون بأي ثمن كان ! إنه صحيح تماما . . . وروسي بكل معنى الكلمة ! . . .

لاحظ الجميع بوضوح أنه كان يبكي : تمتلئ عيناه بالدموع ثم تنهمر كسيل صغير فوق وجنتيه . وكان من الغريب والمؤثر معا منظر هذا الرجل الذي يركض في المطبخ بشكل مضحك ، يجرب أن يعلق نظارتيه خلف أذنيه دون أن ينجح في ذلك . وكان العم بيوتر يضحك ، ولكن الباقين اعتصموا بالصمت وقد تملكهم الدهشة .

قالت جدتي بسرعة :

— حسنا ، امض ودونها ان شئت ، فلا خطيئة في ذلك ! وانا اعرف من امثالها كثيرا !

فصاح المستاجر منهيجا :

— اوه ، كلا ! هذه فقط ! انها روسية — روسية من الصميم !

وتوقف ، على حين فجأة ، في وسط المطبخ ، وطفق يتكلم بصوت عالي النبرات ، وهو يلوح بذراعه الايمن . ويحمل نظارتيه في اليد اليسرى المرتجفة ظل يتحدث طويلا بحمية ، تصدر عنه ، من وقت لآخر ، آهة عميقة ، وهو بضرب الارض بقدميه . ولاحظت انه ردد ، عدة مرات ، هذه الكلمات :

— كلا ! كلا ! انها للجريمة لا تغتفر ان يعيش المرء حسب ضمير
سواه !

وعلى حين غرة ، انقطع صوته ، والقي نظرة سريعة على المحتفين به ، ثم دلف خارجا حانى الرأس . فنظر الجميع الى وجوه بعضهم البعض باستياء وقلق ، بينما انفردت جدتي في ظلمة الموقد حيث سمعتها تنهده
باسى ...

سالت بترونا ، وقد أمسكت بيدها شفتها الحمراء الكثيفة :

— كائنه غضب ؟

فأجاب العم بيوتر :

— كلا ! بل تلك طريقته بكل بساطة !

وهبطت جدتي عن الموقد ، وشرعت تهبى السماور ...

أضاف العم بيوتر بهدوء :

— ان المثقفين والنبله هكذا دوما — متقلبوا الاطوار !

وأضاف فالى :

— كل هذه الحماقات سببها الحياة الفردية ، حياة العزوبية .

فضحك الجميع ...

وقال العم بيوتر :

— أرايتم اليه حين بكل ؟ لقد ابكته قصتنا ... يظهر ان العزف أصاب منه وترا حساسا !

لم يعد جو المطبخ يطاق ، وقد طغى على قلبي حزن موحش . أدهشني « هذا رائع ! » كثيرا ، فاشفقست عليه . وحتى الان ، ما تزال عيناه الدامعتان منحفرتين في ذاكرتي .

قضى ذلك الليل بعيدا عن الدار ، ورجع بعد الغداء في اليوم التالي .
كان يبدو خائر التوى ، مرتبك البال ، مكتئب خاطر ...

قال لجدتي بطريقة صبيانية خالصة :

— لقد ارتكبت حماقة مساء البارحة ، أغاضبة أنت ؟

— ولم أغضب ؟

— لأنني نحتمت نفسي فيما لا يعنبنى ، وقلت حماقات كثيرة .

— انك لم تجرح شعور أحد .

شعرت ان جدتي تخاف منه ، فهي لا تنظر اليه ، ولا تخاطبه كما اعتادت ان تفعل .

اقترب منها ، وقال ببساطة فائقة :

— أنت ترين انني اعيش لوحدي ، وليس من يؤنسني في العالم كله ...
عندما يعيش الانسان طويلا ، وحيدا هكذا ، صامتا أبدا ، فلا بد من ان تحيي لحظة بأخذ فيها كل ما تراكم في نفسه بالغليان ، فيطفح وينفجر ...
انه ، في مثل تلك اللحظة ، يخاطب حتى الصخر ، والحجر ، والشجر ...

سألت جدتي ، وهي تبعد عنه :

— لم لا تتزوج ؟

فصاح ، وهو يحرك يده :

— آه...!

نم مضى انبس الوجه...

راقبته جدتي ، مقطبة الجبين ، وهو يغادر المكان ، ثم تنشقت بعض السموط ، والتفتت الي وقالت :

— لا تدر. حواليه كثيرا ، فالله وحده يدري ما يمكن ان يفعل هذا الانسان .

ولكن شيئا ما كان يجذبني اليه باستمرار ...

لاحظت التغير الذي طرأ على وجهه وهو يقول : انني اعيش لوحدي . فقد كان في تلك الكلمات شيء اهمه جيدا لمس مني شغاف القلب ، فمضيت للاقاته ...

تطلعت خلال نافذة غرفته — كانت خالية منه ، مليئة باشياء غريبة عديمة النفع ، عديمة الترتيب ، مثل صاحبها تماما . فقصدت الى الحديقة حيث وجدته مقتعدا خشبة متفحمة في الحفرة حيث شب الحريق ، وقد احدودب ظهره ، وارتكز مرفقاه على ركبتيه وتشابكت يداه خلف رقبته ... كانت الخشبة مغطاة بالاوساخ ، تندفع احدى نهايتها ، في الهواء فوق الحشيش ونبات القريص والارقطبون . لم يكن مرتاحا في جلسته هناك ، مما جعلني اشعر بمزيد من الاسف والحزن ، اجتذبنى اكثر فأكثر الى ذلك الرجل ...

ظل وقتا طويلا يرنو الي بعينه العميقتين الغائرتين ، لكن دون ان يراني فيما يبدو ، ثم سأل فجأة في ضيق وملل :

— اجئت تطلبني ؟

— كلا !

— ماذا تريد اذن ؟

— لا شيء على التعيين !

فنزح نظارتيه ومسحهما بمنديله الملطخ ببقع سود وحمر . قال :

— تعالى الى هنا .

ضممني اليه ، عندما اخذت مكاني بالقرب منه ، وقال :

— اجلس هنا ! اننا سنجلس فقط دون ان نتكلم . ما رأيك ؟ هكذا . . .
انك حقاً لفتى عنيّد !

— نعم !

— هذا رائع !

وقبّعنا هناك ، مدة طويلة ، دون ان نتفوّه بكلمة واحدة . . . كانت
الامسية لطيفة هادئة ، من تلك الامسيات الصيفية المضجرة الحزينة ، عندما
تأخذ الزهور بالذبول والجفاف أمام عينيك ، والارض المنهوكّة من رائحة
الخریف الرطبة ترشح بالبرود والبلل ، والهواء يشقّ بشكل غريب ،
والغربان تتواثب في السماء المحمرة تثير في الخواطر افكار حائرة قائمة . كان
كل شيء ساكناً ابكم ، حتى ان الاصوات الخفيفة ، من حفيف أجنحة الطيور
الى صدى سقوط الاوراق ، ترن بصورة تدفعك الى الانتصاب والتلفت
حوالك قلقاً مستفهماً ، ثم يعود كل شيء فيغرق مرة أخرى في السكون
العميق الذي يجلل الارض بأسرها .

كانت تلك اللحظات البهية تستدعي افكاراً نقية صافية ، لكنها هشة
شفافة كنسيج العنكبوت ، تتحدى المرء ان يثبتها في كلمات . انها تومض
وتغيب كالنجوم المتساقطة . تملأ النفس حزناً ، او تملؤها غبطة . او تقلقها ،
او تجعلها تغلي لتتجمد في اشكال ثابتة — في مثل تلك اللحظات نتكون
الشخصية وتأخذ القلب الذي ستحتفظ به مدى الحياة .

رنوبت وجليسي ، وقد ركنت الى جسده الدافئ ، ناحية التكتلات
السود التي ترسمها فروع شجرة النفاح حيث راينا « زرقية » تدفع نحو
السماء الواسعة ، وراينا الحساسين تنقر نبات اللفت الجاف تفتش عن
حبوب مبتلة ، وراينا السحب الرمادية المتدافعة بتجمعاتها القائمة نترامض
على طول الحقول ، وراينا جموع الغربان تتناكب في اتجاه المقبرة حيث
اعشاشها . كل ذلك كان جميلاً ، وكأنه ارتدى حلة خاصة واضحة للبصار
قريبة الى الافهام .

كان رفيقي يصعد تنهداته ، بين وقت وآخر ، ويسأل :

— هذا رائع ، اليس كذلك ؟ رائع ، يا أخي ! هم ، ولكن الطقس رطب ،
الست مصيباً ، الا تشعر بالبرد ؟

قال عندما اسودت السماء ، وغرق كل شيء في عتمة الليل :

— حسنا ، أعتقد ان ذلك يكني . هيا بنا ...

وتوقف ، عندما بلغنا بوابة المنزل ، وقال :

— ان جدتك امراة رائعة . آه ، يا له من وجود !

ثم أغلق عينيه وابتسم ، وتابع بهدوء ووضوح :

— « وذلك كان عقابه ، لانه انحط حتى تلك الدرجة من الشر ، واخضع ارادته لارادة سواه » .

ثم وجه حديثه الي ، وهو يدفعني داخل البوابة :

— تذكر ذلك ، يا اخي ! اتعرف الكتابة ؟

— كلا !

— تعلم . وعندما تتعلم اكتب قصص جدتك ، ان لذلك أهمية كبيرة .

اضحينا صديقين حميمين ... فاعتدت ، منذ ذلك اليوم ، زيارة « هذا رائع ! » كلما رغبت في ذلك ، فاجلس على صندوق مليء بالقماش اراقبه منشراح الصدر ، وهو يصهر الرصاص او يسخن النحاس ، فاذا بلغ درجة الاحمرار راح يطرقه صفائح رقيقة ، على سندان صغير ، بمطرقة خفيفة ذات مقبض جميل . وكان « هذا رائع ! » يستعمل أيضا مبردا ، ومناشر رفيعة بعضها رقيق كالشعرة ، ويزن كل شيء بميزان دقيق من النحاس ، ويمزج سوائل مختلفة في وعاء من الصيني الكثيف ، فيعجج جو الغرسة برائحة خانقة ، ويكثر ، وهو ينظر في كتاب ضخيم ، ويغمغم بشيء ما ، وهو يعرض شفتيه الحمراءوين ويتنهد بلطف ويدندن :

— آه ! يا زهرة شارون ...

— ماذا تفعل ؟

— شيئا هاما ، يا اخي .

— ما هو ؟

— ستري ، فأنا لا أعرف كيف أشرح لك ذلك الآن لانهمك اياه ...
— جدي يقول انك تزور العملة .
— جدك ؟ هم ! ذلك هراء ! ان المال ، يا اخي ، لا يستاهل كل ذلك
العناء .

— اذن ، ماذا تدفع ثمن خبزك !
— هذا صحيح ، فنحن لا نستطيع شراء الخبز بدون المال .
— ارايت ؟ واللحم كذلك ...
— واللحم كذلك !
وضحك بهدوء ضحكة لطيفة بعثت الغبطة في قلبي ، ثم فرك اذني مداعبا
كما يفعل لقطة صغيرة ، وأضاف :
— اني لا اقدر على مناقشتك يا اخي ، فأنت تفحمني دوما وتضييق
الخناق علي . فلنكف عن الحديث اذن .

كان يمتنع أحيانا عن العمل ويجيء فيجلس الى النافذة قربي ، يراقب
معي من خلالها أشجار التفاح تتعري من أوراقها ، أو المطر ينهمر على
السطح بعنف ويسيل في الساحة المغطاة بالعشب . وكان « هذا رائع ! »
بخيلا في كلامه ، فاذا تحدث لم ينطق الا بالكلمات الضرورية التي تبدو لي ،
دائما ، وكأنها الحقيقة بعينها ، واذا أراد أن يلفت انتباهي الى أمر ما ،
لكزني بمرفقه وأشار الى الشيء بغمزة من عينه .

لم اكن أرى في ساحتنا شيئا يبعث على الاهتمام . ولكن تلك اللكزات ،
وما يرافقتها من كلمات ، كانت تضيف على كل ما أراه معنى خاصا وتحفره
عميقا في ذاكرتي . فهذه قطرة تمرق في الساحة ، ثم تقف أمام بركة من المياه
المتجمعة تراقب فيها انعكاس صورتها ، وترفع مخالبا المرعبة كما لو كانت
ستضرب بها الظل المنعكس ، فيقول « هذا رائع ! » بلطف :

— ان القطة المتكبرة متشككة !

ويطير الديك الاحمر الذهبي « مامي » . ويحط على السور ، ثم يخفق
بجناحيه ، وهو يكاد يفقد توازنه ، فيتضايق ، ويبدأ يصيح بغضب ، وهو
يمد عنقه الى الامام ... ويقول :

— انه يتغطرس ، هذا الجنرال ، ولكنه اخرق عديم الشعور .

ويشق الإعرج فالي طريقه وسط الساحة كحصان هرم ، وقد رفع رأسه العريض المتورم يتطلع شزرا الى السماء ، فوقعت عليه خيوط شاحبة من أشعة شمس الخريف جعلت ازرار معطفه النحاسية الكبيرة تلمع زاهية ، فتوقف التتري عن المسير ، ولس تلك الازرار بأصابعه الملتوية متأثرا ، فقال صاحبي :

— انه يتأمل الازرار وكأنها مداليات علقت على صدره !

وسرمان ما اكتشفت ان تعلقي بـ « هذا رائع ! » يزداد وثوقا وقوة . واصبحت لا استطيع له غراقا ، انقسام واياه جميع افراحي واحزاني . وبالرغم من مبله ، بطبيعته ، الى الصمت ، فهو لم يجرب أبدا ان يمنى عن التحدث ، في اي وقت كان ، عن كل ما يجول في خاطري من أفكار . أما جدي فعلى نقيض ذلك ، ينهرني كلما انفرجت شفتاي بقوله :

— كف عن ثرثرتك ، يا طاحونة الشيطان !

لكن « هذا رائع ! » يصغي الي بانتباه ، وغالبا ما يقول وهو يتسم :

— ولكن هذا غير صحيح ، يا أخي ! انك تخلق ذلك من مخيلتك ... كانت ملاحظاته الوجيزة جديرة بالعناية ، تقع في حينها فيخيل الى انه يستطيع ان يستشف ما في قلبي وعقلي ، ويخمن الاشياء الموزرة المختلفة التي تجول في رأسي قبل ان تمر على شفتي ، فيذبحها ، عندما يراها ، ويخلق نقاشا لا فائدة منه قبل ان يولد بأربع كلمات لطيفة يقولها بشغف وولع :

— أنت تكذب !

— وكيف عرفت ؟

— اوه ، انني اعرف ذلك تماما ؟

كانت جدتي تصحبني معها ، في كثير من الاحايين ، لنستقي الماء من مضخة ساحة سينايا . فراينا ، ذات يوم ، خمسة من اهل المدينة يضربون فلاحا مسكينا ، القوا به على الارض ثم هجموا عليه كعصبة شرسة من الكلاب فتناولت جدتي الدلو من خشبته ، وهجمت على البورجوازيين الخمسة ، وهي تصيح بي :

— اهرب من هنا !

كنت خائفا . فاسرعت وراءها ركضا . . . وشرعت أرمي الاعداة بالحجارة ، بينما انهالت الجدة عليهم بالعصا بشجاعة فائقة ، نال منهم الرأس والكفين معا . واشترك في المعركة بعض الناس ، ففر البورجوازيون بأقصى ما يستطيعون من سرعة ، وعندئذ التفتت جدتي الى الفريسة تغفل وجهه الذي اثخنه الجراح . وما زلت ارتعد فرقا ، حتى اليوم ، كلما تخيلت كيف ضغط ذلك الفلاح شفتيه الممزقتين بأصبعه المتسخة ، وسعل ، ونبح بصوت عال ، بينما الدماء تنصب غزيرة من بين أصابعه على وجه الجدة وصدرها . وطفقت تنوح بدورها ، وترتجف من ام رأسها حتى أخمص قدميها .

وانطلقت ، عندما بلغت الدار ، الى غرفة المستأجر اقصى عليه ما حدث . فتوقف عن العمل ، ووقف امامي ، وهو يحمل مبردا طويلا كالسيف ، يصغي الى حديثي . ثم نظر الي بجفاء ورسوخ من تحت نظارتيه ، وقاطعني فجأة قائلا : وهو يشدد على كلماته بصورة غير معتادة :

— رائع ! هذا ما حدث بالضبط !

كنت مضطربا بعد ، متأثرا بما رايت ، فتابعته الحديث دون ان اعير اقواله انتباها . ولكنه احاطني بذراعه ، وراح يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، وهو يقاطعني من جديد ، ويقول في لهجة عتاب وتوبيخ :

— يكفي ، يكفي ! لقد قلت كل ما يجب ان يقال !

فتوقفت عن سرد الحديث . . . آلمني ذلك بادىء الامر ، ولكنني ، اذ تمعنت فيه جيدا ، أدركت في دهشة بالغة انه أوقفني في الوقت المناسب . . . كنت : في الواقع ، قد رويت كل شيء . . .

قال :

— اياك ان تشغل فكرك بسخافات كهذه . حاول ان تنسى ذلك !

كان ينطق ، أحيانا ، بأشياء هادئة جدا بحيث أظلم لها ذاكرها طول الحياة . وقد حدثته مرة عن عدوي اللدود كوشنيكوف ، أحد أبطال شارع

نوفيا ، وهو صبي سمين ، كبير الرأس ، لم اكن استطيع ان انال منه اكثر مما كان ينال مني ، واصفى « هذا رائع ! » الى متاعبي ، ثم قال :

— هراء ! ان قوة بهذا الشكل لا تعد قوة على الاطلاق . ان القوة الحقيقية تكمن في الحركة السريعة ، فكلما كنت نشيط الحركة سريعها كلما كنت قويا — اتفهم ؟

وفي نهار الاحد التالي جربت ان تكون لكماتي اكثر سرعة ، فاستطعت بسهولة كبيرة ان اتغلب على كوشنيكسوف ، الامر الذي زاد من تقديري لكلمات جارنا ونصائحه .

— يجب ان تعرف كيف تمسك بالاشياء ، اتفهم ؟ انه عمل صعب ان تجيد مسك الاشياء .

فلم افهم ما عنى بكلامه ، ولكنني تذكرت ذلك ، واشياء اخرى عديدة مماثلة . تذكرت ذلك لان فيه سرا يكتنفه يثير في النفس ، بالرغم من بساطته، الحيرة والعجب .

كانت كراهية سكان دارنا لـ « هذا رائع ! » تزداد يوما بعد يوم ، حتى ان قطة السيدة الشابة التي تتسلق غرف الجميع دون تفريق ، امست تستثنيه من هذه الثقة ولم تعد تلبس نداء اللطيف . واغاظني ذلك منها فعاقيتها عليه بشد الاذن ، ورحت اجرب — باكيا مترجيا — ان اقنمها بالا تخاف من صديقي . لكن « هذا رائع ! » يجد لها الاعذار ، فيقول لي :

— ان رائحة ثيابي تنفرها مني .

اما انا فكننت على ثقة من ان لكل فرد من اهل البيت ، بما فيهم جدتي ، اسبابا خاصة تدفعه لان يضر البغض للجار ، ويناصبه العداء الشديد . وكنت ارى في كل ذلك خطأ فادحا يثير في الما لا يحتمل . . .

سألنتي جدتي بغضب :

— لم تحوم حوله دائما ؟ انتبه ! فאלله وحده يعلم ما سيلتلك اياه !

اما جدي ، رأس الشر فكان يجلدني بوحشية كلما بلغه انني زرت ذلك

المستأجر . وطبيعي انني لم اطلع « هذا رائع ! » على ما ينالني من عقاب
كلما عصيت امر الامتناع عن زيارته ، غير انني اخبرته صراحة برأيهم فيه :

— ان جدي تخافك ، وهي تقول انك تشتغل بالسحر الاسود ، وهذا
هو رأي جدي ايضا ، فهو يقول انك عدو الله ، ومن الخطر على الناس أن
يتعاملوا معك .

نهز رأسه وكأنه يطرد ذبابة تضايقه ، ولمع وجهه الشاحب بابتسامة
ينقبض لها قلبي ، ويترنح منها رأسي ، وقال بهدوء :

— اني أستطيع رؤية ذلك ، يا أخي . هذا شيء محزن ، أليس كذلك ؟
وأخيرا ، أبعده عن البيت . . .

وجدته ، ذات صباح بعد طعام الافطار ، متربعا على الارض يحزم
امنته وكتبه في حقائبه وصناديقه ، وهو يترنم بلحن زهرة شارون . . .

— حسنا ، الوداع يا صديقي ، اني ذاهب .

— ولم ذلك ؟

نتألمني لحظة قبل ان يجيب :

— الا تدري السبب ؟ انهم في حاجة الى غرفتي من اجل والدتك .

— من قال هذا ؟

— جدك .

— انه يكذب !

فضمني « هذا رائع ! » اليه ، وقال بهدوء ، بينما كنت اتخذ مجلسي
على الارض :

— لا تغضب ! ظننت انك على علم بتلك المكائد ، وانك تخفيها عني ،
ولذلك احدثك بأمرها يا أخي ، وانا لا احب ذلك على أية حال . . .

ثم تابع هامسا :

— ادفع ... أنذكر مني اياك من زيارتي ؟

فأومأت بالإيجاب ...

— لقد جرحت شعورك يـمـذاك ؛ اليس كذلك ؟

— نعم ؛

— إنا لم اقصد ذلك ، ولكنى عرفت انهم سيؤنبونك اذا ما اصبحتنا
حديقين ، فأردت ان أوفر عنك عناء ذلك

وطفق يحدثني كما لو كنا اصدقاء في سن واحدة . وكانت كلماته تغمرني
بالرح والسعادة ، ويخيل الي اني اعرف — منذ أمد بعيد — كل شيء يريد
ان يطلعني عليه . قلت :

— لقد فهمت ذلك منذ مدة طويلة .

— حسنا ! ذلك أفضل ، يا اخي .

— واجسست لما عنيفا يعتمر قلبي ، فسألته :

— لم لا يحبك احد ؟

فاحتضنتني بلطف وتطلع بعيدا ، وهو يجيب :

— لانني غريب ، انهم ؟

فتعلقت بكتفه دون ان أعرف ماذا اقول او افعل ...

واضاف :

— لا تغضب !

وهمس بعد فترة في اذني :

— ولا تبك أيضا .

ولكن الدموع انهمرت على خديه من تحت نظارتيه الوسختين ...
وجلسنا هكذا مدة طويلة صامتين ، كالعادة ، شاردين ، نجمجم بين
حين وحين بكلمات مقتضبة .

وفي ذلك المساء ، وبعد ان ودع الجميع ، وعانقني بحرارة ، مضى في حال لحظة كومضة برق .

ركضت خارج البوابة ، اراقبه يبتعد وهو قابع على قمة العربة التي انطلقت تسحق بعجلاتها اكوام الاوساخ المتجمدة . . . ولم يكذب يرحنا حتى شرعت الجدة بتنظيف غرفته القذرة . فذهبت اليها ، ورحت أركض امامها من زاوية لاخرى متعمدا مضايقتها . . . فصاحت بي :

— اخرج من هنا !

— لم طردتموه ؟

— هذا ليس من خصوصياتك .

— انكم حقى ، كل هذه العشرة .

فأسرعت نلطنني بالمسحة المبلولة ، وهي تصيح :

— هل جننت ، أم ماذا ؟

فأجبت مصححا :

— لقد جن الجميع ، الاك . . .

وعلى طاولة العشاء ، مساء ، قال جدي :

— حسنا ! شكرا لله على ذهابه . لقد كان كالخنجر يحز في قلبي كلها رأيت ، ولذا تخلصت منه .

فكسرت ملعقة لشدة حنقي ، نلت جزاء عليها عذابا صارما . . .

وهكذا انتهت صداقتي مع أول انسان من تلك الجماعة التي لا تحصى من البشر — الغرباء في موطنهم الام — رغم كونهم افضل ابنائيه .

استطيع ان اشبه نفسي طفلا بخلية نحل يحمل اليها اناس منباينون
عسل معرفتهم وآرائهم في الحياة ، وكل منهم يشترك اشتراكا واسعا ،
حسب امكاناته الخاصة ، في اختلاف اطوار شخصيتي . وغالبا ما كان العسل
مرا ، ولكنه ، باعتباره معرفه ، كان عسلا على أية حال .

تمكنت اوامر الصداقة ، بعد رحيل « هذا رائع ! » ، بيني وبين العم
بيوتر ، وهو يشبه جدي في رفته ، واناقة ، ونظافته ، وأن كان أضعف جسما
واقصر بقليل ، يثير مرآه في النفس صورة مراهق يرتدي - مجرد التسلية
نقط - ثياب شيخ طاعن في السن . وكان وجهه كثير التفضن ، تلمع عليه
عيناه الضاحكتان كطيرين صغيرين . وكان شعره الرمادي الاشيب اجعد
الخصل ، ولحيته الطويلة تمتد بشكل دوائر عديدة ، وفمه ينمادى بغليون
يطلق دخانا يماثل لون شعره . وكان يخيّل الي انه يهزأ بالناس دونما
انقطاع ، وهو يروي سيرة حياته :

— في البدء قالت لي الكونتس التي تملكني ، وتسمى تاتيان ، وتكنى
الكسييفنا : ستكون حدادا . ولكني لم اكد ابدا ذلك العمل حتى قالت : كن
مساعد للبيستاني . فلم اعترض ، واصبحت بيستانيا . ولكن ، كما يقول
المثل « اعط الخبز للخباز ولو اكل نصفه » . وعندما لم انجح في عملي الجديد ،
قالت : جرب ان تصطاد ، يا بتروشكا . فقبلت ، لان الامر سواء عندي ،
وابتعت عدة الصيد . ولم اكد اتعود عملي الجديد حتى قلت للاسماك وداعا ،
اذ ارسلتني سيدتي الى البلدة لآخدم فيها سائقا ، او اي شيء اخر ارغب

فيه . وقبل ان تسنح لها الفرصة لتجعل منسي شيئاً اخر جاء التحرير
واجسيت طليقا لا املك الا الحصان . ومنذ ذلك اليوم اضحيت اتبع الد
بدلا من الكونتس .

كان حصانه هرما ، يخيل الي انه كان — فحينما مضى من الزمن —
اللون ، لكان فنانا ثملا رماه بفرشاة وسخة ، ولم يعن بمسح
الدهان عنه . كان حيوانا سقيما ، معوج الارجل ، يتدلى راسه الذ
بعميقه المتعكرتين في اسى بالغ من عنق يكاد الا يصله بالجسد الا
الاوردة الضخمة ، وقليل من الجلد الجاف المنكش .

ولكن العم بيوتر يعامله ، مع ذلك ، باحترام عظيم ، فيدعوه تانيا
يضربه ابدا .

ساله جدي مرة :

— لم تطلق على حيوانك اسما مسيحيا ؟

— ولكن لا ، يا فاسيلي فاسيليفيتش — لا ابدا ! ليس تانيا
مسيحيا ابدا . ان الاسم المسيحي تاتيانا .

كان العم بيوتر على قسط وافر من الثقافة ، وله بعض الالمام بـ
المقدس . فيخوض وجدي على الدوام غمار نقاش لا ينتهي ، موضو
اقدس الجميع بين القديسين ؟ وكانا يدينان ، دون رافة ، جميع الذ
الواردة اسماؤهم في التوراة ، وابشالوم منهم بصورة خاصة . و
نقاشهما يتخذ احيانا شكلا حاميا الوطيس . فيصيح جدي ، بعد نقاش
وعيناه الخضراوان تلعبان شررا :

— اخرج من هنا ، يا الكسي !

كان العم بيوتر مولعا بالترتيب والنظافة الى حد بعيد . وايضا
الساحة يلتقط التضببان الصغيرة ، والنشارة ، وهو يهمهم مزجرا :

— انها لا تصلح الا لتعرض الطريق !

كان ثرارا ، تدل ملامحه على اللطف والانس ، وان كانت سحابة
تغشى عينيه في بعض الاوقات ، فاذا هما اشبه بعيني جثة ميتة . و

ما كنت اراد جالسا في بعض الزوايا المظلمة ، صامبا ، مكتئبا ، كابن اخيه .
فاركض اليه ، وأسأله :

— مما بك ، ايها العم بيوتر ؟

فيجيب بأسى نسيدي وموت قاس بكلمات لا افهم منها شيئا .

وكان يقطن احد منازل تسارغا سيد في جيبه حديه ضخمة ، ومسي
راسه هوسى غريب لا يفارقه : فهو يجلس ، كل يوم احد ، الى النامذه يطلو
النار على الكلاب ، والقطط ، والفراخ ، والعربان ، وحتى على المارد الدين
لا ترون له رؤيتهم . وقد فعل ذلك مرة مع « هذا رائع ! » ، لكن الرصاص
لم يخترق معطفه الجلدي لحسن الحظ ، وان وقع بعض الخردق في جيبه .
وانا اذكر كيف وقف صاحبي وقسّد يفحص باهتمام تلك الحبات الرصاصيه في
راحة يده . وعندما حته جدي على تقديم شكوى ضد المسدي ، رمى تلك
الحبات في زاوية المطبخ ، وقال :

— انها لا تستأهل ذلك .

— وقد أرسل ذلك الاحمق ، مرة أخرى ، بعض الخردق في ساق جدي ،
الذي احتاج كثيرا وشكاه الى حاكم البلدة ، وراح يجند الشهود صده .
ولكن ذلك السيد اخفى ، فجاء ، وكأنها غيبته الأرض في جوفها .

كان العم بيوتر ، كلما ارتفع صدئ طلقات المجنون في الشارع ، يسرع
الى قبعنه الباهنة اللون ، العريضة الحافة ، التي لا يرتديها الا ايام الاحاد
فيضعها على راسه ثم يخرج من البوابة ، وقد نفخ بطنه ، ووضع يديه
تحت مؤخرة معطفه ليجمعه يرفع كذنب الطير ، ثم يروح يتمشى بنؤدة وكبرياء
بالمقرب من نافذة ذلك الاحمق ، ولا يمل من ذلك ابدا . ويتجمع سائر سكان
منزلنا قرب البوابة يراقبون ما يجري في الشارع ، بينما يطل الضابط وزوجته
المشقرء من النافذة ، وتغص ساحة بيتلينغ بالمستأجرين أيضا ، ولا يظل غير
منزل آل اوفزيافيكيوف عديم الحركة ، فكأنه قبر لا يضم الا
الاموات ...

كان تصرف العم بيوتر يظل دون جدوى في بعض الاحيان — فالصياد
لا يحسبه صيدا يستأهل الرمي ... وفي احيان اخرى ، كانت طلقتا البندقية
تنتابمان بشكل يصم الآذان .

— نبو! نبو!... —

فيقترب العم بيوتر منا ، دون ان يغير من سرعة خطواته ، ويقول برضى عظيم :

— لقد اصابني في ذيل معطفي .

لكن الطلقة اصابته ، ذات مرة ، في عنقه وكتفه ...

سالته جدتي ، وهي تزيل بابتة خياطة ما اخترق جلده من رصاص :

— لم تشبه هكذا ذلك المخلوق الشرس ! قد ينتهي بأن يقلع عينيك !
فيجيب باحتقار :

— اوه ، لا ، يا اكونينا ايفانوفنا ! انه لن يفعل ذلك ابدا ! فهو لا يحسن الرماية على الاطلاق !

— ولم تعطيه فرصة لارضاء غروره ؟

— لارضاء غروره ؟ ولكني انما افعل ذلك لاغظته فقط .

ويضيف ، وهو يتطلع الى مكان الجرح :

— كلا ، بالتأكيد ليس هذا برام ابدا ! ان الكونتس تاتيان الكسييفنا قد ارتبطت ، مرة ، بعلاقات زواج مؤقتة — فقد كانت تستبدل ازواجهها كما تستبدل ثيابها — مع ضابط يدعى مامونت ايليتش . حسنا ، ذلك كان راميا غذا وربي ، أيتها الجدة ، يستطيع ببندقيته ان يفعل كل شيء . لقد كان يوقف الابله اجناشكا على بعد أربعين خطوة او أكثر ، ويربط زجاجة الى حزامه الجلدي ، بحيث تتدلى بين ساقيه اللذين يفرج اجناشكا بينهما وهو بضحك كالمجنون . وعندها يصوب مامونت ايليتش البندقية ، ويطلق النار ، ماذا بالزجاجة تتطاير شظايا صغيرة ... وذات مرة ، حرك اجناشكا ساقه — لعل ذبابة عقصته — واذا الرصاصة تصيب منه الركبة ، وتحطم المعظم . وقد استدعي الطبيب فاسرع ، في مثل طرمة عين ، يقطع الساق ... هكذا ، من هنا — واشار باصابع يده الى مكان القطع — ولقد دفنوها ...

— واجناشكا ؟ هل مات !

— اوه ، لقد استمر يعيش في احسن حال ، فالبلاء لا يحتاجون ابدا
للأيدي والارجل ، بل يعيشون في عالمهم الجنوني ، يفتنون من بلاهتهم ،
وجميع الناس يحيونهم ويقدمون لهم المعونة . . انهم جماعة غير مؤذية ، كما
يقول المثل : « من لا عقل له ، لا ضرر منه » .

لم تؤثر تلك القصة في جدتي ، فهي تعرف الكبر من تلك القصص ،
ولكنها جعلتني ارتجف ، فسألت صاحبي :

— ايستطيع اى من النبلاء ان يقتل اى انسان كان ؟

— ولم لا ؟ انه يستطيع ذلك ! بل ان النبلاء يقتلون بعضهم بعضا
احيانا . وقد حدث مرة ان جاء احد الفرسان لزيارة تاتيان الكييفنا ، فاشتبك
مع مامونت في معركة حامية الوطيس ، وقد شمر كل منهما مسدسه ،
ومضيا معا الى الحديقة . وهناك ، في المر ، بالقرب من البحيرة ، اطلق
الخيال النار على مامونت فاصابه في كبده . . . حسنا ! مضى مامونت
الى ملكوت السماوات ، ومضى الخيال الى بلاد القوقاز ، وكان ذلك نهاية
كل شيء . . . ارايت ؟ انهم يتذابحون ! اما الفلاحون ومن كان على شاكلتهم
فما اكثرهم ! وخاصة في هذه الايام ، حيث لم يعودوا يملكونهم كما من قبل .
لقد كانوا ، قبالا ، اكثر حذرا وعناية ، لان الموجيك . على اية حال ، كان
ملكا لهم !

فقالتي جدتي :

— انهم لم يعنوا بهم ، حتى في ذلك الحين ايضا .

فوافق العم بيوتر بأشارة من راسه ثم تابع يقول :

— نعم ، ذلك صحيح ! ملكية خاصة بهم ، ولكنها ملكية رخيصة .

كان لطيفا معي الى حد بعيد ، ان تحدث الى فبرقة لم اعهد لها عنده في
معاملته للكبار ، ودون ان يفلق عينيه ايضا كمعاداته التي لم تكن تروق لي . . .
ولكن شيئا فيه لم يعجبني . كان عندما يعزمننا على الربى المفضل ، يقتطع
لي من الخبز قطعة تكبر حصة الآخرين . واذا زار المدينة ، جلس لي معه
كمعا وحلوى ، وجذور السوس ، وكثيرا ما كان يسألني بهدوء واهتمام :

— حسنا ، ماذا ستفعل عندما تكبر ، أيها الشاب ، أتريد ان تكون جنديا ، ام موظفا ؟

— بل جندي !

— ذلك يليق بك ، اذ لم تعد حرفة الجندي صعبة في هذه الايام . وكذلك الامر بالنسبة الى الكهنة — ما عليك الا أن تسير في الشارع ، وتصيح : « يا رب ارحم ! » فينتهي كل شيء فحياة الكاهن أسهل بما لا يتعدى ، من حياة الجندي . ولكن الافضل لك ان تحترف صيد السمك ، لان الصياد لا يحتاج الى أية معرفة على الاطلاق — ما عليه الا أن يعتاد ذلك فقط ، وهذا كل شيء

ويتوقف قليلا ليعود ، بعد فترة ، يهز رأسه بمرارة ويقول :

— انك تغضب عندما يجلدك جدك ، اليس كذلك ؟ انك مخطيء اذن يا صاح ، اذ ليس من سبب يدعوك الى الغضب في مثل هذه الحال . انهم لا يجلدونك الا لمصلحتك الخاصة ولكن ، هناك سيدتي تاتيان الكسييفنا مثلا ، تلك امرأة تعرف كيف تجلد الناس ، لا بل كانت تحتفظ بشخص خاص لمثل تلك الاعمال — ويدعى كريستوفور — وهو اختصاصي في فن الضرب ، طبقت شهرته الاتفاق حتى أصبح الملاكون المجاورون يطلبونه من الكونتس . فبرسلون اليها يرجونها : تلطفي ، يا تاتيان الكسييفنا ، وأعيرينا كريستوفور لينزل العقاب بعبيدنا . فكانت ترسله اليهم وفي نفسها شيء من الاعتداد .

وراح يروي لي ببرود وأطناب كيف كانت الكونتس تجلس على كرسي احمر اللون بالقرب من بوابة قصرها ، تتألق في ثوب ابيض من الحرير ، ووشاح ازرق يلتف حول كتفيها ، تتطلع الى الجلال كريستوفور يجلد العبيد من ذكور واناك بشغف ولذة :

— لقد كان كريستوفور هذا ، بالرغم من قدمه من ريزان ، يشبه غجريا او اوكرانيا في مظهره : غشابه يمتد من الاذن الواحدة حتى الاخرى ، ووجهه شديد التورم لانه كان يخلق لحيته دوما . ولست أدري ان كان نصف مجنون ، او انه يدعمى ذلك حتى تتيسر شؤون حياته . وكثيرا ما كان يدخل الى المطبخ ، ويملا أحد الاحواض ماء ، ثم يصطاد ذبابة ، او حشرة ، او بعض الخنافس ، ويتسلى باغراقها في الحوض بان يدفعها

تحت الماء بطرف أحد القضبان ، ويتضي زمنا طويلا منهمكا في هذه المهمة الغريبة . وكانت ياقة قميصه تقدم له ، في كثير من الاحايين ، فرائس هوايته .

كنت أعرف كثيرا من تلك القصص ، فقد روى لي جداي عددا لا يحصى من أمثالها . وهي ، بالرغم من اختلافها ظاهريا ، تتشابه بصورة غريبة جدا ، موضوعها دوما الا لام البشرية ، والذل ، والهوان ، وفي كل منها انسان يتعذب ، أو عبد يضطهد ، أو فلاح يسخر منه . ومللت ، كل الملل ، تلك الاقاصيص وعزقت عن سماعها فقلت للسائق :

— حدثني عن شيء آخر .

فجمع سائر خصل لحيته المجددة فوق فمه ، ثم رفعها حتى عينيه ، وأردف موافقا :

— حسنا ، ايها الجشع ! هاك شيئا آخر ... لقد كنا نملك ، مرة ، طبابخا ...

— من كان يملك الطبخا ؟

— الكونتس تاتيان الكسييفنا .

— ولم تدعوها تاتيان ، كما لو كانت رجلا ، عوضا عن تاتيانا ؟ انها امرأة ، اليس كذلك ؟

— بالطبع ، انها سييدة ! لكنها ، مع ذلك ، ذات شارب أسود اللون ، فهي جرمائية الاصل ، أهلها أشبه بالقنائل السود . حسنا ، لقد كنا نملك طبابخا ، هيه هيه ، هذه قصة مضحكة ، يا عزيزي ...

كانت تلك القصة المضحكة تتلخص في ان ذلك الطبخا امسد ، مرة ، طائرا يطبخه ، فعوقب على ذلك بتناوله طعاما دفعة واحدة . وكانت نتيجة ذلك ان سقط مريضا ، ولازم الفراش طويلا . فقلت معقبا باشمئزاز :

— انها ليست بالقصة المضحكة على الاطلاق .

— ما هو المضحك اذن ؟ هيا اروي لي ...

— لست أدري .

— اذن ، عليك بالصمت .

ومرة اخرى ، راح يلفق اقايصيه المملة ...



كان يزورنا ، احيانا ، ايام الاحاد والاعياد ، ابنا خالسي ، احدهما ، ابن ميخائيل ، حزينا كسولا كعادته ، والاخر ، ابن ياكوف ، نظيفا ، ذكيا ، ملما بكل الامور ، كعهدي به ايدا . وفي ذات يوم ، بينما كنا على السطح — ثلاثتنا — شاهدنا سيدا مقتعدا كومة من الاخشاب في ساحة آل بيتلينغ ، يلعب عددا من الكلاب الصغيرة . كان يرتدي معطفا طويلا اخضر اللون ، يضع فوقه مراء ثمينا اسودا ، اما راسه الصغير دون شعرة الاصر اللون ، فكان دون غطاء . اعجبنا بالكلاب ، فاقترح ابن خالسي ميخائيل ان نسرق احداها الامر الذي لقي منا تأييدا تاما دون ادنى تردد . . . فرسنا ، بسرعة فائقة ، خطا لذلك مؤداها ان يخرج ابنا خالسي الى الشارع ، وينتظران عند بوابة آل بيتلينغ الكبيرة ، بينما اقوم انا باخافة ذلك الرجل ، حتى اذا هرب انتهزا فرصة الفوضى التي ستنتج عن ذلك ، ودلفنا الى المساحة ليختطفنا الجرو الصغير ، سالت :

— وكيف اخيفه ؟

فماقترح احدهما :

— ابصق على راسه الاصلع .

فلم اجد في البصاق على راس اصلع خبطنة كبيرة ، مانا اعرف اساليب عديدة لانزال الاذى والضرر بالناس تفوق هذه شرا بشكل عنيف . ولذا لم اتردد في تنفيذ تلك المهمة التي عهد بها الي . . .

لكن ذلك التصرف اثار ضجة كبيرة ، وسرعان ما غزا ساحتنا جيش كامل من نساء آل بيتلينغ ورجالهم جاؤوا ، يقودهم ضابط متي انيق . وباعتبار ان زميلي كانا يلعبان بكل هدوء في الشارع اثناء ارتكاب الجريمة ،

تدري لي ان اتحمل الجزاء وحدي من دونهما ، فقام الجد الكريم بجلدي ،
في احتفال كبير ، مملقا سكان الدار المجاورة مخففا من غضبهم
ونقمتهم .

كنت اضطجع في المطبخ محطم الاعصاب ، متأما ، عندما
جاءني العم بيوتر ، وقد ارتدى أبهى ثيابه ، يبدو عليه انه في احسن حالاته
النفسية وهمس في أذني :

— تلك فعلة عظيمة تدل على الذكاء والفطنة ، يا صاح ! ان ذلك
التيس الهرم البالي ليستحق ما ناله ! ابصق على عثرتهم كلها ! كان افضل
لو رميت رأسه الاصلع بقرميدة ضخمة . . .

فتذكرت ذلك السيد المرتدي معطفا اخضر ، الدور الجسم ، الاصلع
الرأس ، بوجهه الذي يشبه وجوه الجراء الصغيرة ، وقد طفق يزغق بهدوء
والم كالكلب الصغير ، وهو يمسخ رأسه الاصفر بيديه الصغيرتين .
واحسست بخجل عظيم لا يوصف ، وبالكراهية لانبي خالي في ذات الوقت ،
ولكنني نسيت كل ذلك الان ، اذ رايت وجه ذلك السائق الذي يشبه السلة
المحفورة بالعضون العميقة ، والذي اكتسى مظهرا يبعث على الرعب والنفور
الشديدين ، لا يدانيه في شناعته الا وجه جدي اثناء جلده اياي .

صحت ، وانا ادفع بيوتر عني بيدي وقدمي :

— اخرج من هنا !

ومنذ ذلك الحين ، فقدت كل رغبة في التحدث اليه ، ورحت اتجنبه ،
واراقبه في الوقت ذاته ، فكانني اتوقع منه شيئا ما لا اعرف ماهيته على
وجه التحقيق !



وتبع تلك المغامرة ، بعد فترة وجيزة ، حادث اخر . . . كان منزل آل
اوفزيانيكوف موضع اهتمامي وشغلي الشاغل منذ مدة طويلة ، يبدو لي ان
جدرانه العتيقة الرمادية تنطوي على وجود شيء غريب لا مثيل له الا في
الافاصيص الخرافية .

وكان منزل آل اوفزيانيكوف كثير الضوضاء والمرح ، تعيش فيه مجموعة
مئات من الفتيات يتودد اليهن عدد من الطلبة والضباط الذين كنت تجدهم ابدا —
ايان جثتهم — يضحكون ، ويصيحون ، ويغنون ، ويلعبون ، ويعزفون
الالحان الموسيقية . وكان للمنزل نفسه مظهرا سارا ، ينبعث من نوافذه
المتلحمة بريق النباتات الاخضر بزهوره النادرة . ولكن جدي لم يحب ذلك
ابدا ، فهو يدعو سكانه جميعا بالكفرة والهرطقة ، بينما ينعت نساءه بكلمة
بذيئة غريبة ، فسر لي معناها العم بيوتر مرة بطريقة جد واضحة ...

لكن الجد كان متأثرا من العبوس والصمت المخيمين على دار
اوفزيانيكوف ، واللذين كانا يبعثان فيه الاحترام والتقدير ، كان منزلا
عاليا ، وان كان يقتصر على طابق واحد فقط ، يشرف على ساحة مترامية
الاطراف نظيفة مفروشة بالاعشاب ، ينتصب في وسطها بئر ماء عذب تحت
سقف صغير قائم على دعائمين . وكان يقوم ، عن يمين مدخل البوابة الكبرى،
مخزن للحصولات يشبه المنزل الاصلي في كل شيء سوى ان نوافذه حصنت
باطارات سميت بالجدار ، وطلبت ثرائها باللون الابيض . وكان مظهر
هذه النوافذ يبعث على النفور والقرف ، ويضعف في غموض الدار
الاساسية ، وتستترها عن الاعين ، وسعيها الى العيش حياة خاصة ، غبر
مفهومة . كان العقار بكامله ، بما فيه الاسطبلات ، ومخازن الحصولات
الفارغة ببواباتها الكبيرة ، يبعث في النفس احساسا من الانتفاخ الصامت ،
والكبرياء الهائلة .

كنت اشاهد ، احبانا ، شيخا باسق القامة ، حليق اللحية ، ابيض
الشاربين المنتصب شعرهما كالابرة الحادة ، بدب في الساحة وهو يعرج
على رجل واحدة . ومن وقت لآخر ، كان شيخ اخر ذو سالفين طويلين ، وانف
اقنى ، يخرج من الاسطبل يقود حصانا رمادي اللون ، ضبق الصدر ،
طاعن السن ، ضامر القوائم ، فاذا بلغا الساحة مرة ، شرع الحصان يهز
رأسه في كل الاتجاهات مثل راهبة طيبة القلب تحيي جميع من تصادفهم في
طريقها ، بينما يروح الشيخ يضربه بقسوة على مؤخرته ورقبته ،
ويصفر ، ويتنهد بعمق ، ثم يعود به ثانية الى الاسطبل المظلم . وكان يتها
لى ان ذلك الشيخ بود الهرب والاملات من تلك الدار ملسا ستطيع لانه كان
مسحورا .

وفي كل يوم تقريبا ، منذ الظهر حتى المساء ، كان ثلاثة اولاد يلعبون

في الساحة ويمرحون . كانوا يرندون معاطف رمادية ، وقمصانا وقبعات
المماثلة ، لا بل كانوا جميعا ، بوجوههم المستديرة ، واعينهم العسلية ،
يشبهون بعضهم بعضا كل المشبه حتى لم استطع التفريق بينهم الا باختلاف
قاماتهم فقط .

كنت اراقبهم من خلال شق صغير في السور دون ان يلحظوا وجودي .
الامر الذي كان يزعجني كثيرا . وكنت ابتهج برؤية العابهم اللطيفة المسرة
غير المألوفة لدي . واحببت ، بصورة خاصة ، ثيابهم وطريقة عناية كل
منهم بالآخرين ، وخاصة كبيرهم بأصغرهم سنا — وهو فتى عنيذ ، يبعث
الغبطة في القلب ، والانشراح في النفس . كانوا ، اذا ما سقط على الارض،
يضحكون جميعا ، ذلك ان الناس يضحكون دوما كلما وقع امرؤ على الارض،
ولكن ضحكهم هذا كان بريئا من الخبث مجردا عن الدناءة . وسرعان ما
يساعده الاخران على النهوض ، ثم يمسحان يديه وركبتيه بورقة من بعض
الاشجار ، او بمنديلَيْهما ... وكان الاوسط بجمجم بصوت رقيق عذب :

— الحق عليك ايها الغشيم !^١

ولم ارهم يتخاصمون ، او يخدعون بعضهم بعضا ابدا ... بل كان
الثلاثة اقوياء ، نشيطين ، ممثلين حماسة .

تسلقت شجرة ذات يوم ، وصفرت لهم سعياء وراء استجلاب انتباههم
الي . فتوقفوا عن الحركة ، ثم شخصوا بأبصارهم الى ، وراحوا يتشاورون
بصوت منخفض ... فانتظرت ان يرموني بالحجارة . فأسرعت بالهبوط من
مجملي لاتسلق اليه ثانية ، بعد قليل ، وقد امتلأ قميصي وجيوبتي بالحصى .
ولكنني وجدتهم يلعبون في زاوية بعيدة من الساحة ، وقد نسوا — فبما يبدو —
كل شيء عني . كان ذلك امرا يؤسف له ، ولكني لم أرغب في ان
اكون البادىء باعلان الحرب ... وما اسرع ان نادى احدهم من النافذة :

— الى البيت ، ايها الصغار ! اسرعوا ...

فاستداروا طائعين ، وساروا كالاوز ببطء وتثاقل ...

وكثرا ما تسلقت ، فيما بعد ، تلك الشجرة المنتصبية فوق السور ،
رجاء ان ادعى كى اشاركهم اللعب ، ولكنهم لم يدعوني ... وكنت ، في
تصوراتي ، اشاركهم تلك الالعب على اية حال ، واتحمس لها كثيرا حتى

لا هتف او اضحك عاليا من وقت لاخر . وعندئذ ، كان الثلاثة يرموننسي بنظرهم ، ثم يتهامسون فيما بينهم بما لا افقه منه شيئا ، بينما اهبط انا عن تلك الشجرة حائرا مرتبكسا .

وذات يوم ، شرعوا يلعبون « الغمضة » ، وكان على الاخ الاوسط ان يفتش عن الآخرين ، فوقف في زاوية قرب المخزن ، وقد وضع يديه على عينيه ، دون ان يختلس النظر ، بينما مضى الاخران يفتشان عن مخبأ . واسرع الكبير ، وتسلق العربة الجلدية التي كانت في الساحة بحركات سريعة محكمة ، ثم استتر بسطح المخزن البارز . غير ان الصغير ظل بدور ويدور حول البئر ، دون ان يعرف أين يختبئ .

صاح الاوسط سنا :

— واحد ... اثنان ...

فتسلق الصغير ، في شبه جنون ، حافة البئر ، وتعلق بالحبل ، ثم قفز الى السطل الفارغ الذي اختفى على الفور ، مصطدما بعنف ووحشية بجدران البئر الحجرية ... وامتلات رهبة ، عندما رأيت ان الحبل يهوي باندهفاع وسرعة ، غير أن ذعري لم يطل اكثر من ثانية واحدة ، بل سرعان ما تصورت هول ما سيحدث ، قفزت داخل الساحة المجاورة ، وأنا أصيح :

— لقد وقع في البئر !

كان الاوسط قد بلغ البئر ، في اللحظة التي وصلت فيها اليه ، فتعلق بالحبل الذي رفعه عاليا ثم رماه على الارض وقد أحرق يديه . ونجحت في الإمساك بالحبل بدوري ، وفي ذلك الحين ، وصل الكبير راكضا ، وساعدني في رفع الدلو ... قال :

— تمهل ، أرجوك !

أخرجنا ذلك الصغير الذي بدا عليه الرعب بوضوح ، والدم يتدفق من أصابع يده اليمنى ، وقد جرح أحد خديه بشكل ظاهر ، وابتل حتى خصره ، وشحب لونه كثيرا . ولكنه ابتسم مع ذلك ، وقال وهو يرتجف :

— يا لله ... لم أعرف كيف سق ... طت !

وتلعمم الاخ الاوسط :

— أنت مجنون !

وراح يحتضنه ، ويمسح الدم عن وجهه ، بينما قطب الاكبر وجهه ،
وقال :

— تعال ، فنحن لا نستطيع اخفاء هذا الجرح بأي شكل . يحسن
بنا أن نسرع الان .

فسألت :

— هل ستجلدون ؟

فهز رأسه ، ومد يده لي ، وقال :

— أنك تركض بسرعة غريبة .

فتمايلت لمديحه ، وقبل ان اصافحه ، راح يقول للاوسط :

— هيا بنا ، والا اصيب بالبرد . سنقول ، بكل بساطة ، انه وقع على
الارض . ومن المخجل ان نقول عن البئر شيئا .

فوافق الصغير :

— نعم . سنقول انني وقعت في مستنقع .

ثم مضوا ...

غاب الاخوة الثلاثة ، بعد ذلك ، طوال اسبوع عن انظارني ...
وعندما ظهروا أخيرا كانوا أكثر ضوضاء منهم في أي وقت آخر . وسرعان ما
صاح كبيرهم ، عندما بصر بي ، بلطف ونعومة :

— تعال تلعب سوية .

فخرجت اليهم ، وتسلقنا معا عربة عتيقة مهجورة حيث قضينا فترة من
الزمن نتعارف . سألت :

— هل ضربتم ؟

فأجاب الكبير :

— لقد نلنا نصيبنا ، جميعا !

كان يصعب علي أن اصدق أن هؤلاء الحبية يجلدون مثلي ، واعتبرت ذلك ظلما ، فتألمت من أجلهم . . .

سأل الصغير بتردد :

— لم تصطاد العصافير ؟

— لأنها تغرد بصوت حلو رائع .

— لا تفعل ذلك بعد الآن . دعها احرارا تطير أنى تشاء .

— حسنا ، لمن افعل ذلك ثانية .

— ولكن ، قبل ذلك ، اصطد واحدا الآن واعطنيه .

— أيها تفضل ؟

— لا فرق ، بل فليكن مفردا فاضمه في قفص .

— ذلك يجب أن يكون بلبلا .

فقال الاوسط :

— ستقتله القطاة . ولن يتركها والدي نحتفظ به .

فوافق الكبير بإيماءة من رأسه وقال :

— هذا صحيح !

— هل مندكم أم ؟

فأجاب البكر :

— كلا ، ولكن . . .

فقال الاوسط مصححا :

— نعم لنا . . . ولكن واحدة أخرى ، وليست أمنا ، أمنا ماتت .

فقلت :

— هذا النوع من النساء يسمى خالة .

فأما البكر فقال :

— هذا صحيح !

وغرق ، الثلاثة ، في صبت عميق ...

كنت اعرف ، من أقاصيص جدتي ، ما هي الخالة ، فلم يمر علي ادراك معنى حزنهم العميق هذا ، وقد جلسوا الان متلاصقين متراكمين مثل صيصان ثلاثه ، صغيرة ، مذعورة ... وتذكرت قصة تلك الخالة الساحرة التي لجأت الى احط الوسائل غير المشروعة لتحل مكان الام الحقيقية ، محاولت ان أعزي الصبية بقولي :

— لا تغنوا ! ان امكم الحقيقية ستعود ثانية .

فهز البكر كتفيه ، وقال :

— وكيف تعود وهي ميتة ؟ ان ذلك لن يحدث !

هل صحيح ان الموت ، في مثل هذه الحالات ، لم يرسل من قبل الله ، بل

من قبل المشعوذين والسحرة ، وبالتالي لم يكن حقيقيا !

وطفقت أروي لهم بعض حكايات جدتي بحماسة وحمية ، ولكن الولد البكر ابتسم باحتقار ، وقال :

— لقد سمعنا هذه الحكايات ، انها قصص خرافية ليس غير ! ...

واصفي اخواه باحترام وهدوء ، وقد قطب الصفير وجهه ، وزم شفتيه ، ووضع الاوسط ذراعه على ركبته ، واحاط بساعده الاخر رقبة اخيه وهو يجذبه في اتجاهي .

كان كل شيء ساكنا عند المساء ، وسحب رمادية عديدة تحلق فوق السطوح العالية ، عندما ظهر بيننا ذلك الشيخ الابيض السالفين ، وقد ارتدى معطفا بنيا طويلا يشبه جبة الكهنة ، وغطى رأسه بقبعة كثيفة من الفرو . اقترب منا ، ثم سال وقد اشار الي بأصبعه :

— من هذا ؟

فنهض كبيرهم ، وأشار برأسه الى دار جدي ، وقال :

— هو من هناك .

— ومن طلب اليه المجيء ؟

فنزل الثلاثة حالا عن العربية ، ومضوا في اتجاه البيت .
مرة ثانية ، كالأوز المطيع ...

رامسك الشيخ بي بخشونة من كتفي ، وقادني عبر الساحة حتى
البوابة . كنت أود أن أذرف الدموع من شدة خوفي ، ولكنه مشى بي مسرعاً ،
وبخطوات كبيرة . بحيث وجدته في الشارع قبل أن أتمكن من البكاء . ووقف
بالقرب من البوابة ، وهياً أصبعه في وجهي مهدداً ، وقال :

— اياك أن تتجاسر وتحضر لرؤيتي ثانية !

فصحت غاضباً :

— أنا لم احضر لأراك انت ، ايها العجوز !

فطالني ذراعه الطويلة مرة أخرى ، وقادني أمامه على طول الطريق ،
وهو بكرر ذات السؤال ، فتنهال كلماته مثل ضربات مطرقة ضخمة هبطت
على رأسي :

— هل جدك في الدار ؟

وثناء حظي العاثر أن يكون جدي في الدار ... وقف أمام الرجل
المتوعد ، وقد رمى رأسه إلى الخلف ، وبرزت لحيته إلى الامام ، وقال متلعثماً
وهو يتطلع بعينين مدورتين كبيرتين كئيبتين :

— ان والدته غائبة ، وأنا مشغول ، وليس من يعنى به . انسي
استهيطك العذر ، يا كولومين .

فزمجر الكولونيل بصوت تردد صده في أرجاء البيت كله ، ثم دار على
عقبه ، وابتمد ...

وبعد فترة وجيزة كنت مستلقياً في عربة العم بيوتر أخفي دموعي ،
بعد أن ثلث نصيبي من الجلد كما لم أذق من قبل . فسألني السائق ، وهو
بقود العربية :

— أجلدت ثانيه ، يا عزيزي ؟ ما هو خطاك في هذه المرة ؟

ولما اخبرته بالامر هب واقفا على قدميه ، وكز بأسنانه ، وصاح غاضبا :

— لم اصادق جماعة مثل اولئك ؟ انهم من سلالة النبلاء ، يعقصون كالافعى ... ارايت ما نالك بسببهم ؟ ستردها لهم فيما بعد ، من دون ريب ؟
اليس كذلك ؟

واستمر يهذر على هذا الفرار مدة طويلة ، فاستمعت اليه — بادية الامر — في كثير من الود ، نائرا بسبب ما لحقني من الضرب بسببهم . ولكن وجهه الشبيه بالسلة طفق يرنجف بشكل يبعث على النفور ، فما أسرع ما تذكرت ان اولئك الصغار يجلدون أيضا ، وان ذلك قد حدث لهم فعلا فيما مضى ، وانهم لم يتعمدوا مضايقتي أبدا ، فهم لا يستحقون اللوم أكثر مني في حال من الاحوال . قلت :

— ليس من سبب يجعلني ارد ذلك لهم . فهم طيبون ، وان كل ما تقول مجرد سخافات ليس غير .

تطلع الي بحدة ، ثم صاح فجأة :

— اخرج من عربتي !

فصرخت ، وانا اقتفز الى الارض :

— يا لك من احمق !

وانطلق يعدو خلفي في الساحة وهو يصيح ، دون ان يستطيع الى امساكي سبيلا :

— احمق انا ؟ اسخيف انا ؟ ...

وظهرت جدتي على عتبة المطبخ ، غارتميت في احفائها ، بينا راح بيوتر يوضح لها ما جرى بيننا قائللا :

— ينقص حياتي هذا الكلب الصغير . وهو لا يفقه ما يقول ، فينعتني بسائر الاسماء البذيئة ، ويجرؤ على ان يدعوني كاذبا مع اني اكبره بخمس مرات ...

كنت أفقد صوابي عندما أرى الناس يكذبون أمامي ، فتمعن الدهشة
لساني وتجعلني أقرب الى البلاهة . وهذا ما حدث لي عندئذ ، فوقفت أنظر
اليه وقد فقدت القدرة على الكلام . . . ولكن الجدة قالت بلهجة رصينة :
— والان يا بيوتر ، انك انت الذي يكذب . اني واثقة من انه لم يوجه
اليك الفاظا بذينة على الاطلاق .

اما جدي فكان يصدق ذلك السائق . . .



ومنذ ذلك اليوم ، أعلنها السائق علي حريا صامتة شمسواء ، فهو ينتهز
الفرص ليلكمني في ظهري ، او يصيبنني باللجام الذي يلوحه بيده عابثا ،
وكأن الامر يحدث صدفة دون قصد منه ، كما افلت طيوري من اقفاصها ،
وسلط القط عليها في احد الايام . . . وكان يشكوني ، في كل مناسبة ، الى
جدي ، ويهمس في اذنه بأشياء كثيرة مغاليا ابدأ في اظهار هفواتي وتعظيمها .
وهكذا كنت لا أرى فيه ، من جراء ذلك ، سوى صبي صغير في مثل سني ،
يرتدي لباس الرجال الشيوخ .

ورحت بدوري اتفنن في الانتقام منه ، فاحل شرائط صندليه ،
وأقرض عصا بات الاشمشة التي يستخدمها كجوارب لقدميه ، بحيث تتقطع
عندما يشدها ليربطها . ورششت ، مرة ، بعض الفلفل في قبعته ، فظل
يدور على عقبه ويعطس طيلة ساعة كاملة . وعلى العموم ، فقد رحت أبذل
ما في وسعي لارد له الكيل خيلين ، فاذا جاء يوم الاحد طفق يتجسس علي
النهار بطوله ، ويراقبني بعين ساهرة يقطرة لا يغمض لها جفن ، فان ضبطني
في حالة من العصيان ، اتحدث مع النبلاء الصغار ، أسرع دون ابطاء يشي بي
الى جدي .

لكن اتصالاتي استمرت ، بالرغم من ذلك ، مع اولئك الصبية ،
وازدادت أوامرها توثقا يوما بعد يوم ، وهي تمدني بسرور لا يمكن وصفه .
وكأنت تنهض ، بين حائط منزل جدي وسور آل اوغريانيكوف ، زاوية صغيرة
مظلمة بشجر الليمون والسرو ، ومغطاة بادغال من شجر البلوط التي
حفر وراءها متسعا صغيرا في السور يأتيني الصبية منه ، كل بدوره او اثنتين

اثنين ، فنجلس القرفصاء نتحدث في هدوء وسكينة ، بينما يخفر الثالث المكان كيلا يفاجئنا الكولونيل على حين غرة .

وسردوا علي قصة الحياة الكثيرة المفجعة المرتبة التي يعيشونها ، فاحزنني ذلك كل الحزن ، وحز كثيرا في قلبي . كنا نتحدث عن الطيور التي نصطادها ، وعن كثير من الامور التي نضلا حياه الصغار ، ولكنني اذكر تماما انهم لم يأتوا أبدا على ذكر والدهم أو امرأة أبيهم . وكثيرا ما كانوا يسألونني ببساطة ان أحكي لهم قصة ، فأعيد على مسامعهم — بأمانة نامة — كل تلك القصص والحكايات التي سمعتها فيما مضى فماذا نسيت بعض التفاصيل ، طلبت اليهم الانتظار بعض الوقت ، ومضيت الى المطبخ اتزود من الجدة ما غاب عن ذاكرتي الامر الذي كانت تسر له سرورا عظيما .

كنت احدهم ، في أغلب الاحيان ، عن جدتي . . . وفي ذات مرة ، ندت عن البكر تنهدة عميقة ، ثم أعلن بالكتئاب :

— لا رغبة ان الجدات لطيفات جدا . لقد كانت لنا جدة لطيفة نحن الآخرون وكنا نحبها كثيرا . . .

كثيرا ما تحدث بصيغة الماضي ، ويردد كثيرا ، وبحزن ظاهر ، هذه التعبيرات : « كنا » و « كان لنا » و « ذات مرة » ، حتى ليخيل اليك انه عاش مئات السنين ، لا أحد عشر عاما فقط . وأنا اذكر ان يديه كانتا نحيلتين ، قد طالت اصابعهما ورقت ، لا بل كان — في مجمله — هزيلا نحيلًا ، ذا عيين صافيتين هادئتين تثيران في خاطر صورة لهب القناديل المحترقة أبدا في الكنائس . ولقد احببت أخويه أيضا ، فقد كسبا ودي وعطفي منذ اللحظة الاولى ، بحيث يبعثان في قلبي الرغبة الاكيدة في منحهما ما يحمل السعادة الى مؤاديهما . ولكن غرامي بالبكر كان أعظم على أية حال . . .

كنت استغرق واياهم في الحوار حتى يفوتني ، غالبا ، اقتراب العم بيوتر منا . . . كان ، أبدا ، يفرق بيننا وهو يهتف بنا :

— هكذا ؟ معهم ثانية ؟

كنت الحظ انه يزداد عرضة لنوبات التقطيب والعبوس . وتعلبت أيضا ان اخمن طبيعة مزاجه من مجرد طريقته في فتح البوابة عند عودته من

العمل . كان من عادته ان يفعل ذلك بتمهل ويتؤدة ، بحيث تصغر المفصلات طويلا بين يديه ، فاذا كان سيء المزاج بعثت تلك المفصلات صوتا حادا يشبه زئير انسان يتالم ويشقى .

وقد غادرنا ابن اخيه الابكم الاصم الى الريف منذ زمن طويل ، سعيًا وراء الزواج ... وهكذا امسى بيونر يعيش وحيدا في غرفة واطئة السقف ، فوق بناء الاسطبل ، لها نافذة صغيرة . وكان قليل العناية بتلك الغرفة حتى غصت بروائح القطران ، والجلد المدبوغ ، والتبغ ، والعرق .

وقد طفق ينام ، في هذه الايام ، دون أن يطفىء القنديل ، الامر الذي ازعج جدي كثيرا .

كان يقول له دوما :

— احترس ! والا احترقت المكان ، يا بيوتر .

فيجيب ، وهو يتطلع من طرف عينه متفاديا نظرات جدي :

— كلا ، اطمئن ، فلا خطر من ذلك على الاطلاق ! اني اضع الشمعة في الليل وسط حوض من الماء .

اضحت نظراته الى الناس والاشياء مسترقة ، سريعة ، منحرفة ... وامتنع عن حضور حفلات جدتي ، ولم يعد يدعونا الى المربى ، في حين راح وجهه يجف ، وازدادت فيه الغضون عمقا وعددا ، وطفق ينرنسح في مشيته ويسحب رجليه سحباً مثل رجل منهوك القوى .

وذات يوم ، بينما كانت جدتي تهيئ الثلج الذي تساقط بغزارة اثناء الليل ، سمعنا مزلاج البوابة بلحن خاص وقع ، ودلف منه الى الساحة شرطي أغلق البوابة خلفه ، واتكأ بظهره عليها ، ثم اشار الى جدي بأصبعه المسمينة الرمادية طالبا اليه الاقتراب منه . وعندما حاذاه الجد الصق أنفه الضخم في وجهه ، واسر اليه شيئا جعله يجهم ، وهو يرتعش :

— هنا ؟ متى ؟ لو كنت أتذكر فقط ...

ثم جفل بشكل مضحك ، وصاح :

— أيها الرب العلي ! اذلك ممكن ؟

فحذره الشرطي بصوت خفيض :

— صه ! لا تصح هكذا !

تطلع جدي حواليه ، فبصر بي ، فقال :

— احمل المجاريف واذهب الى الدار .

فاختبأت في احدى الزوايا اراقبهما يدخلان جناح السائق في الاسطبل .
وقد نزع الشرطي قفاز يده اليمنى وهو يقول :

— لقد فهم ذلك تماما ، فهجر حصانه واختفى ...

انطلقت الى المطبخ بسرعة اطلع جدتي على ما رايت وسمعت ، فالفيتها
منكبة فوق وعاء العجين ، ورأسها المغمور بالدقيق يتأرجح مع حركات
يديها ..

قالت بتهمل ، عندما انتهيت من سرد قصتي ، وبقسوة تعنفني :
— لربما سرق شيئا ... أخرج الى الساحة والعيب ، فما دخلك في
ذلك ؟

رجعت الى الساحة راكضا ، فبصرت بجدي يقف قرب البوابة ، وقد
نزع ثيبعته عن رأسه ، وحلق بنأظريه الى السماء وهو يرسم اشارة الصليب ،
مخشوشن الشعر ، تعلو امارات الغضب وجهه ، وترتجف احدى ساقيه بعصبية
صاح ، وهو يضرب الارض بقدمه :

— ألم أقل لك ان تذهب الى الدار ؟

ولحق بي الى المطبخ ، وما أن وقعت أنظاره على جدتي حتى هتف بها :
— تعالي ، يا أماه !

مضيا معا الى الغرفة المجاورة حيث قضيا فترة من الزمن يتهامسان
وعندما رجعت البدة الى المطبخ ، أدركت ، من النظرة الاولى ، أن شيئا
رهيبا قد حدث ... سألت :

— أنت مذعورة يا جدتي ، لماذا ؟

فاجابت بهدوء :

— اطبق فمك ، اتفهم ؟

واطبق على المنزل جو من الضيق والرغبة طيلة ذلك النهار ، وظل جدي وجدتي ، على مر الوقت ، يتبادلان نظرات متسائلة قلقة ، وكلمات مبهمة غير مفهومة ضاعفت من اضطرابي وحيرتي . ثم أصدر الجد أوامره ، بصوت مرتفع ، وهو يسعل :

— أضيئي القناديل كلها ، يا أماء ، أمام سائر الايقونات .

تناول طعام الغداء بدون شهية وبسرعة فائقة ، فكأنهما ينتظران احدا . وكان جدي يسعل ، ويهمهم :

— ان ابليس يفوق الانسان قوة . . . انظري الى كذا ، مثلا — رجل دين ، ورع ، تقى ، بكل معنى الكلمة ، ومع ذلك انظري ماذا فعل !

وأنا ، عند المساء ، شرطي آخر . كان سمينا ، احمر الرأس ، اقتعد دكة في المطبخ ، ومضى يغفو عليها ، فيرتفع شخيره في ضجيج عنيف . مسألته جدتي :

— وكيف اكتشفوا ذلك ؟

فاجاب بنظاظة ، بعد لحظة من الصمت :

— انهم يكتشفون كل شيء عندنا بسرعة .

كنت اجلس الى النافذة اسخن في فمى قطعة قديمة من العملة كي اطعم بها صورة القديس جاورجيوس ، حامل النسر ، على زجاج النافذة المجهد . . وعلى غير انتظار ، علا ضجيج صاحب في الممر ، ثم فتح الباب ، وظهرت بتروفا على العتبة ، وهى تصيح :

— تعالوا وانظروا ماذا يوجد على ارضكم في الخارج . . .

ولم تكد انظارها تقع على الشرطي ، حتى استدارت نحو الباب تسمى وراء الفرار . ولكن رجل الامن امسك بها من قميصها ، وصاح مذعورا :

— تمهلي لحظة ! من انت ؟ وماذا يوجد هناك ؟

فركعت على ركبتها ، وطفقت تبكي وهي تبتلع كلماتها ودموعها :

— لقد خرجت لالحلب البقرة ، وفجأة بصرت بشيء يشبه زوج أحذية في
ساحة آل كاشرين ...

نصاح جدي عندئذ حانقا :

— هذا كذب ، أيتها الفاجرة ! أنت لا تستطيعين رؤية شيء في ساحتنا
فالسور عال جدا وليس من ثغرات فيه على الإطلاق . أنت تكذبين ! ليس
هناك شيء في ساحتنا .

فناحت بتروفنا ، وهي تمد اليه إحدى يديها ، وتمسك رأسها باليد
الأخرى لتقول مترنحة :

— آه ، يا الهي ، آله على حق ، فأنا اكذب ! لقد انطلقت احلب
البقرة ، وفجأة رأيت آثار أقدام تقود الى السور ، والثلج مبعثر في بقعة
واحدة ، الامر الذي اثار فضولي ، فتسلقت السور وتطلعت من عليه ،
فرايته ... أجل رأيته ...

— رأيت ... ن ؟

جاءت هذه الصيحة عالية ، طويلة ، لا معنى لها ...

وعلى حين بغتة ، وكأنهم فقدوا الشعور ، يركضون ويتدافعون خارج
المطبخ في اتجاه الساحة . وهناك ، بين كحل الثلج ، في الحفرة التي خلفها
احتراق غرفة الغسيل ، كان العم بيوتر ممددا ، يستند ظهره الى خشبة
محترقة ، ويتدلى رأسه فوق صدره . وكانت فرجة واسعة تستقر تحت
أذنه اليمنى تماما ، اشبه ما تكون بثغر احمر اللون ، ذي حواش مزرقمة
تبرز كالاسنان . أغلقت عيني في خوف ورهبة ، فشاهدت ، من خلال اهدابي ،
سكين العم بيوتر التي طالما رأيته يقطع الجلود بها ، تتدلى من على ركبته ،
وقد انشلت بالقرب منها اصابع بده اليمنى المحترقة الملتوية . اما اليد اليسرى
فكانت مدفونة في الثلج الذي ذاب تحت الجسد الصغير ، الفارق عميقا عن
المحيط الابيض النمر الناعم ، يبدو طفليا اكثر منه في اي وقت مضى ، وقد
تلطخ الثلج عن يمينه فرسم صورة حمراء غريبة اشبه بالطير ، بينما ظل عن
يساره نقيًا ، لامعا ، لا دنس فيه ، يمتد ناعما براقا كعهدي به دوما .

وكان الرأس المنحني يرتاح بما أوتي من قوة على الصدر الذي ظهر عليه ، من خلال
الملحمة المجعدة المشعثة ، صليب نحاسي احاطت به خيوط عديدة من الدم
المتجمد .

واصابني الدوار لشدة اضطراب الاصوات حولي ، فبترومنا تزعق
دونما انقطاع ، والشرطي يصيح بغالي ان يذهب الى مكان ما ، وجدي
صرخ بكل ما أوتي من قوة :

— أياكم ان تسيحوا اي اثر .

ولكنه عبس فجأة ، وشخص الى الارض تحت قدميه ، وخاطب الشرطي
في صوت عال يتضمن الامر :

— لا فائدة من كل هذا الصياح ، ايها الضابط ! ذلك عمل الله ، دينونة
الله ، وانت تأتينا بمهمتك الحمقاء هذه . تبا لك !

فصمت الجميع ، وهم يتنهدون ويرسمون اشبارات الصليب ، ويحدقون
طويلا في الرجل الميت .

وقفز آخرون من فوق السور ، قادمين من ناحية منزل بترومنا . كانوا
يقفون على الارض بهيمغمين بشيء مبهم ، ثم يأتون عدوا عبر الساحة دون
ان يثيروا ضجة تذكر ، حتى رمقهم جدي بحقن ، وصاح كمن فقد الامل :

— انكم تسحقون ادغال توت العليق ، ايها الجيران ! الا تخجلون من
انفسكم ؟

وامسكت جدي بيدي ، وقادتني حتى المنزل . . . حين سألته :

— ماذا فعل ؟

فأجابت همسا :

— أما رأيت ؟

ظل اناس غرباء ، طيلة ذلك المساء ، وحتى ساعة متأخرة من الليل ،
يملاؤن المطبخ والغرفة المجاورة . وكان الشرطي يصدر أوامره ، وهناك
آخر أشبه بأحد التسمامة يسجل بعض الملاحظات في دفتر صغير ، وهو
يكح باستمرار كالبطلة :

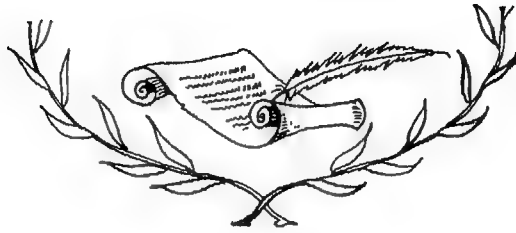
... ماذا ؟ ماذا ؟

قدمت جدتي الشاي للجميع ... كان يجلس الى طاولة المطبخ رجل
منفوخ الجسم ، طويل السالفين ، ملأت البثور وجهه ، يقول في صوت متكسر :
— ان احدا لا يعرف اسمه الحقيقي . الشيء الوحيد المعروف عنه انه
جاء من ايلاتما . اما ذلك الابكم الاصم فلم يعد ابكم او اصم اكثر منكم او
مني . لقد تكلم واعترف بكل شيء . وكذلك اعترف شخص آخر — لانهم كانوا
ثلاثة — كانت مهمتهم ان يسرقوا الكنائس ، ذلك كان اختصاصهم منذ ابد
بعيد جدا ...

نهتفت بتروفا ، محمرة الوجه ، وهي تتصيب عرقا :

— يا الهي !

اضطجعت في سقيفة المطبخ ، انظر اليهم من عل ، مبدوا لي — جميعا —
قصارا ، غلاظا ، قديحين ...



خرجت باكرا صباح يوم سبت الى حديقة الجارة بتروفا لاصطاد بعض الطيور ، ولكن وقتا طويلا انقضى وتلك المخلوقات الطائفة امام عيني ، وكأنها تعتمد مضايقتي ، فتتمخطر بعذوبة وانطلاق فوق الثلج الفضي المتجمد ، او تطير بين الادغال ، وتمايل على الاغصان المكسوة بالجلد الفزير اشبه بأزهار زاهية تتالق بين الاضواء المزرق المنعكسة على غبار الثلج المتساقط . . . لقد كان ذلك كله على نصيب وافر من الروعة والجمال حتى اني لم احس اسفا او خيبة أمل من جراء محاولاتي الفاشلة للامساك بها . ثم اني ، على العموم ، لست بالصياد الماهر ، بل أسر بالطريقة التي اصطاد بها أكثر مني بالنتيجة ، وأحب أن أراقب الطيور ، وأأمل أسلوب حياتها أكثر من أن احوز عليها وأملكها .

حقا ! ما أبهى واحلى ان تجلس وحيدا الى حافة حقل يعج بالثلج ويموج ، ترهق السمع الى مناغاة الطيور في سكون أيام الشتاء البلورية ، في حين يرتفع ، في الافق البعيد ، رنين أجراس « تروিকা » تعبر الطريق ركضا ، تلك هي قبرة الشتاء المحزن الكئيب تغني . . .

وجمعت شبكي واقفاصي ، عندما احسست بالقشعريرة تخترق العظم مني ، والصقيع يدب الى أذني ، وتسلفت السور المضي الى حديقة جدي ، ومضيت مسرعا في اتجاه الدار . كانت البوابة مفتوحة ، وموجيك ضخم يتود من خلالها ثلاثة خيول أسرجت الى مزلة واسعة مغلقة . وكانت سحب كثيفة من اللهاث تتصاعد من الاحصنة ، والفلاح يصفر مرحا ، ولكن قلبني

انقبض على حين بفتة دون سبب واضح . سألته :

— بمن جئت الينا ؟

فاستدار ورمقني من خلف كتفه ، ثم قفز الى مقعده

— لقد جئت بالكاهن .

فلم يثر ذلك اهتمامي — اذا جاء الكاهن فلا ريب

زيارتنا ، بل زيارة بعض المستأجرين سوانا .

وصاح الفلاح ، وهو يهز عنان الجياد يحثها على

الفضاء برنين أجراسها :

— هيا ، اسرعي .

راقبتهم يبتعدون ، ثم أغلقت البوابة ، ودخلت الدار ... ولم أكد ابلغ
المطبخ ، حتى تناهى الى سمعي صوت امي العميق يرتفع في الغرفة المجاورة :

— حسنا ، ماذا انت فاعل الان ؟ ربما ترغب في الاجهاز على ، اليس

كذلك ؟

فالتفت بالانقاص ارضا ، واسرعت الى الممر دون أن أخلع معطفي .

لكن جدي أمسك بي عند عتبة الباب ، وحملني في بعينين وحشيتين ، وبلغ
بصعوبة شيئا ما كان عالقا في حلقه ، ثم صاح بصوت أجش :

— لقد رجعت امك ... فاسرع اليها ! انتظر ! ..

وهزني بعنف بحيث لم اتمالك نفسي الا بجهد كبير ، ثم دفع بي ناحية

الباب ، وقال :

— ادخل ، ادخل !

أصطدمت بالباب ، ووقفت عنده لحظة مترددا حائرا ، ترتعش اصابعي

انفعالا وبردا ، فأعجز عن الوصول الى مقبض الباب والامساك به . وعندما

فتحت الباب اخيرا ، وقفت على العتبة مذهولا ، منعقد اللسان ، فهتفت امي :

— آه ، ها هو ذا ! يا للسما ! السم تعرفني ؟ ما هذه الثياب

التي برنذبها !... انظري الى اذنيه المتجمدتين بردا ! اعطيني شيئا من
الدهن - اسرعي ، يا اماء !

وانتصبت في وسط الغرفة منحنية فوقى ، تخلع عني ثيابي تجعلني ادور
امامها كالمحور . كان جسدها الكبير متدثرا برداء احمر ، ناعم ، دافئ ،
عريض كمعطف الرجال ، ذي صف من الازرار السود الكبيرة بمتد منحرفا من
الكتف حتى طرفه ... انا لم اشاهد قط مثل ذلك الثوب من قبل !

بدا لي وجهها اصغر منه قبلا ، وانصع بياضا ايضا . اما عيناها فقد
اتسعنا وازدادتا غورا ، وشعرها اضحى اكثر بريقا ذهبيا منه في اى وقت
اخر . . كانت ترمى بالثياب التي تخلعها عنى ناحية العتبة ، وشفتاهما
الحمراوان تنقبضان ازدراء ، وهى تقول في نفمة عاتية :

— حسنا ، لم لا تقول شيئا ؟ الست مسرورا ؟ تفو ، يا للقميص
الوسخ !

وفركت اذني بدهن الاوز ... آلمني ذلك ، ولكن تلك الرائحة المنعشة
اللطيفة التي كانت تفوح منها واستنى عن شدة الى وخففت منه . فالتصقت
بها ، وتطلعت عمقا في عينيها ، دون ان أقول شيئا لشدة اضطرابى
وانفعالى .

وسمعت جدتي تقول ، ردا على ملاحظات امى ، بصوت مهدد :

— لقد افلتت من كل رقابة ، ولم بعد يخاف حتى من جده ! آه ،
فاريما ، فاريما ...

— كفك عويلا ! ان كل شيء سيسير على ما يرام .

كان كل ما يحبط بى يبدو ، اذا ما قيس بوالدتي ، صغيرا ، هرما ،
بائسا ، لا بل خبل الى اني ، انا ايضا ، أداني جدتي المعجوز سنا وهرما .
وضمننى امى بقوة بين ركتيها . وطفقت تمسح على رأسي بيدها الدافئة :

— ان شعرك لفي حاجة الى المقص . . وقد حان وقت ذهابك الى
المدرسة . انريد ان تتعلم ؟

— لقد تعلمت كثيرا حتى الان .

— ما يزال هناك أشياء كثيرة يجب أن تتعلمها . لكن ، يا لك من أغنى
ذي بأس وحيلة .

وضحكت ضحكة غنية قوية ، وهي تلاعبني ...

ودخل الجد الى الغرفة ، غاضبا ، مشعث الشعر ، محبر العينين
.. فدفعني أمي بحركة بسيطة ، وسألت في صوت عميق :

— حسنا ! ماذا علي أن أصنع ، يا أبت ، أرحل ؟

فوقف قليلا الى النافذة يحك الجليد بإظافر يده ، دون أن ينطق بحرف
واحد . كان الجو خائفا ، متوترا ، فكأنه يرهف السمع بكل ذراته ، وهو على
استعداد للانفجار لدى أول صدمة . وامتلأ جسدي بأسره ، كما هي الحال
دوما في مثل هذه الحالات واللحظات ، عيوننا وأذاننا ، وتوسع صدري كثيرا ،
واحسست رغبة لا تقاوم في البكاء .

قال جدي ، في صوت يكاد يختنق :

— أخرج من هنا ، يا الكسي !

فمسألت أمي ، وهي تجرني نحوها ثانية :

— ولم يخرج ؟

— أنك لن ترحلي . أمنعك عن ذلك !

فنهضت والدتي ، وأخذت تمشي في الغرفة . ثم قالت ، وقد وقفت
وراء ظهره :

— اصغ ، يا أبت .

— أخرجني !

فعدت تقول بهدوء :

— أنني لا أسمع لك أن تصرخ في وجهي !

فصاحت الجدة ، وهي تنهض عن الأريكة وتهز أصبعها محذرة :

— فارغارا !

وغرق جدي يضعف في أحد المقاعد ، يجهجم بينه وبين نفسه :

— ما هذا ؟ من أنا ؟ ماذا تسمين ذلك ؟

وعلى غير انتظار ، طفق يزمجر كحيوان مثخن بالجراح :

— لقد جلبت على العار ، هذا ما فعلته ، يا فارغيا !

فقالت جدتي تخاطبني :

— اخرج من هنا .

مضيت حزينا الى المطبخ ، وتسلفت الموقد حيث بقيت فترة طويلة استمع الى ما يجري في الغرفة المجاورة — كانوا يتحدثون بحدّة مرة ، ثم يخيم عليهم الصمت مرة اخرى ، كانوا يتحدثون عن طفل ولدته امي وتركته في رعاية بعض الناس . ولكني لم انهم ما الذي يثير جدي الى هذا الحد ، اهو غاضب لان امي وندت بدون اذنه ام لانها لم تحمل الرضيع اليه ؟

واخيرا ، دلف الى المطبخ ، احمر اللون ، اشعث الهندام ، مضطرب البال ، منهوكا ، تأثره جدتي وهي تمسح الدموع المترقرقة على وجنتيها بطرف قميصها . وارتمى على كرسي ، معتمدا عليها بذراعيه ، منحني الظهر ، يعض شفتيه الشاحبتين . وجثت الجدة على ركبتيها بالقرب منه ، وهي تقول بصوت حار خفيض :

— اغفر لها ، يا ابتاه ! محبة بالمسيح ، اغفر لها ! ان لكل حصان كبوة ، وهناك كثيرات غيرها زللن . او لا تحدث مثل هذه الامور بين النبلاء ايضا ، وحتى بين التجار كذلك ؟ انظر الى المرأة فيها واغفر لها ، فليس احد منا معصوما عن الرذيلة . . .

فاستند الى الجدار ، يحملق في عينيها ، وهو يردد ناشجا :

— اوه ، نعم ، بالطبع ! لم لا ؟ انت على استعداد لان تسامحي كل انسان وكل شيء . تفو ! تبأ لسك ؟

ثم انحنى نحوها ، وأمسك بها من كتفها ، وراح ينهرها والكلام يسيل
همسا من بين شفتيه :

— ولكن ، ماذا تقولين عن الله ؟ انه لا يغفر كل شيء ، اليس كذلك ؟
ها نحن اذلاء على حافة القبر ، وهو ينزل العقاب بنا . لقد بلغنا ايماننا
الاخيره فإذا بها فارغة من السلام ، والفرح ، ومن كل ما كنا نطمح اليه . . .
سنموت شحاذين ، تذكرى كلهايتي ، شحاذين معدمين !

فأخذت جدتي يده في يدها ، وجلست بالقرب منه ، وضحكت بهدوء :

— وما أهمية ذلك ؟ ولم كل هذا الخوف من أن تكون شحاذاً ؟ اذن ،
سنصير شحاذين ، وتستطيع انت أن تبقى في البيت ، بينما أخرج أنا
لاستجدي . . . ولن نعيش جائعين عريانين ، فكناك تعذب نفسك بمثل
هذه الاوهام !

ونفخ بمنخريه فجأة ، ونطح الهواء برأسه كالتيس ، ولف ذراعه حول
عنق جدتي ، والتصق بها ، صغيراً ، رثاً ، بالياً ، وقال مأثوها :

— أيتها الحمقاء ، أيتها الحمقاء اللعينة ! انت الانسان الوحيد الذي
بقي لي على الارض . انت لا تأسفين على شيء أيتها البلهاء ، لأنك لا تفهمين
شيئاً تذكرى فقط ما عملنا من أجل اولادنا ! أفلم ارتكب المعاصي في سبيلهم ؟
والان ، في النهاية ، ماذا فعلوا لنا ، لو انهم يردون لنا شيئاً يسيراً مهما
عملته من أجلهم . . .

وهنا لم اعد أحتمل مزيداً ، فقفزت عن الموقد وأنا أتصعب عرقاً ودمعاً ،
وركضت اليهما ، وأنا أبكي فرحاً لأن أمي قد عادت ، ولأنهما تبادلوا هذه
الكلمات اللطيفة الجميلة ، أسفاً لأنهما سمحا لي بمشاركتهما أحزانهما عائقاني
ودلاني ، واغرقتاني في دموعهما ، وهمس جدي في أذني كمن يعتذر :

— هأنذا هنا ايضاً ، أيها الوجد الصغير ! انك لن تحتاج الي بعد
الان ، بعد عودة أمك ، أنا ، جدك ، الشيطان الهرم ، اليس كذلك ؟ حتى ولا
جدتك ، تلك المعجوز التي لا تعرف شيئاً سوى تدليك واغسادك . الا تبالك !

وأبعدنا عنه بإشارة من يده ، ثم نهض واقفا وقد تما لك نفسه . . .

صاح غاضباً :

— الجديع ينركوننا ! وكل بذهب في الطريق الذي يريد ، لا يعرف الا
مصلحته الخاصة . . حسنا ، نادوها ، اسرعوا !

فغادرت جديي المطبخ بسرعة ، بينما انحنى جدي ناحية الايقونات ،
وهو يهمهم منحني الرأس :

— ايها الرب الغفور — هل نرى ماذا افعل ؟ هل ترى ؟

وخرب صدره بقبضة يده بعزم ، فكان لذلك زنين قوي لم احبه . فكنيت ،
على المصوم ، ابغض تلك الطريقة التي يخاطب الله بها . . كان ابدا يتباهى
وبفخر بشيء ما . . . وجاءت امي ، فمالت الغرفة بوجودها الذي كنت اثناقه
وجلست الى الطاولة على الدكة بين جدتي وجدي ، وكان ثوبها العريض
ينحدر عن كتفيها ، وراحت تروي لهما بهدوء ووقار قصة ما ، وهما يصفيان
اليها في صمت وسكون . كانا يبدوان بالنسبة اليها ، فكانها هي الام وهما
ولداهما !

كنت مضطجعا في السقيفة ، فسرعان ما استسلمت ، منهوك القوى من
حوادث النهار ، للنوم الذي طغى علي بسرعة . . .

ارندى الشيخان ، ذلك المساء ، ثيابهما الفاخرة ، ومضيا لحضور
مسلة الغروب . غمرتنا جدتي جذلانة لتلفت انبأها الى جدي الذي كان
بنالقي في بزة رئيس نقابة الصياغين المؤلفة من سروال مخملي ومعطف من
جلد السنور ، تم همست في اذن امي كمن يكشف سرا :

— انظري الى ولدك ، يا له من تيس صغير :

فضحكت امي في غبطة . . .

وعندما خلوت وايها في غرفتنا ، جلست على الاركة وقد ثنت احدى
ساقها تحت جسدها ، ونادتني ، وهي تنقر باصبعها على الاركة المجاورة لها :

— تعال ، تعال واجلس الى جنبي . حدثني كيف عشت حياتك ؟ حياة
رديئة ، اليس كذلك ؟

ترى ، كيف كانت الحياة ؟ لست ادري ! . . .

— أيجلدك جدك ؟

— لم يعد يجلدني كثيرا .

— صحيح ؟ حسنا ، حدثني عن كل ما نشاء ، هيا . . .

لم احس شوقا الى الحديث عن جدي ، فرحت اروي لها ان رجلا لطيفا جدا سكن الغرفة التي نحن فيها الان ، وكيف لم يحبه احد من سكان الدار ، وكيف طرده جدي آخر الامر . وبدا لي ان تلك القصة لم ترق لوالدتي الذي قالت :

— حدثني عن أمور أخرى .

فحدثتها عن الصبية الثلاثة ، وكيف طردني الكولونيل من ساحته .

قالت ، وهي تحتضني :

— يا له من رجل خسيس !

واستكانت نفسها ، فراحت تتأمل الارض بنظرات من عينين ضيقتين ، وهي تحك رأسها . . . سالتها :

— لماذا ينقم جدي عليك ؟

— انا مذنب في نظره .

— كان يجب ان تحملي الطفل اليه . . .

فجفلت ، وقطبت جبينها ، وعضت شفتها ، ثم اطلقت ضحكة عالية . . . قالت ، وهي تحتضني ثانية :

— ايها الطفل الصغير ! اياك ان تتفوه بآية كلمة عنه مرة أخرى ، اتسمع ؟ ولا كلمة — بل اياك ان تفكر في ذلك على الاطلاق .

وظلت ، بعض الوقت ، تتفوه بكلمات هادئة ، جافة ، مبهمة ، لم اع منها شيئا ، ثم نهضت تذرع الغرفة ذهابا وحيثة ، وهي تنقر بأصابعها على ثغرها ، وتحرك حاجبيها الفليظين .

كانت شمعة تحترق على الطاولة ونذوب ، فتنعكس خيالاتها في
المرآة ، بينما ظلال وسخة ترنح على الأرض ، والتفديد الازلي يلتهب في .
زاوية الايقونات ، والنافذة المغطاة بالجليد تضئ في ضوء القمر بلمعان مخي
براق . واجالت والدتي ناظريها حولها ، كما لو كانت تفتش عن شيء في
الجدران الفارغة والسقف العالي ، ثم سألت :

— متى تذهب الى فراشك ؟

— بعد قليل .

فأجابت ، وهي تنتهد :

— هذا صحيح ، لقد غفوت قليلا بعد ظهر اليوم .

سألها بعد قليل :

— اترغبين في الرحيل ؟

فأجابت في دهشة :

— الى أين ؟

ثم رفعت رأسي ، وحملت طويلا في عيني بحيث لم استطع ادموعي
احتباسا ...

— ما بالك ؟

— ان رقبتي تؤلني .

ولكن قلبي كان أكثر ايلاما ، فقد أدركت انها لن تستطيع العيش في ذلك
البيت طويلا ، بل ستفادره حتما مرة أخرى .

قالت ، وهي تلعب بطرف المسجادة بقدمها :

— انك ستغدو شبيها بوالدك في يوم ما . هل حدثتك جدتك عنه ؟

— نعم . .

”لقد كانت تحب مكسيم كثيرا . كانت مغرمة به . وكان ، هو الآخر ، مولعا بها .

— انا اعلم ذلك .

والقت نظره على الشمعة ، وعبست ، ثم نفخت على الشمعة الضئيلة فاطفأنها . . . وما عنمت ان قالت :

— هذا افضل .

كان ذلك افضل من دون ريب ، فقد بدت الغرفة اكثر وداعة ونطافة عندما خمد النور . وجلت شعاعات ضوء القمر الزرق محل الاخيلة الوسخة على الارض . بينما طفقت شرارات ذهبية تتمايل على زجاج النافذة وتراقص كريشة في يد انسان .

— اين كنت تعيشين قبل مجيئك الى هنا ؟

فذكرت اسماء بلدان عديدة ، وكأنها تستعيد في ذاكرتها ماضيا سحيقا غابت حوادثه عن بالها منذ زمن بعيد ، وهي تدور طوال الوقت في الغرفة كطائر حبيس ليس يدري افلاتا ، ثم سألت :

— من اين حصلت على هذا الرداء ؟

— صنعتته بنفسى . انى اصنع كل شيء بنفسى .

كنت اسر للغاية حين اراها تختلف عن الجميع ككل الاختلاف ، فلا يؤسفني منها الا قلة حديثها ، فهي لا تتكلم الا كي تجيب على اسئلتى .

وجلست ، مرة ثانية على الاريكة قربي ، وبقينا هكذا طويلا صامتين ، ملتصقين ببعضنا بشدة حتى رجع الشيوخان من الصلاة تفوح منهما رائحة الشمع والبخور ، وتعلو وجهيهما سيماء الرقيق ، واللفظ ، والاكبار . . .

وكان العشاء احتفاليا ، يليق بحدث عظيم الاهمية ، لم نتحدث خلاله الا نادرا بتحفظ شديد ، فكاننا نخاف ايظاظ شخص عزيز من نومه الحفيف الذي استسلم له . . .

ولم تمض ايام قليلة حتى اخذت والدتي على عاتقها مهمة ثقافتى

« الدنيوية » فابنعت لي بعض الكتب ، كان احدها «مبادئ القراءة الروسية» الذي تعلمت فيه ؛ خلال بضعة أيام ، حروف الهجاء المستعملة في غير الكتب الدينية . لكن امي كانت نريدني حفظ الشعر عن ظهر قلب ، فكان ذلك بدء عذاب مشترك لنا نحن الاثنين .

وهذه هي اول المقطوعات الشعرية التي كان علي أن احفظها :

« طريق تهب عليها الرياح ،

تجوز الحقول ودور البشر !

وما كسر الناس الحجارة فيها

ولكن حوافر خيل تمر » .

كنت ، كلما تلوتها ، اقول « النباح » عوضا عن «الرياح» ، و «الكأس» عوضا عن « الفأس » و « حوافر » عوضا عن « حوافر » . . . فتحتج والدتي بقولها :

— ولكن فكر قليلا ، كيف يمكن ان يهب « النباح » ، أيها الغبي ؟
قل « الرياح » ، هذا ما يجب ان تقول !

فهمت ذلك ، ولكنني ظللت اقول «النباح» اثناء تلاوة الدروس ، فتغضب والدتي غضبا شديدا ، وتلقبني بالعنيد الغبي ، فأجد هذه الكلمات قاسية جارحة ، وأروح احاول جهدي الا اخطئ اللفظ مرة أخرى . . . وكنت ؛ كلما رددتها في قلبي ، لا انطىء فيها أبدا ، ولكن لا أبدا بتلاوتها بصوت عال حتى اخلط بين الكلمات من جديد . وابتدأت أخيرا اكره ذلك الشعر المقيت فشرعت اشوّهه عمدا ، بأن اجمع عددا من الكلمات التي لها نفس النغمة الى بعضها البعض ، واغتبط عندما تفقد تلك الاشعار بذلك كل معنى لها .

ولكن تلك التسلية كلفتني غاليا ، فقد سألتني والدتي ، ذات مرة ، في نهاية احد الدروس ، ان اسمعها تلك الابيات . فمرحت اغغمم غاليا دون تصد أو وعي مني :

« على الطريق الطويلة ، السهلة ، الهزيلة ،
لا كاس ، ولا طاس ، ولا ناس ، ولا راس ! . . . »

وما أدركت ما أنا فاعل إلا بعد فوات الوقت : فقد نهضت أمي ، وهي
تعتمد يديها على الطاولة . . . سألت . وهي تلفظ كل كلمة على حدة :

— من أين جلبت كل هذا ؟

فأجبت . وقد سيطر علي رعب شديد :

— لست أدري صدقيني : لست أدري .

— أوه ، بل أنت تدري ، أخبرني !

— لقد قلت ذلك عرضاً .

— لماذا ؟

— لمجرد المنسلية .

— امض الى الزاوية !

— أية زاوية ؟

لم تجب ، ولكنها رمتني بنظرة افقدتني صوابي تماماً ، فلم أعد أدري
ما أفعل ، وماذا يريد مني أن أفعل . . كانت في زاوية الايقونات طاولة
مستديرة تحمل اناء يفيض بزهور جميلة وأعشاب مجففة ، وفي زاوية أخرى
تقوم دكة عليها سجادة صفراء ، في حين يشغل الزاوية الثالثة أحد الاسرة .
أما الزاوية الرابعة والآخرى التي يقوم فيها الباب فغير موجودة على الإطلاق
. . . قلت ، وقد بدا البأس على :

— لست أدري ما تريد مني أن أفعل !

فغاصت في أحد المقاعد وهي تحك ، جفنيها وخديها :

— ألم يأمرك جدك أبداً بالوقوف في الزاوية ؟

— متى ؟

فضربت الطاولة بقبضة يدها مرتين ، وصاحت :

— في يوم من الايام !

— كلا ! لا اذكر ذلك مطلقا

— الا تعلم ان الموقوف في الزاوية عقاب ؟

— كلا ! ولماذا يكون عقابا ؟

فصاحت بصوت اشد ارتفاعا :

— تعال الي !

فسألته بعد ان مضيت اليها :

— لماذا تصيحين في وجهي ؟

ولماذا تتعمد تشويه الاشعار التي احفظك اياها ؟

فرحت اشرح لها ، بكل ما اوتيت من قوة ، انني اتذكر القصيدة كما
مكتوبة عندما اغلق عيني ، حتى اذا جربت القاءها بصوت عال ، صد
مني كلمات اخرى دون ارادتي ، فسألت بهدوء نسبي :

— الست تسخر مني الان ؟

فأقسمت انني صادق ... ثم رحت ، على الفور ، اتساءل ان
صادقا ام لا ! .. وعلى غير انتظار ، اخذت اتلو الابيات بتؤدة ، فاذا
لا اخطىء فيها ابدا ، الامر الذي ادهشني وسحقني في وقت واحد . احس
بوجهي يتورد ، وبأذني تلتهبان وتمتلئان دما ، وبطنين مزعج يدوي ؛
دماغي ، ووقفت هكذا تجاه امي وقد اهلكني الخجل الشديد ، ارى -
خلال دموعي - وجهها يسود اسفا وكما ، وحاجبيها ينخفضان وش
تطبقان ...

سألت ، في صوت عال مرة اخرى :

— ما معنى ذلك ؟ يبدو انك كنت تتعمد ذلك فعلا !

— لست ادري ... لم اكن اقصده . .

فقالت ، وهي تهز راسها :

— ما اصعبك ! اخرج من هنا !

وراحت تطلب مني ان احفظ كل يوم قطعة جديدة من الشعر ،
فتزداد ذاكرتي تمردا ، بينما تتضاعف الرغبة في تحريف تلك الاسطر
الموزونة ، وينمو الشوق الشرير لاستبدال بعض الكلمات بغيرها وتشويهها .
وكنت اتوصل الى ذلك دون صعوبة ، فتهجم الكلمات الغريبة الى فكري
اسرا ، تأخذ - دون كلفة - مكان الكلمات الاصلية . وكانت حافظتي احيانا
ترفض استيعاب أبيات كاملة مهما بذلت من الجهد العنيد في سبيل ذلك - مثلا:

« منذ الصبح وحتى هبوط الفسق ،

يمر - على الدرب - جمع طريق !

يستعطون شيئا باسم المسيح !...»

فكنت انسى الشطر الثالث منها على الدوام واستبدله بـ :

« ويودون خبزا يسد الرمق » .

وتفقاظ أمي لهذا الانكفاء في ذاكرتي فتلجأ الى جدي تحدثه بالامر ،
فتبوجه البها هذا قائلا في غضب :

- خبيث ، شيطان ، يفعل ذلك عمدا . انه بعرف جميع الصلوات
احسن مني ، وله ذاكرة كالبحر ، اذا اندثر فيها شيء لم يقتلع منها أبدا .
يجب ان تجلديه !

وجاءت جدتي تثني على رأيه :

- انه يتذكر القصص والخرافات جيدا ، وكذلك الاغنيات والاعانسي
الشعرية ، اليس كذلك ؟

كان كل ذلك صحيحا لا مرأى فيه ... شعرت اني الملموم ، ومع ذلك
كنت كلما أبدا في حفظ قصيدة جديدة تأخذ مفردات أخرى تدب كأسراب من
الصراصير ، وتصطف من ذاتها الواحدة تلو الأخرى في أبيات أكثر أو أقل
تناسقا :

« يأتي الى بيتنا في الصباح !

أناس كثيرون ينتظرون ...

بصلون ... ويبتهلون

ويبكون مثل زئير الرياح !

وكننت اعيد على جدتي ، عندما ارقد الى جانبها ليلا في السقيفة ،
كل ما علق بذهني من دروس ذلك النهار ، وكل ما نفتقت عنه مخيلتي من
ابداع خاص ، فتضحك أحيانا ، وتزجرني أحيانا أخرى بقولها :

— أرايت ، انك تستطيع ان تفعل ما تريد حين تريد ! ولكن ، يجب
عليك الا تهزا بالفقراء لان الله معهم ... ان المسيح نفسه كان فقيرا ،
وكذلك بقية القديسين .

فاجيب متمتما :

— « انني أبغض الفقراء ،

وابغض ايضا جدي !

فاغفر لسي يا ربي !...»

انظر في الهواء ،

لاسر من عنق جدي ،

ام انسوي في جب ؟!... »

قالت بحدة :

— لبت لسانك يقلع من جذوره ، ايها الوقح الشرير ! ماذا يحدث لو
سمع جدك هذا ؟

— فليسمع ...

فراحت ترجوني بلطف :

— لماذا تظل بضايق امك المسكينة هكذا ؟ يكفها ما تعانيه الان حتى
تزيد الطين بلة بخبك ...

— وما نوع همومها ؟

— اخرس ! انك لا تستطيع ان تفهم مثل هذه الامور !

— انا اعرف ان جدي ...

— لقد امرتك ان تخرس !

كنت تعيسا يطفح قلبي بشعور اقرب ما يكون الى اليأس ، فأريد — لسبب اجهله — كتمان ذلك الشعور وعدم اظهاره ، فلا ازداد الا جراحة ووقاحة وتمردا ! وتكاثرت دروس والدتي واشتدت صعوبة على مر الايام . لم يكن يعسر علي فهم الحساب ، وان كنت بالمقابل لا اطيق الاملاء ولا افقه معنى لقواعد اللغة . والذي كان يغيظني اكثر من كل شيء اخر هو الشعور بشقاء والدتي وادراك بؤسها في دار ابوها . كانت تزداد تجهما يوما بعد يوم ، فتهم عيناها وراء شيء غريب ، بعيد ، غير منظور ، او تجلس الى النافذة ساعات طويلة تحلق الى الخارج في صمت وسكون ، تتراءى لي حين اشخص لها انها نذبل شيئا فشيئا وتتلاشى . لقد كانت ، في الايام الاولى بعد وصولها ، سريعة الحركة ، تطفح نشاطا واندفاعا ، أما الان فقد تربعت دائرتان سوداوان تحت عينيها ، واصبحت تقتصر من ظهورها بيننا ؛ فتقتضى النهار بطوله في قميص طويل اشعث غير مبكّل الاضرار ، دون ان تسرح شعرها او تصفقه . . . وكان يحز في قلبي ان اراها على هذه الحال من الاهمال ، هي التي كانت بالنسبة لي دوما حسنة جميلة ، بل كنت اشعر انها اجمل انسان في الوجود كله .

وفي اوقات الدروس كانت لا تنظر الي ، بل تثبت نظرها في الجدار ، او تبعث به من خلال النافذة ، وتطرح على الاسئلة في صوت متعب منهوك . بدون مبرر ، الامر الذي كان يحزنني ويجرح مشاعري ، فتصيح في وجهي دون انقطاع ، الامر الذي كان يؤلني ويجرح مشاعري . ان من واجب الام ان تكون عادله ، اعدل من بقية الناس ، مثل الامهات في قصص جدتي الخرافية . . . وكنت ، في فترات متتاليات ، اسألها :

— الست سعيدة بيننا ؟

فتجيب بحدة :

— هذا لبس من خصوصياتك . اهتم بشؤونك الخاصة .

وكنت ارى ايضا ان جدي يهوى امرا تخافه جدتي وامى . وكثيرا ما كان يقفل الباب على امي وعلى نفسه في غرفتها ، حيث بتناهى الى سمعي زعيقه اشبه بصفرات آلة الراعي نيكاتور الخشبية المخوفة . . . وقد صاحت امي ، في احدى هذه المناسبات ، بصوت عال جدا سمعه جميع من في البيت :

— هذا لن يكون ابدا ، أبدا !

واغلقت الباب بشدة ، فشرع جدي يعوي ...

كان الوقت مساء ، وجدتي جالسة في المطبخ تخطط لجدي قميصا ، وهي تغغم بينها وبين نفسها بكلمات مبهمه غير مفهومة . وعندما اغلق الباب بشدة ، ارهفت سمعها وهي تصيح :

— آه ، يا الهي ! ماذا حدث ؟

وفجأة ، اندفع جدي داخل المطبخ ، وتوجه مباشرة الى زوجه يلطمها على راسها ، ويكز بأسنانه ، ويزعق وهو يحمل يده الجروحة :

— متى تتعلمين ضبط لسانك ، أيتها الساحرة العجوز ؟

فأجابت بهدوء ، وهي تعيد ترتيب شعرها :

— يا لك من احمق ! أعتقد انك ستعلمني ضبط لساني عن الكلام ؟

تأكد أنني سأطلعها على كل شيء اعرفه من مشاريعك وخططك ...

نرمى بنفسه عليها ، وأنهال على رأسها ضربا مبرحا وهي ساكنة ، لا تقاوم ابدا ، ولا تجرب ان تدفعه عنها ، بل تردد بعناد :

— هيا اضربني ، ايها الاحمق ! اضرب ، اضرب ...

ورحت أنا ارميه ، من على السقيفة ، بالوسادات والاحزمة والاحذية ، وكل ما طالته يداي ... ولكنه ، وقد اعماه الغضب ، لم ينتبه لشيء من ذلك مطلقا . وسقطت جدتي على الارض ، فاستمر يرفسها على رأسها حتى تعثر وسقط على الارض ، راميا معه سطلا من الماء . وسرعان ما نهض وهو يبصق ، ويتلفت يمنة ويسرة قبل ان يندفع خارج المطبخ مسرعا الى غرفته في الطابق العلوي . ونهضت جدتي بدورها وهي تتأوه وتئن ، وجلست على الدكة ، وراحت تعلق الدبابيس في شعرها المشعث ... اما أنا فقفزت عن السقيفة الى الارض ، وما كادت تراني حتى صاحت في غضب :

— اجمع هذه الوسادات والاشياء الأخرى ، وارجمها الى مكانها فوق . جميل والله ان ترمينا بكل هذه الاشياء هكذا ! قلت لك الف مرة لا تهتم بما

لا يعنك ... وذلك الشيطان الهرم . ما باله قد نقد عقله على هذه الصورة الوحشية ؟

وعلى حين غرة ، نددت عنها صرخة خافنة ، وتغضن وجهها ، ونادتنى وقد احنت رأسها ودلتنى باصبعها :

— انظر هنا ، ما الذي يؤلمنى بكل هذه الشدة ؟

فرمعت شعرها الثقيل افنش فيه حتى عنرت على دبوس غارز في فروة رأسها . سحبتة ، فوجدت دبوسا آخر ... وهنا شعرت بالضعف يجتاح جسدى بكامله ، فقلت :

— يحسن ان انادي امي ، انا خائف !

فصاحت ، وهى تلوح ببدها :

— ماذا تقول ؟ تنادي امك ؟! اشكر الله لانها لم تر ذلك او تسمعه ، وانت تريد ان تناديها ! اخرج من هنا !

وراحت نبحث بأصابع مطرزه ماهرة ، عن الدبابيس المدمونة في شعرها الكثيف الرائع . وجمعت شجاعتي وقواي ، واعنتها في سحب دبوسين آخرين من جلدة رأسها .

— ايؤلك ذلك ؟

— قليلا ! سأستحم غدا وأغسل الالم كله .

ثم راحت تملقنى بحنان :

— لكن ، اباك ان تخبر امك بما حدث لى : ابها العصفور الصغير ...
يكفى ما هي فيه . انت لن تخبرها ، اليس كذلك ؟

— كلا !

— حذار ان تنسى وعدك ! والان ، فلترتب كل شئ معا . اتسطيع ان ترى شيئا ما على وجهى ؟ كلا ؟ هذا حسن ! ان ما حدث سيظل سرا بيننا .

وبدأت تمسح الارض ، فقلت من صميم قلبى :

— انت قديسة . يعذبونك ويضربونك ولا نلقين البهم بالا .

— ما هذا الهراء ؟ قديسة يا له من مكان جميل للبحث فيه عن قديسة !

ظلت تغمغم طويلا وهي تزحف على يديها وركبتيها ، بينما قبعت انا على عتبة الباب ابحث عن طريقة انتقم بها من جدي على تصرفه ذلك المساء ... كانت هذه هي المرة الاولى التي يقسو فيها جدي علي جدتي حتى تلك الدرجة ، في حضوري على الاقل ... فرحت أتصور ، في ظلمة الليل ، وجهه الملفوح المتأجج ، وشعره الاحمر يتموج حواليه . كان قلبي يحترق غيظا وانا ائنالم لعجزي عن تصور الانتقام اللائق .

وبعد يومين ، دخلت غرفته في الطابق العلوي لسبب ما ، فوجدته متريعا على الارض ، مكبا على صندوق مفتوح يعبث فيه ببعض الاوراق ، وقد وضع على كرسي بالقرب منه تقويمه الكنائسي الذي يحبه كثيرا ، وهو مؤلف من اثني عشرة ورقة من اللون الباهت السميك قسمت الى مربعات بعدد أيام الشهر ، وفي كل مربع منها صورة لوجه القديس الذي يوافق عيده ذلك النهار . كان جدي يقدر ذلك التقويم ويحرص عليه كثيرا ، فلا يسمح لي باللقاء نظرة عليه الا في حالات استثنائية نادرة ، عندما يكون راضيا عن عملي او سلوكي . وكنت آمن النظر في تلك الملامح الصغيرة الباهتة الجذابة ، وعاطفة غريبة تتأجج في صدري . كنت أعرف سيرة حياة بعضهم : كريك واوليتا ، والشهيدة فارفارا ، وبندلامون ، وغيرهم ايضا .. وكنت أحب ، بصورة خاصة ، قصة القديس الكسي ، رجل الله ، وكذلك تلك الاشعار الرائعة التي غالبا ما كانت جدتي تتلوها وتلحنها على مسمي بنغمة خاصة تهز مشاعري . كنت انظر الى هؤلاء الشهداء احيانا ، فاتعزى حين أفكر ان بعض الناس ، في كل عصر ، قد اضطهدوا من أجل ايمانهم ...

غير انني قررت ، في تلك اللحظة بالذات ، ان أمزق ذلك التقويم . فوقفته اترقب الفرصة ، حتى اذا مضى جدي الى النافذة يقرأ في ورقة زرقاء مزينة برسوم مختلفة ، أسرع فاختطفته ثلاث وريقات من ذلك التقويم ، ثم وليت الادبار حتى المطبخ حيث تناولت القصص من على طاولة جدتي ، وتسليقت السقيفة وشرعت أقص رؤوس القديسين . ولم اكد اطيع بأول صف منهم حتى حز في قلبي اتلافهم على هذه الصورة ، فشرعت أقص الورق على مستوى الخيوط التي تفصلها الى مربعات . ولم اكد انتهني من قص السطر الثاني حتى ظهر الجد على عتبة الباب ، وقال :

— من سمح لك ان تسرق التقويم ؟

وعلى غير انتظار ، لمح المربعات الصغيرة مبعثرة على الارض ،
هاختطفها ورمقتها طويلا ، ثم رماها والتقط سواها ، حتى اذا أدرك ما حدث
ارتعش فكه ، وارتجفت لحيته ، واشتد تنفسه بحيث اطاح بالاوراق تطير
في الهواء .

— ماذا فعلت ايها الشقي ؟

وقف اخيرا ، واخذ يجذبني من قدمي عن الموقد ... ولكني أفلت
منه ، وقفزت في الهواء ، فالتقطتني جدتي بين ذراعيها ...

صرخ ، وهو يكيل الضربات لجدتي ولي ايضا :

— سأقتل ... !

وظهرت والدتي فجأة ، فوجدت نفسي في الزاوية وهي تقف أمامي
تحببني ...
صاحت ، وهي تجرب ان تصد سيل اللكمات التي تنهال من قبضتي
جسدي :

— ماذا تفعل ؟ عد الى صوابك !

فتهالك جدي على دكة قرب النافذة يقول ، وهو ينتحب :

— لقد قتلتموني ، جميعكم ضدي — كلكم !

فجاء صوت أمي الخافت الضعيف :

— الا تخجل من نفسك ؟ انت أبدا تسخر من الجميع بتمثيلك هذا !

فابتدا يصرخ ، ويرفس الدكة بقدميه ، وقد أغلق عينيه بشدة ،
وارتفع رأس لحيته نحو السقف بشكل يبعث على السخرية ، وبدا لي انه خجل
حقا من ذلك الدور الذي مثله بحضور أمي ، وان هذا ما جعله يفلق عينيه
... قالت أمي تهديء من روعه ، وهي تلتقط الاوراق المبعثرة :

— سألصق لك هذه القطع الى بعضها على قطعة من القماش ...
فيصبح التقويم أحسن مما كان عليه واكثر مثانة . انظر اليه ، لقد اهترا

ونعزق هذا البقويم . ولم يعد ينفع مطلقا .

كابت تحدنه بنفس اللهجة التي ننوجد بها الي عندما كا نيمى علي
نهم ثرحها . لكن المجد نهض فجاءه ، واصلح من وضع تميصه
وصدرينه بترو زائد واحتيال عظيم ، نم سمل ، وقال :

— عليك بالصاق هذه الاشياء اليوم بالذات . سأجيك ببغية الاوراق
الباقية عتدي .

وانجه الي الباب ، ولكنه اسندار على العتبة وقال ، وهو يهز اصبعه
المعوج مشيرا الي :

— أما هو فيسأهل الجلسد !

فوافقت أمي بهزة من رأسها وقالت :

— نعم ، لا ريب في ذلك .

ثم سألتني ، بتمهل :

— لماذا فعلت ذلك ؟

— فعلت ذلك عمدا . واذا هو ضرب جدتي ثانية لاقطعن له لحينه

فهزت جدتي رأسها ، وهي تخلع قميصها الممزق ...

قالت ، وهي تبصق باشمئزاز :

— كان يجب ان تمنع لسانك عن الكلام كما وعدتني . ليت هذا اللسان
ينقطع حتى يكف عن الرثرة بكلام بذيء !

فرنت أمي اليها ، ثم استدارت الي ، وسألت :

— متى ضربها ؟

فقاطعتها جدتي ممانعة :

— الا تخجلين ، يا غارقارا ، اذ تطرحين على طفل صغير مثل هذه
الاسئلة ؟ ذلك ليس من شأنك !

فمساحت أمي ، وهي سعانقها بحرارة :

— آه ، اماء ، ايتها الحبيبة !

— هم ، يا لها من أم ممتازة بالنسبة اليك ! هيا ، دعيني اذهب ...
ونظرت كلتاها الى الاخرى لحظة في صمت ، ثم مضت كل منهما في
سبيلها ... وكنت استطيع ان اسمع الى بجدي يروح ويجيء في الممر ويتمشى
بعدم استقرار .

...

نصابت أمي ، منذ اليوم الاول لوصولها ، مع زوجة الضابط اللطيفة ،
وامست نزورها كل مساء تقريبا . وهناك كانت تلتقي ببعض آل بيتلينغ —
زمرة من السيدات الجميلات ، وفريق من الضباط الشجعان . ولكن ذلك
لم يرق لجدي ، فكان يلوح بملعقته دوما في اتجاههم ، وهو مكب على
الاكل في المطبخ ، ويقول معلقا بتأفف :

— انهم يحيون حفلة اخرى الليلة ، لعنة الله عليهم ! هذه ليلة ثانية لن
اجد للنوم سبيلا فيها .

وما أسرع ما طلب الى الجيران اخلاء الشقة . ثم جلب بعد رحيلهم ،
من مكان لا يدري به أحد ، شحنتين من الاثاث البالي العتيق ، ووزعه في
الجناح الفارغ ، واحكم قفل الباب ، وهو يقول :

— اننا لن نحتاج الى اولئك المستأجرين بعد اليوم ، بل انا الذي
سأستقبل الضيوف من الان فصاعدا .

ولم يكد يوم الاحد يطل حتى شرع الزوار يتوافدون علينا . وكانت من
بينهم أخت جدتي ، ماتريونا ايفانوفنا ، وهي غسالة عريضة الانف ، كثيرة
الجلبة ، ذات شعر ذهبي ، تلبس رداء من الحرير مخططا ... وكان
يصحبها ولداها : فاسيلي ، وهو رسام شاب ، لطيف المعشر ، طيب
القلب ، طويل الشعر ، يلبس رداء رماديا ، وفيكتر ، وهو فتى ذو رأس
كرأس الحصان ، ووجهه صغير تفطيه بقع كبيرة من النمش ، لم يكد يبلغ المشي
— حيث شرع ينزع عنه معطفه — حتى وصل الى اذني صفيحه وترنمه بهذه
الكلمات :

— اندريه — بابا . . . اندريه — . . .

فادهشني منه ذلك وارعبني في الوقت ذاته دون ان ادري

سببها . . .

وجاء الخال ياكوف ايضا يحمل قيثارته ، يصحبه ساعاتي الرأس ، أعور ، يرتدي معطفا طويلا اسود اللون يجعله على هيئة الرهبان . وكان يقبع في احدى الزوايا يبتسم ، وقد أمال رأسه واستند الحليقة المتشققة الى أصبع واحد ، يتطلع بعينه الوحيه كل شيء حوله بحدة خاصة ، قليل الكلام ، يردد على الدوام هذه الجمل

— أرجوك ، لا تتعب نفسك ، فكل شيء سيان . . .

عندما تطلعت فبا ، للمرة الاولى ، تذكرت بغتة ذلك الزمن (وكنا ما نزال نعيش في شارع نوافيا) عندما سمعت الطبول تقرر بالشر والويل في الطريق المعام ، ورايت عربة سوداء عالية ، يحيط بها والناس ، تتحرك منحدره من السجن حتى الساحة العامة ، وقد فيها ، على دكة صغيرة ، رجل يقطي رأسه بقبعة مستديرة ويسداه . بسلسلة من الحديد تصعد اصواتا غريبة كلما مشى . . . وكانت لوحة سودا . من عنقه ، وقد كتب عليها شيء ما بأحرف بيضاء كبيرة ، انحنى رأس عليها فكانه يقرأ المكتوب فيها . . .

— هوذا ولدي !

قالت امي ذلك ، وهي تقدمني الى الساعاتي ، ولكنني نفرت الى مذعورا ، وقد شبكت يدي خلف ظهري . . . فقال هذا ، وقد انسح حتى اذنه اليمنى بطريقه مرعبة :

— أرجوك ، لا تتعب نفسك . . .

وامسك بي من حزامي ، وجرني اليه ، وادارني امامه بحركة سه ماهرة ، ثم قال ، وقد أفلتني :

— انه في صحة جيدة ، انه قوي !

واتخذت مجلسي على متعدد من الجلد يتسع للرقاد فيه — وكان

يفتخر دوما بأن ذلك المقعد قد خص الأمير روزينسكي فيما مضى من الأيام -
ورحت أراقب من تلك الزاوية كيف يجرب الكبار عبنا أن يمرحوا ، وكيف
تتبدل تعابير وجه الساعاتي دون انقطاع ، الأمر الذي أثار استغرابي
وارتيابي . . . كان يبدو أن وجهه النحيل ، المكسو بالشحم ، يلين كالشمع
الاصفر ويذوب ، فإذا ابتسم الرجل انحرفت شفتاه الغليظتان إلى اليمين ،
وانتقل انفه الصغير مثل قطعة صغيرة من اللحم المقدد في قاع صحن وسخ .
وكانت أذناه الكبيرتان المنفرجتان تتحركان بدورهما بشكل مثير للضحك ،
فترتفعان تارة مع حاجب العين السليمة ، وترتميسان تارة على الخديسين
المتعظمين فيخال لي أنه يستطيع لو أراد أن يغطي بهما أنفه .

وفي بعض الاحايين كان يخرج من فيه ، بعد أن يصعد زفرة عميقة ،
لسانا أسود ، صفيرا ، مدورا كالقرص ، فيرسم به عدة دوائر وهو يرطب
شفتيه الغليظتين المبللتين . . وجدت ذاك مدهشا أكثر منه مضحكا ، فلم استطع
أن أرفع عيني عنه أبدا .

تناول الضيوف الشاي ممزوجا بالروم الذي كانت تفوح منه رائحة
البصل المحروق ، واحتسوا ، فيما احتسوا ، الاثرية التي تهيؤها جدتي
والتي كانت ذهبية اللون ، أو خضراء ، أو سوداء معتمة كالحلة كالزمت . . .
واكلوا من معجناتها المشوية المغطاة بالقشطة ، كذلك بعض الكمك المزوج
بالمسل حتى انتفخوا ، وتصيبوا عرقا ، وراحوا يزفرون بشدة وهم يشكرون
جدتي على كرمها . وبعدها شبعوا ، جلسوا بتراخ في مقاعدهم ، وقد توردت
وجوههم وزهت ألوانها ، وراحوا يسألون الخال ياكوف في تكاسل أن يعزف
شيئا على قيثارته ، فأنحنى هذا عليها ، وشد من أوتارها ، ثم شرع يغني
بصوت يشبه عويل الثكلى :

« لقد لهونا هنا لنملا الأرض غناء . .
وجاعت من « كازان » يا لها من حسناء
جاءت تنقش عن صاحب لهو وهناء ! »

وجدتها أغنية حزينة جدا ، وكذلك وجدتها جدتي من دون ريب ، إذ
قالت :

— غن شيئا آخر ، يا ياكوف — أغنية حقيقية لطيفة . أتذكرين تلك
الآغاني التي كان الناس يغنونها في الماضي ، يا موتريا ؟

فلاجايت العسالة في لهجة طروب ، وهي تمسك طرف توبها :

— ان اسلوبا جديدا طرا على الاغاني في هذه الايام ، يا عزيزتي .

فحذج خالي جدتي بعينين نصف مخلقتين وكأنها بعيدة عنه جدا ، تم
نابع الانشاد بنغمته الحزينه وكلماته البشعة ...

كان جدي منهمكا في مناقشة سرية مع الساعاتي ، وهو يبرهن شيئا ما
على أصابعه . وكان الساعاتي يرفع حاجبه ، ويرنو ناحيصة والدتي ، ويهز
رأسه ، بينما تأخذ قسمات وجهه المائع بالارتجاف في خبث كثير . أما أمي
فكانت جالسة بين الاخوين سيرجيف كالعادة ، تتحدث بهدوء وتؤدة ووقار
الى ماسيلي الذي كان ينهد ، ويقول :

— هه ! يجب ان افكر في ذلك !

فبيتسم فيكتور ابتسامة مأكرة ، ويسحب قدميه على ارض الغرفة ، ثم
يروح ينشد فجأة في صوت حاد رفيع :

— اندريه — بابا ... اندريه — ...

فيتوقف الجميع عن الحديث ... ويرمون بأبصارهم اليه ..

تالت والدته بانفة :

— لقد أخذ ذلك عن المسرح . انهم يغنون هكذا هناك .

قضينا أمسيتين أو ثلاثا فقط من هذه الامسيات ... لشد ما أرهقني
فيها — وأنا اذكر جيدا — ملل لا يطاق . ثم جاعنا ذلك الساعاتي ، ذات يوم
احد ، عند الظهيرة ، بعد خدمة القداس الاخيرة مباشرة . وكنت جالسا في
غرفة والدتي أساعدها في استخراج اللالي من ثوب مطرز عتيق ، حين فتح
الباب بفتة على مصراعيه ، وظهر وجه جدتي المذعور لحظة قصيرة كانت
كافية لان تتمم فيها :

— مارمارا ، لقد جاء !

فلم تجفل والدتي ، ولم يتقلص في جسدها طرف واحد ... ثم فتح

الباب نانية ، بعد اقل من دقيقة واحدة ، وظهر وجه جدي على العتبة وهو يقول في وقار عظيم :

— ارتدي نيايك ونمالي ، يا مارمارا !

فءالته والدني ، دون ان تقف أو بدير نظرها اليه :

— ولكن الى اين ؟

— تعالي يباركك الله ، وكفاك نقاتسا . انه رجل مسنقيم ، ينفسن عبله ، وسيكون ابا طيبا لالكسي . .

كان جدي يتحدث باهتنام غير معهود ، وهو يضرب وركيه بيديه دون انقطاع . . . بينما طفن مرفقاها يرتعشان وكان يديه نرغبان في الامتداد الى الامام ، وهو يجاهد ليمنعها من ذلك . . . قالت امي بهدوء :

— لقد سبقي وقلت لك ان ما تخطط له لن يكون .

فأسرع جدي اليها ، وقد مد ذراعيه الى الامام منه كرجل ضرير . وصاح بصوت جاف ، وهو يرتعش من ام رأسه حتى اخضع قدميه :

— تعالي ، والا جررتك جرا — من شعرك !

— ستجرني ؟

سألت والدني وهي تنهض ، مربدة الوجه ، وقد ضاقت فتحة عينيها وشع فيهما تهديد مرعب . . . وأسرعت تنضو عنها معطفها ، ثم تنورتها .

قالت حين اضحت عارية وليس ما يستر جسدها سوى قميصها :

— حسنا ، جرنني !

فكثر عن أسنائه ، وهز قبضتيه ، وصاح :

— ارتدي ثيابك ، يا مارمارا !

فدفعته والدتي ، ومضت الى الباب ، وزعقت :

— حسنا ، هيا بنا ! . . .

همس من أطراف شفتيه :

— سألعتك !

— لا أخافك ولا أخاف لعنتك

وفتحت الباب ، ولكن جدي أمسك بها من طرف قميصها وسقط على ركبتيه . . . وانخرط باكيا ، وهو يقول بصوت لا يكاد يسمع :

— ستهلكين ، يا غارفارا ! أيتها الشيطانة الماكرة ! لا تجلبي المار علينا . .

وأرسل أيتها مفاجعا ، فكان الما مرهقا يعتصر فؤاده :

— أماه ! تعالي وانظري !

كانت جدتي ، في ذلك الحين ، قد سدت الطريق على أمي وراحت تدفعها الى الغرفة بحركات من ذراعيها كما تفعل لفراخ الدجاج الصغيرة ، وهي تهمس من بين أسناتها :

— أيتها الحمقاء فاريا ! ارجعي ، يا قليلة الحياء !

عندما أصبحت أمي في وسط الغرفة ، أسرعت جدتي تغلق الباب بالمزلاج ، ثم استدارت نحو جدي ورفعته عن الأرض بيدها الواحدة ، بينما هزمت اليد الأخرى في وجهه متوعدة :

— اف منك ، انت ، ايها الابليس العجوز ، ايها المخلوق الغبي ؟

وأجلسته على الأريكة كلفته من الخرق ، منحني الرأس ، فاغر الغم ، وهي تهتف بوالدتني :

— البسي ثيابك ، أنت !

فقال والدتي ، وهي تلتقط ثيابها عن الأرض :

— اني لن اذهب اليه ، هل تسمعان ؟

ودفعتني جدتي عن الدكة :

— أسرع وهات وعاء من الماء . . . هيا ، انطلق !

كانت تتحدث همسا . لكن بهدوء وبهجة الامر .. اسرعت عبر الممر لانفذ طلبها ، ومن هناك استطعت ان اسمع خطوات تسير جيئة ورواحا ببطء وخطوات ثقيلة في الغرفة المواجهة ، بينما بلغني صوت امي تصيح في غرفتها :

— سارحل غدا !

مضيت الى المطبخ ، وجلست الى النافذة كالشده . كان جدي ينن ويتأوه ، وجدتي تغمغم بشيء ما في سرها ، واصطفق احد الابواب في عنف . ثم خيم السكون والرغبة على كل شيء من جديد . . . وفجأة ، تذكرت الغاية التي جئت من أجلها ، فمألت طاسة بالماء وخرجت الى الممر حيث التقيت بالساعاتي يسير متدلى الرأس وهو بدعك قبعته المصنوعة من الفرو ، ويطلق اصواتا جافة فارغة . . . وكانت جدتي تتبعه ، وقد صلبت ذراعها على صدرها ، وهي تنحني له دون ان يراها ، وتقول في صوت خفيض :

— انت تعرف ذلك جيدا — فالحب ليس بالامر الذي يجبر الانسان عليه جبرا ! . . .

وتعثر الساعاتي على عتبة الباب ، ثم دلف منه الى الساحة ، بينما رسمت جدتي اشارة الصليب ، ووقفت هناك لحظات يسيرة ترتجف فيها كل ذرة . . . ترى ، هل كانت رجفتها ناشئة عن الضحك ام البكاء ؟ . . . لست ادري ! لاني لم استطع ، في ذلك الحين ، ان اسير غور نفسها . . .

ركضت اليها اسالها :

— ما بالك ؟

فاختلطت الطاسة من بين يسدي بعنف حتى اراقبت بعض الماء على جوربي ، وقالت :

— من أين رحمت تسمتي هذا الماء ؟ ائفل الباب !

واستدارت راجعة الى غرفة والدتي ، بينما دلفت انا الى المطبخ ورحلت اسمع ، من هناك ، الى تاوهاتهما وتنهدياتهما المستمرة فكانهما تدفعان : من مكان الى آخر ، حملا ثميلا بفوق قواهما . . .

كان النهار بديعا رائعا ، واشعة شمس الشتاء المائلة تخترق زجاج

النافذنين المتجلد . وكانت المائدة مهياً للغداء ، تلتهم عليها الصحنون النحاسية ، وزجاجتان تحتوي احدهما شراب الكفاس الذهبي ، والثانية فودكا جدي المخضرة من كثرة الجعة غير المخترة فيها ، ومن زهر الربيع المضاف اليها لتعطير رائحتها . وكانت كوة صغيرة تبعث وميضاً من الثلج يبهر النظر من خلال مساحات ضيقة من الجليد الذائب على زجاج احدى النافذتين كان ذلك الوميض يتلألأ على الاسطحة ، ويتألق على المقبعات الفضية البراقة التي تكال عواميد السياج واعشاش العصافير . وكانت طيور الاسيرة ترح في اقفاصها الفياضة بأشعة الشمس ، والمعلقة على اطراف النافذة : فالبلبل الاليف يزقزق بجذلان مرحاً ، يصهر ، بينما شرع الحسون يردد أغنية من أغانيه الجميلة . . . لكن هذه الموسيقى الحلوة ، وذلك التألق الذي يبعثه النهار الفضي ، لم يحملها الي شيئاً من الغبطة على الاطلاق . كان الغم يملأ نفسي فأرغب عن التمتع بجمال ذلك النهار الرائع وعن كل شيء آخر في الوجود وأردت أن اطلق سراح الطيور لنتمتع بالحرية والسلام ، ولم اكذ اتناول الاقفاص حتى ظهرت جدتي في المطبخ تزمجر ، وتلطم خديها ، وتصيح وهي تركض الى الموقد :

— لعنكم الله جميعاً ، واخذتكم العفاريات ! آه ، يا لك من عجوز حمقاء ، يا اكولينا !

وأخرجت من الفرن فطيرة كبيرة ، وضربت بأصابعها على قشرتها المحترقة ، ثم بصقت على الارض :

— لقد احترقت حتى صارت رماداً ! وأنا التي أردت ان أسخنها لمقط ! تفو ، يا أينها الشياطين ، هلا تحطمت جميعاً وذهبت هباء ! وأنت أيها النوم ، لماذا تقعد محملاً بعينين كبيرتين ؟ اود لو أهشمكم قطعاً كآنية الفخار وشرعت تبكي وهي تقلب الفطيرة من جهة الى جهة ، وتلمس القشر الجاف ، وتسقيه بدموعها الغزيرة

ودخل جدي وامى الى المطبخ ، فرمت جدتي ذلك التلف على الطاولة

بشدة فتراقصت الصحون وصدر عنها ضجيج صاخب ..

— انظرا ما حدث ، وكل ذلك بسببكما ، حملكما الشيطان !
فارتمت والدتي عليها ، وقد اسقردت هذوءها ومرحها ، تعانتها
وتواسيها وترجوها ان تنسى كل ما حدث ... بينما راح جدي يرنو حواليه ،
تعبا ، متغضن الوجه ، وهو يأخذ مجلسه الى المائدة ، ويعتد حول عنقه ،
وينظر شذرا بعينيه المنتفختين ، ويغمغم :

— حسنا ، فلننسى ذلك ! لقد اكلنا فطائر لذيذة من قبل . ان الله
بخيل بعض الشيء ، يأخذ منك مقابل دقائق من السعادة سنوات من الشقاء ،
وهو لا يؤمن بالفائدة .. اجلسي ، يا فاريا ... وانسي ما حدث !

كان يبدو وكأن مسا من الجنون اصابه ... ظل يتحدث ، طوال
الغداء ، عن الله ، وعن « آهاب » الملحد ، وعن البلايا والشدائد التي تقع
على عاتق رب البيت ، فقاطعته جدتي بشدة تقول :

— هيا تناول غداءك ، ولا تتحدث كثيرا !

وضحكت اُمي ، وبرقت عيناها الصانيتان ...

سالتني ، وهي تربت على كتفي :

— حسنا ، هل جزعت كثيرا مما حدث ؟

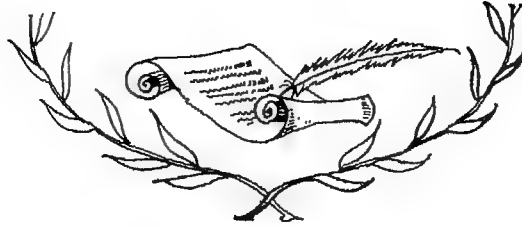
كلا ! لم اخف كثيرا ! ولكنني اشعر الان بالقلق والضيق ، ولا استطيع
ان افهم ماذا حدث ...

ظلوا يأكلون طويلا وكثيرا ، كما هي العادة أيام الاحاد والاعباد ، حتى
ابتدا المال ينال مني .. وصعب على أن اصدق أن هؤلاء هم انفسهم الذين
كانوا ، لنصف ساعة مضت ، يصحون في وجوه بعضهم ، يهيجون نقمة ،
ويغفلون غضبا ، وهم على أهبة القتال في كل لحظة .. وكذلك لم أستطع ان
أصدق انهم كانوا جادين فيما ذهبوا اليه ، وان ذلك كله هم بعض المعناء ..
لقد اعدت صراخهم ، وبكاءهم ، وذلك النزاع الذي لا يفتأ يتكرر ، كي يعود
فيخمد بسرعة غريبة ، حتى لم أعد المقي الاهتمام كما كنت افعل من قبل .

ولكنني أدركت ، بعد زمن طويل ، ان الروسيين الجبريين على حيا
فقيرة فارغة كانوا يفتشون عن نسلية لهم حتى في الحزن نفسه ، فيلعبون به
كالاطفال ، ولا يحسون الخجل من مصائبهم الا في القليل النادر . . .

وعندما تكون الحياة رتيبة ، يمسي الحزن نفسه عيداً وحدثاً مرحباً
بهما . وحتى الحريق يصير تسلية لذيدة . . . وكذلك الجرح البسيط ، في وج
خال من كل معنى ، يمسي زينة جميلة رائعة . .

♦ ♦ ♦



اضحت والدتي : بعد ذلك الحادث : قوبة ، منصبة ، ورأس البيت كله ، بينما استسلم الجد الى الصمت ، والتواضع ، فكانه لم يعد هو هو ، وفقد شيئاً مهماً من نفسه . . .

ولم يعد يبرح البيت ابداً ، بل يجلس في الطابق العلوي يقرأ في كتاب غريب مبهم يدعى « مذكرات والدي » . . كان يحفظ ذلك الكتاب في صندوقه الضخم تحت « القفل والمفتاح » ، وكثيراً ما لاحظت انه يغسل يديه قبل ان يأخذه من مكانه . . كان الكتاب صغير الحجم ، جلدي الغلاف أصفره ، قد كتب على صفحته الاولى الزرقاء هذه العبارة بحبر باهت اللون : « الى النيل فاسيلي كاشيرين ، مع اخلص التحيات واجزل الشكر . . . » . وكانت هذه الكلمات مذيلة باسم غريب ينتهي بصورة منمقة حلوة تمثل عصفورا يطير . . . وكان جدي بفتح الغلاف الجلدي الثقيل بعناية فائقة ، ويضع نظارته المفضيتين ويرنو طويلاً الى تلك العبارة وهو يتلمس أنفه ليصلح من وضع نظارته . ولقد سألته ، اكثر من مرة ، عن ماهية ذلك الكتاب ، فكان يجيب بصورة مثيرة وقد قطب ما بين حاجبيه :

— ليس لك من حاجة الى معرفته الان . تربث قليلاً — وعندما اموت ، سأتركه لك مع معطى السنورى أيضاً .

اصبح يقتصد من كلامه مع والدتي ، واذا خاطبها فنصوت حلو لطيف ، اما ان تحدثت هى ، فهو بصفتى البها بانتباه ، ويتمتم بصوت غير مفهوم ، ربومىء بده ، وبطرف بعينه كما كان يفعل الخال بوتر تماماً . . .

كائن الصناديق تعج بكثير من الثياب الغريبة الملونة ، قصان حريرية

مزرکشة ، وصدار من الساتان والفرو ، واثواب من البروكار طويلة لا اكمار لها ، مطرزة بالفضة ، وقبعات مزينة باللؤلؤ ، ومناديل ، واربطة عنق براقه الالوان ، وعقود من احجار مختلفة الالوان . وكان يحمل ذلك كله الى غرفه والدتي ، ويرمي به على الطاولة والمقاعد ويقول ، عندما يرى الى والدتي تعجب بالحلى وتدهش :

— في ايام صباي كانت الثياب اثن منها اليوم واجمل ! كانت الثياب اثن ، اما الناس فكانوا يعيشون ببساطة ومحبة وود اكثر منهم في هذ الايام . ولكنى اعتقد ان ذلك الزمن لن يرجع ثانية ، فجربى هذه الاشياء واختارى ما يعجبك منها ...

و ذات يوم ، نزلت لامي عند رغبته ، ومضت الى الغرفة المجاور وارتدت ثوبا طويلا يضرب الى السواد ، مزخرفا بخيوط من الذهب ووضعت على راسها قبعة جميلة مزرکشة ... قالت ، وهي تنحني لجدي — ابروئك هذا ، يا صاحب السعادة ؟

فلهث جدي ، واشرق وجهه ، وراح يدور حولها وهو يحرك ذراعيه كمن يشي سكرانا ويهمهم :

— آه ، فارفارا ! آه لو كنت ثرية فقط ، وكان هنك اناس وجهاء فيه حولنا !

وقد شغلت والدتي غرفتين اماميتين في المنزل ، حيث كانت تستقبل كثيرا من المضيوف . وكان الاخوان مكسيموف اكثر الزوار ترددا علينا . كان احدهما يدعى بيوتر ، وهو ضابط طويل القامة ، جميل الطلعة ، ذو لحية عريضة شقراء ، وعينين زرقاوين ، جللني جدي في حضوره يوم بصقت علم راس ذلك الشريف الاصلع ، وكان الاخر يدعى يفجينى ، شاب مديد الجسد ايضا ، ولكنه نحيل الوجه ، ذو ساقين طويلتين ، ولحية سوداء مدببة وعينين كبيرتين تشبهان الخوخ البري ، يرتدي دوما بزة خضراء ذهبية الازرار ويضع شارات مذهبة على كتفيه الضيقتين . وكان من عادته ان يدلم بشمره الطويل المتوج من فوق جبهته المالحة الى الخلف ، وهو يبتد بتواضع ظاهر ، ثم يروح يروي في صوت ابح حديثا ما يفتتحه ابدا بهذ العبارة الني لا تتغير :

— انت ترين ، يخيّل اليّ لن ...

فتنهه والدتي كل سمعها ، وعيناها نصف مغلقتين ، وتقاطعه في اغلب الاحيان ضاحكة :

— انت ما تزال طفلا ، يا يهيجيني فاسيليفيتش ! واني أرجو ان تغفر لي قلبي هذا ...

فيوافي المضابط الكبير ، وهو بضرب براحة يده على ركبته زيادة في التاكيد :

— نعم ! طفل ! انه لكذلك تماما !

مرت عطلة عيد الميلاد في حبور صاخب ، فكان الضيوف يجتمعون عندنا كل مساء وقد ارتدوا نيايا زاهية جميلة ، كانت ثياب أمي دائما ازهاها رابهاها ، ثم يخرجون جميعا من الدار ليقوموا ببعض الزيارات ...

كان البيت ، في كل مرة يخرج فيها ذلك الجمع المرح من الباب . بدو وكأنه بغوص في الارض ، ويفرق في اجبة من الكابة والسامة ، ويسبح في صمت خائق ثقيل ... وعندئذ كانت جدتي تجوس خلال الغرف كأوزة هرمة ترتب كل شيء ، وتعيد النظام الى نصابه ، بينما يقف جدي وظهره الى قرميد الموقد يتدفأ ، وهو يههم بينه وبين نفسه :

— حسنا ، حسنا ، سترى الى اين ستتقودها هذه الطريق الذي تسير عليها الان بدون وعي ...

ولم تكد فترة عيد الميلاد تنقضي حتى أخذتني أمي مع ساشا ، ابن الخال ميخائيل ، الى المدرسة ... وكان هذا الاخير قد تزوج للمرة الثانية ، فلم يكد يمضي على زواجه بضعة ايام حتى أخذ ساشا ينال من العذاب والضرب من خالته التي ابغضته بسرعة عجيبة ، ماقترح جدي — نزولا عند الحاج جدتي — ان يتكفل به . وواظبنا على المدرسة مدة شهر واحد فقط . ولست اذكر ، من كل ماتعلمته طوال تلك المدة ، الا شيئا واحدا ، وهو انه لا يكفي عندما اسال عن اسمي ان اجيب : « بشكوف » ... بل يجب ان اقول : « اسمي بشكوف » ... وكذلك فلاني لا اتمكن من ان اخطب المعلم

هكذا : « لا تصرخ في وجهي على هذا الشكل . يا اسناذ ، فليست أخاف منك !... » .

وسرعان ما حقدت على المدرسة ... بينما هام بها ابن خالي شغفاً ، وماحب عدداً من الطلاب لا بأس به .. ولكنه غفا ، ذات يوم ، انشاء المدرس وانطلق يصيح في نومه : « كلا ! لا ار ... يد ! » .. وعندها اسنيقظ ، استأذن في مناديرة الصف ، ولكن الطلاب سخروا منه بقتسوة .. وفي صباح اليوم التالي توقفت عن المسير ونحن في طريقنا الى المدرسة ، بعد ان تجاوزنا خندق ساحة سينابا ، وقال لي كمن يفشي سرا :

— ستتابع الطريق من دوني ، فانا لن اذهب الى المدرسة هذا النهار .
انى افضل الانطلاق في نزهة ...

وجلس القرفصاء ، ودفن كتبه في الثلج ، ومضى ... كنا في كانون الثاني والنهار مشرق ، والارض تلتمع بما اسبغت عليها اشعة الشمس من نور وضياء .. وداخلني احساس بالغربة من ابن خالي ولكني صررت على اسناني وتابعت الطريق في اتجاه المدرسة محبة بأمرى ... وطبيعي ان كتب سائسا المدفونة في الثلج سرقت ، فاصبحت له بذلك ذريعة حقيقية للامتناع عن الذهاب الى المدرسة في اليوم التالي ... وفي اليوم الثالث ، اكتشف جدى تصرفات سائسا وسلوكه الغريب .

وقدم كلانا للمحاكمة : جلس جدى وجدتي وأمرى وراء الطاولة أمى المطبخ ، يقومون بالتحقيق . وانى لأذكر ، حتى الان ، احوبة سائسا السخيفة على اسئلة جدى .

— لماذا لم تذهب الى المدرسة ؟

— لقد نسيت موقعها .

— نسيت ؟

— نعم ، وقد فتشت عنها طويلا ...

— كان يجب ان تتع الكسي ، فهو يعرف الطريق .

— لقد اضعفت الكسي

— اضعنت الكسي ؟

— نعم .

— وكيف يمكن ذلك ؟

فكر سائسا لحظة ، ثم قال متنهيدا :

— كانت هناك عاصفة ثلجية فلم أستطع رؤية اي شيء على الاطلاق .

فضحك الجميع . . . لان الطقس كان رائعا صافيا مشمسا ذلك النهار . .

ولم يستطيع سائسا نفسه ان يمتنع عن الابتسام قليلا ، ولكن جدي كثر عن اسنانه ، وقال في خبث كمن يوقع بعدو :

— الم تستطيع ان تمسك بيده او بحزامه ؟

— لقد فعلت ، ولكن الريح عصفت بي وابعدتني عنه . . .

كان يتحدث ببطء بلهجة من فقد الامل كله ، فائقلت علي تلك الاقوال الخرفاء وذلك الكذب الذي لا فائدة ترجى منه ، ولم أستطع أن أفهم لعناده معنى أو سبيبا . . .

لنا نصيبنا من الجلد ، ثم استأجروا لنا احد عمال المطاسيء ، وهو شيخ متقاعد ذو ساعدين ملتويتين ، ليصحبنا الى المدرسة ، كانت مهمته ان يحتاط كيلا يضل سائسا الطريق الى المدرسة او يحيد عنه . ولكن عبثا فلم نكد نحاذي الخندق في اليوم التالي حتى خلع ابن خالي أحد حذائيه ورمى به عن يساره ، ثم خلع الحذاء الثاني ورمى به عن يمينه ، وشرع يدب في الساحة بجوربيه . . . وأسرع الشيخ يسمى وراء الحذائين وهو يزمجر . . . وعندما التقطهما ، عاد بي الى الدار مرتجف الاوصال ، بادي الرعب . . .

ظلت امي وجدتي ، طوال ذلك اليوم ، تفتشان في البلدة عن الهارب حتى وجدناه ، عند المساء ، في حانة شيركوف بالقرب من الدير يسلي الجمهور برقصاته . . . عادتنا به الى البيت ، ولكنهما لم تنزلا به عقابا لشدة الاضطراب والقلق اللذين اثارهما فيهما صمته العنيد . واستلقى بجانبني في المسقفة ، يضرب الفضاء بقدمه ، ويقول بهدوء وانسجام :

— ان امرأة ابي لا تحبني ، وجدي لا يحبني ، فلم ابقى بينهم ؟ ساءرف
من جدتي اين يعيش اللصوص ، واهرب اليهم ... وعندئذ ستعلمون كل
شيء .. فلنفر معا ، ما رأيك ؟

كان المهرب مستحيلا بالنسبة الي ، فقد كنت اهدف ، في ذلك الحين ،
الى غاية اخرى في الحياة ، وهي ان اصير ضابطا ذا لحية كبيرة شقراء ،
الامر الذي يضطرني الى متابعة التحصيل ، والمواظبة على المدرسة .
وعندما اوضحت لابن خالي مشروعي ، غرق في التفكير برهة ، ثم اجاب وقد
استصوب رأبي قائلًا :

— هذا حسن ايضا ! فعندما تصبح ضابطا اكون انا زعيما للصوص ،
فيجب عليك اذن ان تقبض علي ... وسيقتل احدا الاخر ، او يأخذه اسيرا .
وانا لن اقتلك مهما كلف الامر ...

— ولا انا ايضا .

وقد تم قرارنا على ذلك ...

دخلت جدتي ، وتريعت على الموقد ، وطفقت تحدثنا :

— حسنا ، ايها الفاران الصغيران ! آه ، يا يتيهي الصغيرين ، يا فرخي
اللطيفين !

وراحت تكيل الانهام ، في عطفها العميق علينا ، لامرأة اب سائا ،
والعمة نادية السمينه ، ابنة صاحب الخان .. وادى بها ذلك الى فضح
جميع الخالات ، سائر ازواج الامهات دون تفريق ، ومن ثم روت لنا قصة
المراهب الحكيم ايون الذي قاد خالته امام كرسي دينونة الله ، وهو لم يزل
صبيا بعد ، قالت :

— « لقد كان ابوه صياد اسماك في البحيرة البيضاء ، ومرتما لفساد
امراته الخبيثة الثعلبية التي اغوته بشرب الخمر حتى سكر ، وسقته المخدر
حتى استغرق في النوم ، ثم القت به وهو نائم في قارب من خشب السنديان ،
قارب ضيق جدا حتى ليمائل تابوت الميت ، وبعد ذلك تناولت بيديها المجانيه
المصنوعة من خشب الحور ، وجذفت به في عرض البحيرة حيث كانت الامواج
تتلاحق هادئة باهتة ، تنتظر فعل تلك المرأة المعاهرة ... وهناك مالت عن
القارب ، وهزته بعنف ، وقلبت دون من يشهد على ما تقتصره يداها ، ففرق

زوجها كالحجر عميقا في الماء ، بينما سبحت زوجته سريعا حتى شاطئ الغابة ، وهناك ارتمت على الارض تعول وتنوح بمرارة ، وتظاهر بالحزن على فقدانها ، هو الذي قتلته بكل تلك الوحشية .

« وسمعها اناس ، واشفقوا عليها ، وبكوا محنتها ونصيب الارملة الذي حل بديارها ، وقالوا لها : « وأسفاه ! أنت صبية بعد حتى تترملني ، وشقاؤك سيكون مريرا مضنيا ، ولكن يد الله تسير حياتنا جميعا ، وهو الذي يأمر بموتنا او حياتنا » ...

« كان ابن زوجها اينوشكا الشخص الوحيد الذي لم يصدق دموع خالته ، فراح يشتبهها هامسا بصوت منخفض ، وقد وضع يده على قلبها : « ابيه ، أنت يا امرأة الخبث والمكر والدهاء ! يا طائر الليل الطافح احتيالا وخديعة ، لست اؤمن ، انا ، بدموعك هذه التي تسبكيها باسراف ، فالقلب في صدرك ينبض بفرح عظيم . فلنتجه اذن نحو مقعد الدينونة السماوي ، نحو الرب الاله ، وقوى السمساء ، وليأخذ احدا سكيننا مسنونة يلقي بها ، بقوة وعزم ، في اتجاه السماء ، فان كنت اثا ملوما فلاذبح بها ، وان كنت أنت ملومة فلتذبحي بها » .

« فلاستدارت اليه خالته ببطء ، وتفرست فيه بعينين تلمعن حثدا وكراهية ثم هبت واقفة باعتراز وشموخ ، وردت عليه في لهجة انتقام وتشفق : « يا لك من مجنون ، قد ولدت قبل ان يحين اوانك ! أنت يا من قاعك بطن الانسانية المفترسة ، ما هذا الكلام الذي تقول : والذي يسطره عليك خيالك المريض ؟ ما هذه الاكاذيب التي يثرثر بها لسانك وينشرها !؟ » .

« وسمع الناس الذين تجمهروا هناك كل تلك الاقوال ، وادركوا ان وراء الاكمة ما وراءها ، فراحوا ينظلعون في صمت ، مثقلي القلوب ، وياتمرون بصوت خافت حول ذلك الحادث الغريب ، ثم تقدم منهم صياد عجوز وانحنى الى كل الجهات احتراما للبشر اصدقائه واقربائه ، ومن ثم تفوه بهذه الكلمات المثقلة جميعا بالتعظيم والتكبير : « آتونسي ايها الناس الطيبون بالشجرة الحادة .. وانظروا الي هنا ، أمسك بها بكلتا يدي ، والى السماء انذف بها ، وسوف تقتل ذلك الذي تصرف ثرا ! ... » .

« وحملوا السكين الى الرجل الطامع ، ملوح بالنصل فوق رأسه الكثيف

الشعر ، فاذا بها تنطلق في القبة الزرقاء الصافية كالعصفور الطائر ، وتختفي .. وانتظر القوم طويلا عودتها ، انتظروا وشخصوا الى المرتفعات البلورية ، رنموا قبعاتهم عن رؤوسهم وقد تراحموا بعضهم فوق بعض ، ووقفوا هناك في صمت وسكون ... كذلك كان الليل ساكنا هادئا .. وما لبث احمرار الفجر المشرق ان سيطر على البحيرة ، وكذلك احمرت الخالة وهي تمد بصرها في الفضاء ما استطاعت ... ولكن السكين ، على حين غرة: انزلت من العلاء في مثل سرعة السنونو واندفعت في قلبها عميقا .. عندئذ، سقط الناس الاتقياء على ركبهم جاثين يصلون الى الله في تواضع وانسحاق: « فليكن الرب مباركا من أجل عدالته ! » ... ثم اقترب الصياد من ايون ، واقتاده بعيدا الى أحد الاديرة ، بعيدا جدا على ضفاف نهر يدعى كيرجنت ، قرب مدينة كيتيج العظيمة .

...

استيقظت في الصباح وقد امتلأ جسدي بقعا حمراء صغيرة ... انه الجدري ! ..

نقلوني الى غرفة خلفية في الطابق العلوي ، حيث بقيت زمنا طويلا مستلقيا في سرير قديما لي ذراعي وساقاي بعصابات عريضة ، عاميا عن كل ما يحيط بي ، احلاما مزعجة ، كاد يقضي علي في نهاية أحدها . وكانت جدتي الشخص الوحيد الذي يزورني ، تطعمني بالملعقة فكانني طفل صغير ، وتقص علي خرافات واساطير لا تنتهي ... وذات مساء - بعد ان تحسنت حالي قليلا وسرت في طريق الابلال ، بحيث مكثت اللغائف والرباطات عن سحاقي وذراعي ، وان ظلت اكمام سترتي مربوطة بحيث تمنعني من حك وجهي بأصابعي - تأخرت جدتي عن زيارتي كما تفعل دوما ، فمزعجني ذلك واندزني بالويل والثبور ... وعلى حين بغة ، خيل الي انني اراها مستلقية على أرض الغرفة المغبرة ، ووجهها الى التراب ، وقد تباعد ذراعاها ، وذبح عنقها من الوريد الى الوريد مثل عنق الخبال بيوتر تماما بينما دلفت من بين الظلال المعتمة قطعة كبيرة راحت ترحف في اتجاهها ، وعيناها الشريهان الكبيرتان الخضراوان تدوران في محجريهما دون انقطاع .

تفزت من السرير ، وحطمت النافذة المزدوجة بقدمي وكتفي ، والقيت بنفسي على تلة من الثلج تحت النافذة ... كانت والدتي تستقبل بعض

الزوار ذلك المساء ، بحيث لم يسمع اي انسان صوت الزجاج وهو يتحطم...
وبقيت فترة طويلة مضطجعا على الثلج دون ان يدري احدي . سليم العظام .
وان آلمني كتهني بشدة ، في حين جرحني الزجاج في مواضع عديدة من جسدي ،
كما فقدت القدرة على استعمال ساقي ، وبقيت ثلاثة اشهر مضطجعا في
غرفتي عاجزا عن الحركة ، اصغي الى الفوضى التي تسببت حياة الدار .
والى صوت صفق الابواب غير المنقطع ، ومجيء الناس ورواحهم الدائمين .

كانت عواصف الثلج تهب خارج المنزل عنيفة عاتية ، والريح تثور خلف
باب الطابق العلوي وتسفر ، ثم تخترق المدخنة وهي تولول باكتئاب ، او
تلطم مصاريع النوافذ وهي تزمجر بقسوة . كنت ارهف السمع في النهار الى
نعيب الغربان ، أما في الليالي الساكنة فالى عواء الذئب المرعب يصلنا من
الحقول البعيدة ، ونفسي ننضج مع تلك الموسيقى المتوحشة ونمو . . . ومن
ثم هل الربيع ، خجولا هادئا ، يلح بالوصول يوما بعد يوم ، واطل من
النافذة بعينيه المتألفتين الفرحتين ، فبدأت القطط تموء على السور وتلعب ،
واصوات هادئة حلوة تخترق الجدران وتبلغني : من قرمقة قطع الجليد ،
ودرجة الثلج عن الاسطحة ، الى رنين أجراس العربات التي كان طنينها
بتخذ تلك الصلابة التي اعوزته في الشتاء . . .

ولم تنقطع جدتي عن زيارتي لحظة واحدة . . . أمست تشرب بكثرة في المدة
الاخيرة ، تشتم من كلماتها رائحة الفودكا اكثر فأكثر . لا بل شرعت تحمل
معها ابريقا كبيرا من الشاي ، ابيض اللون ، تخفيه تحت سريري محذرة
اياي وهي تطرق بعينها :

— اياك ان تخبر جدك العفريت بهذا ، ايها العصفور الصغير !

— لم تشربين الخمرة ؟

— أصمت ! ستعرف ذلك عندما تكبر . . .

وعندها تأخذ جرعة من نم الابريق ، وتمسح فمها بكم قميصها ، تستدير
نحوي وهي تبتسم بغبطة :

— حسنا ، ايها الصبي اللطيف ، ممن كنت أحدثك بالأمس ؟

— عن والدي .

— وأين توقفت عن الحديث ؟

فأذا أخبرتها ، شرع الحديث الموزون يتدفق طوال ساعات عديدة . . .
كانت هي التي بدأتني ، دون سؤال مني ، الحديث عن والدي ، ذات
يوم كانت فيه منهوكة القوى ، رزينة ، تميسة :

— لقد رايت أباك في حلم ليلة البارحة — كان يرسل من فمه صغير
لطيفا . وهو يخب وسط الحقول ، حاملا في يده عصا من شجر الجوز ، يعبده
وراءه كلب منقط الجسم تدلى لسانه الأحمر حتى بلغ الأرض
مكسبهم سافاتيغيتش ما مرح يزورني كثيرا في أحلامي في هذه الأيام الأخيرة
وأنا أجهل سبب ذلك . . . يبدو أن روحه تهيم متألة ..

ظلت طوال أسابيع متتالية تحدثني عن والدي فتروي لي عنه قصص
تضاهي ، في أهميتها ، سائر قصصها الأخرى . كان والدي ابنا ل أحد الجنو
الذين رقا الى رتبة ضابط بعد خدمة طويلة ، ولكنه نفى بعد ذلك الم
سييريا لتعسفه في معاملة مرؤوسيه . وهناك ، في بعض أصقاع سيبيريا
المجهولة ، ولد والدي ، فعاش حياة شاقة عسيرة . . . وطفق ، وهو لما يز
طفلا بعد ، يدبر المحاولة تلو المحاولة كي يدشر من المنزل . . . وقد أخذ والد
ذات يوم ، كلبا من كلاب الصيد ، عدا يفتش عنه في الغابات فكانه أرقه
بري هارب . . . وقد ضربه ، مرة أخرى ، بعد ما عثر عليه ، ضربا مبرح
حتى انقذه الجيران منه وخبأوه في دارهم . . . سألت :

— ايضربون الصغار دوما ؟

فأجابني بهدوء :

— أجل ، دوما !

توفت والدتي أبي وهو طفل صغير بعد ، ولم يكد يتجاوز التاسعة حين
لحق بها أبوه أيضا ، فغتبناه عرابه الذي كان نجارا ، وضمه الى معمله في
مدينة « برم » وطفق بعلمه مهنة النجارة . ولكن والدي سرعان ما و
الادبار هاربا . . أخذ ، في أول أمره ، يقود العميان في الأسواق ، حتى
أخيرا الى نيجني نوفجورود ، عندما جاوز السادسة عشرة من العمر ، و
يشتغل نجارا عند متعهد للمراكب يدعى كولشين . ولم يبلغ العشرين ص
مشهورا في صنع الغرف الخشبية وتنجيد المفروشات . . . وكان الحك
الذي يعمل فيه يجاور منزل جدي في شارع كوفالكا . . .

ضحكت جدتي ، وقالت :

جسم نحيف ، وساقان رشيقتان .. وهكذا فقد كنا ، فاريا وانا ،
نلنقط توت العليق في الحديقة .. وفجأة تطلعت الى السور ، يا لطيف ! هذا
والدك يفتخر من فوقه فبكاد ان يفقدني صوابي . وجاء يعدو في اتجاهنا بين
شجر التفاح ، ماردا فتيا يرتدي قميصا ابيض اللون ، وسروالا مخططا ،
عاري القدمين والرأس ، يحزم شعره الطويل الى الخلف بقطعة من الجلد .
وماذا تظنه جاء يفعل ؟ لقد جاء يطلب يد امك ! وكنت قد شاهدته عدة مرات
من قبل يتجول تحت النافذة ، فأشعر افكر في نفسي كل مرة اراه فيها : « ما
اروعه هذا الفتى ؟ » . وهكذا قد اتجهت اليه ، عندما اتاني ، وقلت :
« لم أخطأت الصراط المستقيم ، يا قلبي ؟ » فيقول ، وقد ركع على ركبتيه :
« أكلينا ايفانوفنا ، هانذا ، وها هي ذي روحي بكليتها ترتمي عند قدميك .
وها هي ذي فاريا ، فساعدينا على الزواج ، حبا بيسوع ! » . حقا ، ان هذا
ليس بالامر البسيط ! بهت ، ولم اعد استطيع للكلام سيلا .

« تطلعت ، فرأيت امك الخبيثة مختفية وراء شجرة تفاح ، محمرة
الوجه كالتوتة ، وهي تشير له بيديها ، وعيناها طامحتان بالدمسوع . قلت :
الوجه كثيرة التوت ، وهي تشير له بيديها ، وما هذا الذي اخترعته ؟ هل فقدت
شعورك ، يا فارارا ؟ وانت ، انت ايها الشاب ، هلا فكرت فيما تفعل ؟
افلست تتطلع الى اكثر مما تستطيع ان تبلغ ؟ » . كان جدك عظيم الثراء في
تلك الايام — ولم يكن قد قسم شيئا من التركة بين اولاده بعد — يملك أربعة
منازل ، وما لا يحصى من المال ، واتباعه يحترمون كل الاحترام بالاضافة
الى ذلك . وقد منحوه ، منذ عهد قريب ، بدلة وقبعة مزخرفتين بالقصب
احتفالا بالعام التاسع لتراسه المعمل . آه ، ولكنه كان متعجرا عظيما
الكبرياء في تلك الفترة ! وهكذا ، فقد قلت ما يجب ان أقول ، وأوصالي ترتعش
طوال الوقت خوفا وفرقا ، وقلبي يتمزق حيرة عليها ، اذ كان الميأس باديا
على محياهما ، يكاد ان يقتلهما . وعندئذ نهض والدك ، وقال : « انا اعرف
من ان فاسيلي فاسيليفيتش لن يعطيني فاريا بمحض ارادته ، ولذلك فلا بد لي
من ان أخطئها اذن . وههنا نحن في أمس الحاجة الى مساعدتك » .
مساعدتي ، تصور ذلك ! طردته ، ورفعت يدي أهم بضربه ، ولكنه لم يتحرك
قيد أنملة . قال : « تستطيعين رجعي بالحجارة اذا شئت ، ولكن يجب ان
تساعديني ! اني لن ارجع عن رأيي ! » . وهنا تقدمت فارارا نحوها ،

وربنت بيدها على كتفه ، وقالت : « لقد أصبحنا زوجين منذ زمن طويل ، منذ شهر ايار ... وكل ما نحتاج اليه هو الاكليل فقط » ... وعندئذ تهاكمت على الارض فكأنني تلقيت منهما ضربة قاضية ! آه ، يا الهي ! ...

واهتز جسد جدتي بالضحك ... ثم تنشقت قبضة من السموط . مسحت الدموع من عينيها ، وتابعت وهي تنهد :

— ما زلت صغيرا بعد لتدرك بين العشرة البسيطة بين رجل وامراة ، وبين الزواج . انما فأعلم فقط انه أمر فطيع ان تلد الفتاة بدون زواج . يجب ان تتذكر ذلك عندما تشب فلا تلقى بالفتيات في مثل هذه المتاعب . تلك خطيئة عظيمة تسال عنها ، لانك ستجعل الفتاة تعيسة شقية ، والطفل دون اب شرعي . يجب الا تنسى ذلك ابدا ! يجب ان تشفق على تلك المرأة ، وان تحبها بكل جوارح قلبك ، وليس مجرد المتعة فقط . وهذا درس عظيم اعلمك اياه وعليك الا تنساه .

وغرقت في التأمل لحظة قبل ان تتمالك نفسها ، وتتابع قصتها من جديد :

— اذن ، ماذا عليك ان تفعل في مثل هذه الحال ؟ ضربت مكسيم على رأسه ، وجريت فاريا من جدائلها ، ولكن والدك قال لي عندئذ شيئا على جانب عظيم من الحس السليم : « ان الضرب لا يصلح المسألة ! » . واضافت امك : « يحسن ان تجدي لنا مخرجا من هذا المأزق ، تم تضربيننا » . وهنا قلت له : « الديك شيء من المال ؟ » . فأجاب : « لدي منه القليل ، ولكني ابتعت به خاتما لفاريا » . فسألته : « أيساوي ثلاثة روبلات ؟ » . فأجاب : « كلا ، بل مائة من الروبلات تقريبا » ... وقد كانت الاشياء ، في تلك الايام رخيصة جدا ، والمال يكلف كثيرا . نظرت الى والدك ووالدتك وهما يقفان هناك امامي -انهما صبيان صغيران لا اكثر ! وأحمقان ايضا ! قالبت والدتك : « لقد أخفيت الخاتم تحت أحد السواح الارض حتى لا يقع نظرك عليه . نستطيع ان نبيعه » . انهما لطفلاان حقا ، اليس كذلك ؟ حسنا ، لقد قررنا ان يتم الزواج خلال اسبوع ، وكان علي ان اتفاهم مع الكاهن على ذلك . لكن أواه ، لكم بكيت آنذاك ، وارتعش قلبي واقشعر خوفا من جدك ، ولكنه كان يحب فاريا ويحنو عليها ... حسنا ، لقد رتبنا اذن كل شيء ..

« غير انه كان هناك عدو لابيک — وهو رجل حقوق شرير من رؤساء

العمال، ظل مدة طويلة يراقبهما فاستطاع ان يعرف عنهما كل شيء . حسنا، لقد البست ابنتي الوحيدة أجمل ما عندي من ثياب وأبهاها ، وخرجت بها من البوابة . . . وهناك ، خلف أحد المنعطفات ، كانت ترويكاً تنتظر ، مركبتها . وأرسل مكسيم صغيراً خافياً من بين ثفتيه . . . وها هما يمضيان . . . عدت ادراجي الى الدار ، ودموعي تسح على خدي . . . واذا ذلك الوغد اللئيم يقترب مني بمكر وخبث ، قائلاً : « انني رجل طيب القلب ، ولست أريد تحطيم سعادتهما . انما سأسالك ان تعطيني خمسين روبلاً فقط ، يا اكونينا ايفانوفنا ! » كنت لا املك شيئاً ، فأتنا . أبغض المال ولا اوفر منه شيئاً قط : وهكذا فقد أجبتة في حمق : « انني لا املك مالا ، ولئن أعطيتك شيئاً ! » . فأجاب : « اذن عدبني بأن تدفعي لي » . فصحت : « اعدك ؟ ومن أين اجيء بالمال ان وعدتك ؟ » . فأجاب : « أيعسر عليك ان تسرقه من زوج ثري مملؤ به ؟ » . يا لي من بلهاء ! كان علي ان أجره الى نقاش طويل ، واحتمل عليه ، ولكنني بدلاً من ذلك بصقت في وجهه ، ومضت في سبيلي ، فنبعنى حتى الساحة ، ويا للفضيحة التي اثارها !

واغلقت عيناها ، بينما ارتسمت على شفتها ابتسامة جوفاء :

— انني ، حتى هذا اليوم ، ارتجف فَرَقَةً كلما تذكرت ما تلا ذلك من أؤم وحماسة . لقد راح جدك يزمر مثل وحش مفترس كاسر — تلك صفة شديدة محزنة بالنسبة اليه . كان من عادته ان بشخص الى فارفارا وبتأهى بانه سيزوجها من نبيل ، من سيد عظيم . والبك النبيل — اليك السيد الذي اختارته ! ولكن مريم العذراء تعرف اكثر منا من هم الاشخاص الذين بلائمون بعضهم بعضاً . . . وراح جدك بعدو عبر الساحة وكان النيران تلتهم جسده ، ينادي ياكوف ، وميخائيل ، والسائس كلیم ، ورئيس العمال صاحب الوجه الذي يعمج بالشمس ، ورايته يحمل هراوة ضخمة ورباطاً من الجلد ، في حين تناول ميخائيل بندقيته . . . كانت خبولنا قوية طويلة النفس ، اما عربتنا فكانت خفيفة سريعة ، فقلت في نفسي : « سوف يلحقون بهما من دون ريب ! » .

« ولكن هلاك فارفارا الحارس الهنيئ في الوقت نفسه ، فتناولت سكيناً وقطعت بها الحبل عند العريش ، وفي اعتقادي انه سينقطع في الطريق . وهكذا كان . . . فقد انهارت مقاومة الحبل ، وكاد يقضي على جدك وميخائيل وكلیم . واضطروا الى التوقف بعض الوقت ، كي يصلحوا الحال ، حتى

إذا بلغوا الكنيسة أخيراً كانت فاريا ومكسيم واقفين أمام بابها ، وقد تم زواجهما ... شكراً لله !

« حسنا ، عندئذ رمى رجالنا بأنفسهم على مكسيم ، ولكنه كان شجاعاً متين المبنية ، وقليلون هم الذين يتمتعون بالقوة التي كان يتمتع بها مكسيم . . . وهكذا فقد طوح بميخائيل والقي به أرضاً مرضوض السذراع ، واتبعه بكليم سريعاً ، بحيث ارتجف جدك ويakov و رئيس العمال ، ولم يجسروا على الاقتراب منه . . . ولم يفقد مكسيم زمام أعصابه ، بالرغم من غضبه الشديد . . . وهكذا ، فقد توجه إلى جدك قائلاً : « أرم هذه الأهرام هناك ! فأننا نرى محب للسلام ، وما أخذته صار لي بركة من الله ، وليس لاي إنسان الحق في أن يسترده مني . وهذا هو كل ما أسألكم أيهاه ! »

« وعاد رجالنا أدراجهم . . . جلس جدك على العرش ، وصاح . « وداعاً ، يا فارمارا ! فأنت لست ابنتي بعد الآن ، ولست أرغب في رؤيتك مرة أخرى ، وسواء عندي أن أراك حية أو ميتة من الجوع ! » ورجع إلى الدار حيث انهال على سبابا وضرباً ، ولكنني لذت بالصمت ولم اتفوه بكلمة البتة .

« كنت أعرف أن ذلك سيمر سريعاً ، وأن ما يجب أن يكون سيكون . قال لي : « انظري يا أكوлина ، أياك أن تنسى أن ابنتك قد ذهبت إلى الأبد — وهكذا لم يعد لك ابنة على الإطلاق ، لا هنا ولا في أي مكان آخر ، تفهمين؟ » . أما أنا فكنت أفكر في نفسي دونما انقطاع : « استمر في المكذب والمهراء ، أيها الأحمر الرأس ! لا بأس عليك ! أن غضبك الآن يغلي ، ولكن ذلك لن يطول . . . فالغضب كالجليد ، لا تمسه الشمس الا ويذوب ! . . . »

كنت استمع إليها ضيق الأنفاس . . كان ، في قصتها أمور عديدة تدهشني — فقد روى لي جدي زواج أمي بصورة تختلف كل الاختلاف عن رواية جدتي له . . لقد عارض في الزواج حقاً حسب ادعائه ، ولم يسمح لامي أن تدخل منزله بعد ذلك ، ولكن الزواج — كما يقول — لم يكن سريراً أبداً ، بل كان هو نفسه حاضراً فيه . وترددت في الاستفسار من جدتي عن الحقيقة لأنني فضلت أن استمع إلى روايتها التي كانت أكثر خيالاً وبهجة . . .

وراحت تتأرجح إلى الأمام والخلف في مقعدها ، وهي تتكلم ، وتبالغ في حركاتها كلها بلفت مقطعا مؤلماً أو مخيفاً من قصتها ، وترفع إحدى ذراعيها

مكانها تنقي صفحة من يد خفية . وكثيرا ما كانت تغلق عينها بغير تجف حاجباها الغليظان ، بينما تلعب ابتسامة دافئة فوق غضون وجنتيها . وكنت أحيانا ، اتأثر من تلك الطريقة العمياء التي تسامح بها كل شيء ، ولكنني كنت أتوق ، في أحيان أخرى ، الى ان استمع اليها تصبح بكلمات احتجاج بذينة قاسية .

— حسنا ، لقد بقيت طوال اسبوعين او اكثر أجهل كل شيء عن مكان فاريا ومكسيم ، ومن ثم ارسلنا الي طفلا يخبرني عنه . . . وفي يوم السبت التالي خرجت من الدار وكأنتني في طريقني الى الكنيسة لحضور صلاة الغروب ، ولكنني لم أمض اليها ، بل أسرعت اليها . . . كأننا يعيشان بعيدا جدا في جناح صغير في أحد منازل ناحية سيوتيسكي . وكان يعيش في باحة الدار عدد كبير من العمال . . . كانت الدار قذرة ، لا تنقطع الضوضاء فيها أبدا ، ولكنهما لم يابها لذلك ، بل كانا يلعبان ويمرحان مثل قطتين سعيدتين: وقد حملت اليها بعض الهدايا — شبتا من الشاي ، والسكر ، والقمح ، والبري ، والطحين ، والفواكه المجففة ، وقليل من المال أيضا — ولست أذكر مقدارها — كل ما استطعت ان أسرق من جدك — ولا جنحة في السرقة ان كانت في سبيل الغير ! ولكن والدك رفض ان يأخذه ، بل قال متأثرا : « وهل نحن سحاذان ؟ » . بينما راحت فاريا تضرب على الوتيرة نفسها: « لماذا حملت كل هذه الاشياء ، يا امه ؟ » . اعطيتهما كل ذلك ، وقلت موبخة حائقة : « انتي أم ارسلها الله البك ، ابها الغنى ! اما انت ، أيتها المجنونة الصغيرة ، فاني أمك الحقيقية ، أين كُتبت ان المرء يستطيع اهانة أمه ؟ فاذا ما أهان أمه مرة ههنا ، على الارض ، جعل العذراء تبكي هناك في السماء . . . » . وعندئذ حملني مكسيم بين ذراعيه وشرع يدور بي في الغرفة — حتى راح يقفز بي ويركض — فقد كان كالدب قوة ! وراحت فاريا تتبختر في الغرفة منتفخة كالطاووس معجبة بزوجها مزهوة بقوته . . . وطفقت تتحدث في اعتزاز عن « بيتها » ، وكأنها مربية عجوز . لقد كدت انفجر ضحكا ! أما الفطائر التي قدمتها مع الشاي ؟ ان ذنبا يحطم اسنانه دون ان يستطيع قضمها . . . والجنين البيتي ؟ انه اشبه بالحصي . . .

« وهكذا سارت الامور زمنا طويلا . . . وكنت انت على وشك ان تطل على الوجود ، ومع ذلك فجدك ما يزال بالصمت معتصما — انه مخلوق شرس ، ذلك المارد العجوز ! ولم أقطع عن زيارتهما ، الامر الذي لم يخف عنه ، وان كان يتظاهر بأنه لم يلحظ شيئا . . . وكان اسم فارغارا ممنوعا في

الدار ، فلم يأت أحد قط على ذكرها ، حتى ولا أنا أيضا . . . ولكنني كنت أعرف تماما ان قلب الأب لن يظل قاسيا . . وسرعان ما جاء الوقت المناسب . . . كان ذلك في أمسية عاصفة ، والريح تجلد النوافذ بوحشية وهي تعوي مثل قطيع من الذئاب ، والمدخنة تتأجج ، وجميع شياطين الجحيم قد افلتت من حابسها ، وقد اضطجعت وجدك جنبا الى جنب لا نستطيع الى النوم سبيلا . . . نهضت ، على حين غرة ، وقلت له : « ما أتعس المقراء في مثل هذه الليالي ! لكن أولئك الذين تثقل الخطيئة وجدانهم لأكثر تعاسة أيضا ! » . فقال جدك على غير انتظار : « كيف حالهما ؟ » . فقلت : لا بأس بها ، ليست سيئة أبدا ! » . فسأل : « ممن تظنني أسأل ؟ » . قلت : « عن ابنتنا غارمارا ، وصهرنا مكسيم ! » . فصحاح : « وكيف خمنت ذلك ؟ » . قلت : « كف عن هذه المهزلة ، يا ابتاه ! لقد حان ان نترك هذه اللعبة — فهي لا تسعد أحدا ! » فصعد زفرة طويلة ، وقال : « آه ، انتم ايها الشياطين ! أيتها الشياطين الحمراء النارية ! » . ثم سأل : « وماذا عن ذلك المجنون الغشيم ؟ » — يعني والدك — « لقد اقترنت بأحمق ، اليس كذلك ؟ » . قلت : « أحمق ! ان الاحمق هو ذلك الذي لا يشتغل ، بل الذي يعيش على نفقة الآخرين ! هلا القيت نظرة على ولدك ياكوف وميخائيل — لو فعلت رأيت انهما وحدهما الاحمقان الجنونان ! من ذا الذي يعمل ويكسب المال لهذه الدار ؟ أنت ! وهما ، اتظن انهما يساعدانك حقا ؟ » . وهنا شرع يكيل الشتائم لى ، ووصفني بالحمقاء ، والبهيمة ، والكلبة ، والشمطاء ، والمخرقة ، والله وحده يدري ماذا ايضا . ولكنني لم أنبس ببنت شفة أبدا ، حتى قال أخرا : « كيف خدمت برجل شاب لا يعرفه أحد ، لا يدري انسان من أين جاء ؟ » . ولكنني اعتصمت بالصمت حتى تعب من الحديث ، وعندئذ قلت : « يحسن ان تذهب وترى بنفسك كيف يعيشان ، فان حياتهما لحظة بديعة ! » . فقال : « ذلك شرف لا يستحقانه . فليأتيا همبا الى هنا ! » . حسنا ، لقد رجعت ابكي فرحا عندما قال ذلك ، بينما طفق هو يحل جدائل شعري — وكان بحب ان يلهو به على الدوام — وهو يتمتم : « حسنا ، كفك بكاء ، أيتها الأبلهاء المعجوز ! اتظنين انني بدون قلب ؟ » . . . كانت روحه طيبة ، جدك هذا ، قبل ان يملك عليه مشاعره الظن بأنه اذكى من الجميع واحصف — لقد أصبح منذ ذلك الحين غيبا ابلة . .

« وهكذا قدما لزيارتنا — أمك وأبوك — في يوم الفصح ، أحد التسامح

العظيم . . كانا كبيرين جدا ، نظيفين ، جميلين ! ووقف مكسيم قبالة جدك فلم يبلغ هذا الاخير اكثر من كتفه . قال مكسيم : « لا تظن يا ماسيلي ماسيليفيش ، اني جئت لاطالبك بالمهر . كلا ، أبدا ! بل جئت لاقدم احتراماتي الخالصة لوالد زوجتي فقط » . فسر جدك لذلك ، وضحك ، وقال : آه ، ايها الوغد الكبير ! حسنا ، كفانا هراء ! لقد حان الوقت لتعيشا في دارنا » . فقطب مكسيم حاجبيه ، وقال : « ان ذلك يتعلق بفاريا ، وسأفعل ما ترغب هي فيه ، انه سواء عندي » وعندئذ شرعا في الجدل ثانية - ولم تكن هناك اية قوة تستطيع ان تمنعهما عن ذلك . . رحلت اشير لوالدك هذا بطرف عيني ، واضرب على قدمه من تحت الطاولة ، ولكنه لم يكف عن النقاش لحظة واحدة ! كانت له عينان ساحرتان ، صافيتان ، مشعتان ، وحاجبان أسودان فوقهما . احبانا بعقد حاجبيه فوق عينيهِ ، فترى على وجهه تعبيرا قاسيا ، كالصخر ، وفي مثل هذه الاحوال لم يكن يعبر اذنا صاغية لاحد غيري . كنت احبه كثيرا ، احبه اكثر من اولادي ، وهو يعرف ذلك ، فيرد الى العاطفة لنفسها . وقد اعتاد ان يحتضنني ، او يحملني بين ذراعيهِ ، ويدور بي في الغرفة قائلا : « انت الام الوحيدة التي لي ، مثل امنا الارض . وانا احبك اكثر مما احب فاريا ! » . وكانت امك في ماضي الزمان الغابر ، شطانسة خبيثة ، صغيرة جميلة ، وكانت ترتمي عليه وتصبح : « كيف تتجاسر وتقول هذا ، يا . . . يا صاحب الاذنين اللشيهتين باللفوف ؟ » . ثم تركض ثلاثنا بعضنا في اثر البعض ، في ارجاء الغرفة . . ونمضي وقتا طبا جبلا ! . . كانت تلك اياما سعيدة ، يا صغرى ! وكان يرقص كما لا يستطيع انسان ان يرقص ويجيد عددا من الاغاني الحلوة التي تعلمها من العميان الذين يستعطون .

« اجل ، لقد انتقلا الى الشقة المطلة على الحديقة الكبيرة ، وهناك ولدت انت - عند الظهيرة . . . لقد رجع والدك ليتناول غداءه ، واذ انت هنا في هذا المعام ! لقد كاد يجن سعادة وهناء ! اما والدتك - فقد كاد ان يقتلها بمداعباته فكان مجيء طفيل الى العالم اصعب ما في الوجود على الإطلاق . ولقد حملني على كتفيه ، ومضى يسي عبر الساحة لانبئ جدك بولادة حفيد آخر له . . . وقد غرق جدك في الضحك . »

« وانغض خالك مكسيم كثيرا - كان لا يقرب الخمرة ابدا ، حاد اللسان ذكيا ، ماهرا في استنباط جميع انواع الحبل والالاعيب ، تلك الحيل التي كلفته غالبا فيما بعد ! وذات مرة ، خلال فترة الصوم الكبير ، هبت

ريح حصر عاصفة ، وانطلق فجأة صغير رهيب ونباح شديد في المنزل ، حتى
ذعر الجميع وفقدوا صوابهم ... وأسرع جدك يعدو في الدار مهولا يحاول
اضاءة مصابيح الايقونات ، ثم جثا يصلي .. وفجأة ، سكن كل شيء ، الامر
الذي كان اكثر رهبة وهولا ... وقد خمن خالك ياكوف الحقيقة ، فقال :
« هذا من صنع مكسيم ! » . وكائنات تلك الحقيقة بعينها ، فقد أخبرنا
مكسيم فيما بعد كيف صف مجموعة من زجاجات مختلفة الانواع والاحجام
على نافذة الطابق العلوي ، بحيث راحت الريح تصرصر في داخلها . وهدده
جدك قائلا : يحسن ان تأخذ حذرك ، يا مكسيم ! والا رجعت الى سيبيريا
اذا لم تكف عن الاعيك هذه . »

« وهجم علينا شتاء بارد قارس ، اتت معه الينا الذئباب من السهول
المجاورة ! فهذا كلب يفقد اليوم ، وهذا حصان يعدو خائفا مذعورا ، وهذا
حارس ثمل في يوم ثان قد نالته الذئباب بالعض حتى أشرف على الهلاك .
وكان أبوك يتناول بندقيته ، ويملاها خرطوشا ، ثم يخرج في ظلمة الليل كي
يعود بذئب أو ذئبين ، فيسلخهما ، ويضع زجاجا في محاجرهما حتى ليخال لك
انهما ذئبان حقيقيان ... وفي ذات ليلة ، خرج خالك ميخائيل الى الشرفة
لقضاء حاجة ما ، فاذا به يعود ادراجه عدوا على حين غفلة ، وقد جحظت
عيناه ، ووقف شعر رأسه ، وتدللى لسانه حتى أصبح عاجزا عن اصدار اي
صوت . كان سرواله الذي فكت أزراره متدلليا فوق قدميه وهو بتعثر به
ويغمغم : « الذئب ، الذئب ! »

« وهول كل من الحاضرين يتناول اي سلاح يقع تحت يده ، وخرجوا
مسرعين الى الرواق ، كان هناك ذئب يمد رأسه من تحت درجات السلم .
انهالوا عليه ضربا واطلقوا النار ، ولكنه ظل ثابتا في مكانه لا يتحرك ...
وتقدموا منه كي يجدوا انه حيوان فارغ بستره جلد ذئب قد صنعت اطرافه في
درجات السلم . وقد ثار جدك عندئذ ولم يعد يعي ما يقول . وسرعان ما
طنفق ياكوف يشارك أباك حيله ، فكان مكسيم يقص صورة رأس
من الورق المقوى ويرسم فيها عينيْن وأنفا ولهما ويلصق لهما بعض خيوط
الكتان بدلا من الشعر . ومن ثم كان يذهب وياكوف عبر الشارع بلوح بلعبته
امام نوافذ المنازل المجاورة . وكان الجيران يذعرون وتعلوا اصواتهم بالصياح
والعويل ...

« وفي احبان اخرى ، كانا يلتفتان بالشرائش البيضاء ويتنزهان في
الساحة الكبيرة .

« وفي يوم من الايام القينا الرعب في قلب الكاهن الذي هرول الى الحارس يطلب النجدة منه ، غير أن الحارس ذعر بدوره ، ولم يعد يعي كيف يصغر بصفارتة الضخمة طالبا النجدة . وهكذا كانا لا ينقطعان عن الإعييهما هذه قط ، دون ان ينفع فيهما نصيح ولا تأنيب . وقد اثرت عليهما مرارا ان بكيا من هذا السلوك ، وكذلك فعلت فاريا ، ولكنها لم يعبرا اقوالنا اذنا صاغبه . . . كان مكسيم يسخر بنا ويقول : « انه لمن المضحك جدا ان يتطلع المرء الى الناس وقد فقدوا صوابهم وولوا الادباء راكضين لسبب تافسه سخيف ! » ولم يكن هناك من سبيل الى تبديل رايه وجعله يكف عن صيانيات كهذه . . .

« ولكن بسوء سلوكه هذا كاد ان يقضى عليه . لقد كان الخال ميخائيل وضيع النفس حقيرا حقودا مثل أبيه تماما . . . وهكذا جعل جل عمله الخلاص من أبيك . .

« وفي يوم من ايام الشتاء ، في اوائله بالضبط ، بينما كانوا راجعين من بعض الزيارات — وكانوا اربعة : مكسيم وخاليك ، والشماس الذي خسر وظيفته فيما بعد لانه ضرب سائق احدى العربات حتى الموت — وفيما يهبطون شارع يامسكيا ، اتنعوا والدك بمرافقتهم الى بحيرة دوكونف مدعين انهم يريدون ان يتزحلقتوا هناك ، ولكنهم عندما بلغوا البحيرة القوا به من خلال حفرة في الجليد — اعتقد اني قصصت عليك ذلك فيما مضى ! . . »

— ما الذي يجعل خالي شريرين هكذا ؟

فاجابت جدتي وهى تتناول شمة من السعوط ، وفي صوتها بحة :

— انهما لبسا بشريرين ، بل هما ابلهان . . ان ميشكا خبيث ولكنه احمق في نفس الوقت ، أما باكوف فلا يزيد عن كونه انسانا بسيطا ابله ، بكل ما في الكلمة من معنى . . . حسنا ، لقد دفعا به الى الحفرة ، ولكنه عندما طفا على سطح الماء من جديد ، وتعلق بحافة الجليد ، اخذا بدوسان على اصابعه بأحذيتيهما ، ومن حسن الحظ انه كان صاحبا وهما ثملان . . فدرس الامر بطريقة ما ، كى يبقى في وسط الحفرة ، لا بظهر راسه الا لتنفس ، وهما يرمانه بالجلد دون ان بصيباه ، حتى تركاه اخرا واستعدا ، وهما بخالان انه سيفرق من دون مساعدتهما ، بيد انه نحح في الخروج من الماء، وركض مباشرة الى مركز الشرطة الذى يقوم في الزاوية ، كما تعلم . . .

وكان رئيس الشرطة يعرفه كما يعرف سائر افراد العائلة ، فساله عما حل به ..

ورسمت جدتي اشارة الصليب على وجهها ، وهمست بامتنان وشكر :

خليهب الله السلام لروحه ... ارح يا رب نفس مكسيم سافاتييفيتش مع قديسيك فهو يساهل ذلك ! انه لم يخبر الشرطة بشيء مما حدث ، قال : « ان الذنب ذنبي ، فقد ذهبت ثملا الى البحيرة وسقطت من خلال الحفرة » . ولكن رئيس المركز لم يصدق له ، باعتقاده ، كما يعلم ، لا يسكر أبدا ... وفركوا جسمه بالفودكا ، في المخفر ، والبسوه ثيابا جافة ، ودثروه بمعطف من اللئرو وجاؤوا به الى الدار ، رئيس المركز وشرطيان اخران . ولم يكن ياكوف وميخائيل قد رجعا الى الدار بعد ، كانا يتنقلان من حانة الى حانة طوال الوقت ... ولم نتمكن ، امك وانا ، ان نعرف مكسيم الا بصعوبة ..

« كان ازرق اللون ، محطم الاصابع ، والدم يسيل منها ، وقد ظهر على غوديه شيء يشبه الثلج وان لم يذب فيما بعد . كان شعره قد شاب وامسى ابيض اللون ... وشرعت فارغارا تصيح :

« — ما الذي فعلاه بك ، يا مكسيم ؟ ..

« واخذ رئيس المركز بطرح عليه الاسئلة دون انقطاع ، فاحس في صميم قلبي ان الامور لا تسير على ما برام . وتركت امر رئيس المخفر لفارغارا ، بينما رحلت احاول ان استخلص الحقيقة من مكسيم ، الذي همس : « اذهبي وابحثي عن ميخائيل وياكوف واخبريهما ان يقولوا اننا خرجنا معا من شارع بامسكايا ، فذهبا هما من طريق بوكروفكا ، بينما سلكت انا درب بريادبلني واخبريهما بحذر من ان يجعلوا الامر يلتبس عليهما ، والا وقعنا في متاعب مع رجال الشرطة » .

« فذهبت الى جدك ، وجعلته يهتم برئيس المركز بينما انتظر انا عند البوابة » . ورويت له الحادث كما وقع تماما ... ارتدى ثيابه ، وهو يرتجف رعا ، ويغمغم : « كنت اعرف ان مثل هذا الامر سيحدث » . ولكنها كذبة ظاهرة ، فهو لم يكن يدري شيئا .

« اما ياكوف فكان شديد السكر ، وقد سرع يتمتم : « انسى لا اعرف شيئا . انه ميشكا الذي يكبرني سنا ! انا لا اعرف شيئا » . واستطعنا

اخيرا ان نهديء من نائرة رئيس المركز الذي كان رجلا شجاعا في الحقيقة ،
توجه اليها محذرا وهو يغادرنا : « احذروا جيدا ، فان حدث شيء ما فانهي
اعرف على من سأضع اللوم بعد الان ! »

« وعندئذ انجه جدك الى مكسيم ، وقال له : « شكرا لك ، يا بني .
اي انسان اخر يتصرف بطريقة اخرى . اني اعرف ذلك حق المعرفة . وشكرا
لك ، يا بنيتي » لانك جئت مع هذا الرجل الى داري ! » .

« ان جدك يستطيع عندما يشاء ان يقول اشياء حلوة كهذه — وهو لم
يعد أحمق ولم يفلق قلبه الا مؤخرا فقط . وعندما انفردنا نحن الثلاثة شرع
مكسيم ينتحب ، بل بهذي فيها يبدو قائلا :

« — كيف يصنعان بي مثل هذه الامور ؟ .. ماذا فعلت لهما ؟ لماذا
يفعلان ذلك ، يا امه ؟

« فكأنه طفل صغير ، والحقيقة ان بعضا من ذكريانه وطفولته كان
متأصلا في طبيعته ...

« وعاد يسأل : « لماذا ؟ » وكان كل ما استطعت ان افعله هو الجلوس
الى جانبه والحويل معه ... لقد كانا ولدي بالرغم من كل شيء ، فلا اتمكن
الا ان ارثي لهما .. اما امك فقد انتزعت كل الازرار من قميصها وجلست
هناك مشعثة الشعر ، فكأنها قد خرجت من قتال حامي الوطيس ، تلطم
خديها وراحت تصيح : « فلنذهب ، يا مكسيم ! ان اخوي عدوان لنا ، وانا
أخاف منهما ، فلنهرب ! » . ولم احتمل منها مثل هذه الأقوال . قلت : « لا
ترمي زيتا على النار ! ينكهي ما يملأ الدار من الدخان ! » . وهنا ارسل جدك
هذين المجنونين كي يطلبوا الصنح والغفران ، ولكنها لطمت ميشكا على وجهه ،
وقالت : « اليك الغفران الذي تستحقه ! » . اما أبوك فلم يفتأ يسأل :
« كيف يمكن ان ترتكبا مثل هذا العمل ؟ كان يمكن ان تقعداني عن العمل دوما !
وماذا يستطيع ان افعل دون اصابعي ؟ » ... واخيرا تم الصلح بطريقة ما ،
وظل أبوك بعد ذلك طوال سبعة أسابيع تقريبا مريضا ملتزما الفراش ، يردد
دون انقطاع وهو قابع في فراشه : « فلنذهب الى مدينة اخرى ، يا ماما !
اني اكاد ان أختنق ههنا ! » . وسرعان ما ارسل بعد ذلك الى استراخان حيث
طلب الى أبيك ان يبني قوس النصر . وأبحر على ظهر أول مركب بخاري مر
بنا في الربيع . وكان الفراق محزنا جدا بالنسبة الي ، مثل فراق الروح ،

وكذلك كان أبوك كئيبا يحاول ان يقنعني بمراغبتهم دون جدوى ... اما
نارغارا فكانت سعادتها تتجاوز كل حدود وهي لا تحاول اخفاءها ابدا ...
يا لها من امرأة قليلة الحياء ... وهكذا كان .. » .

وارتشفت جرعة من الفودكا انبعثها بقليل من السعوط ، ثم قالت
وهي تشخص من النافذة الى الفضاء الواسع :

— باي ! لم نكن ، والدك وأنا ، قرييين بالدم .. ولكن قراسة الروح
كانت نجمعنا بل كانت متأصلة فينا منذ نعومة الاظفار ...

وكان جدي يدخل الى الغرفة ، على غير انتظار غالب الاحبان ، ويفاجئها
اثناء الحديث ، فلا يلبث ان يرفع وجهه ويستنشق الهواء ، ويرنو برغبة الى
جدتي ، ويصغي لحظة ويتمتم :

— اكذبي ، اكذبي ! ...

وكان يسألني ، أحيانا ، فجأة :

— لقد كانت تحتسي الخمرة هنا ، يا الكسي ؟

— كلا !

— انت تكذب ! اني ارى ذلك من عينيك !

ويغادر الغرفة مشككا مرتابا ... فتغمر جدتي بنظرة حادة قامته
المبتعدة ، وتردد بهمس :

— امض مع السلامة ، ولا تخفنا !

وفي ذات يوم ، انتصب في وسط الغرفة ، وقد ثبت عينيهِ في الارض ،
وقال بتؤدة وتردد :

— ماما ! ...

— ماذا ؟

— اتعرفين كيف تسير الامور ؟

— اجل اعرف .

— وماذا نخلنسين ؟

— انه القضاء ، يا أبناه ! الا نذكر ما اعتدت ان تقول عن ذلك الانسان الكامل الرائع ؟

— اه .. ه .. آه !

— حسنا ، يبدو انك على حق .

— ولكنه صعلوك .

— ذلك يعنيها وحدها .

ويخرج جدي ، فسألت وفد أحسست مصيبة عاتية :

— عم تتكلمان ؟

فناقفت وراحت تهز براسها ثم قالت :

— انك تريد ان تعرف كل شيء ، اليس كذلك ؟ فاذا احطت بكل شيء

انت صغير ، ماذا يبقى كي تعرفه عندما تكبر ؟

ضحكت .. وهزت رأسها ...

— آه ، ايها الجد ، ايها الجد ! انما أنت ذرة من الغبار تافهة ! لا تقل

شيئا ما يا الكسبي ! ولكن الحقيقة ان جدك قد فقد كل شيء — حتى اخر غطس

يملكه . لقد استدان منه أحد النبلاء مبلغا كبيرا من المال يزيد على الالاف ،

ثم غدر الدهر بذلك النبيل فأنفلس ...

وغرقت في تفكير عميق ، معتصمة بالصمت مدة طويلة ، بينما عات

كأبة قاتمة الابتسامة المشرقة المرتسمة على وجهها ... سألتها :

— نيم تهدسين ؟

فأجابت ، وهي تشد راحتيها :

— أفكر فيما أقص عليك . حسنا ، ما رابك في قصة يفزتيجنيا ؟

هاك هي :

« في ذلك الزمان كان بعض بشر يفترجنا النسماس ، وكان يعتقد انه اكبر
اشياء من منارة البحر ، واكثر بوقد فكر حتى من الكاهن او التيسر واشد
ادراكا .. واما من ناحية التجار — فلانسئل عن تجاوزه لهم في الذكاء وقوة
الاراده ... كان يتمخطر كالتاوس ، وعيناه جاحظتان مثل بوم عجوز ...
وكان يعلم الجبران ، من الصباح الباكر حتى حلول الظلام .. ولا يجد شينا
في الوجود صالحا ابدا !

— اذا تطلع الى برج ما ... فهو كثير الانخفاض !

واذا ركب عربة ... فهي شديدة الابطاء !

واذا أكل بفاحة ... فهي فجأة غير لذيدة !

واذا جلست في اشعة الشمس .. فهي كثيرة الحرارة ! ..

واتسعت عينا جدي في محجريهما . وانفخ خذاها . فلانخذ وجهها
اللطيف طلعة من الغباء مضحكة : بينها راحت تشدق قائلة :

— ... وهو يقول دوما : « كنت استطيع ان اصنع هذا . لو أردت .
بطريقة افضل بما لا يقاس ... ولكني : كما تعلمون ، لا أستطيع ان اضيع
وقتي جدا بدون فائدة . » ..

وتوقفت لحظة عن الكلام : ثم استطردت في صوت منخفض :

— وذات ليلة زارته بعض الشياطين ، لغقول له : « انت نسرى ان
الاشياء هنا كلها فاسدة ! فما رايتك لو اضفتنا في الجحيم — فالنيران هناك
تحترق بلهب غريب ! » . ولم يكذ الشماس يلبس طاقيته حتى ركب انان من
الشياطين ، بينما أمسك به اخرون بمخالبهم ، وراحوا يقرصونه ويدغدغونه
بأظافرهم : ويدفعون به في اللهب المتأجج قائلين : « حسنا ، يا يفترجنا ،
انت مسرور من المجيء الينا ؟ ... » . وشرع يدور عينيه وهو يحترق
أمارات الحكمة ظلت بادية على وجهه ، بينما انقلبت شفته بازدياء ، وهو
يقول : « ان نيران جهنم تثير كثيرا من الدخان ! » ...

وختمت قصتها بشهقة طويلة ، ثم ضحكت ، واستدارت نحوي وقد
تبدلت تعابير محياها :

— انه لم يسلم ذلك الاخرى ، فقد كانت له صفات غير طبيعيه ، مثله
مثل حدثك بماذا ! اجل ! . لقد حان وقت النوم الان . . .

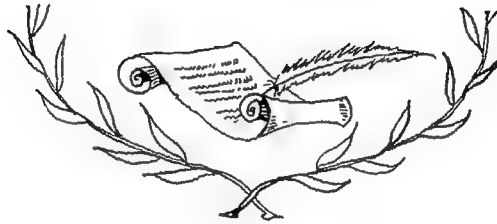
وبادرا ما كانت ثاني اُمي لرؤيتي في الطابق العلوي ، نادا فغلب فلكتي
تنفوه ببعض كلمات مضطربه متلاحفة ، ثم بعجل بالرحيل دور بأخير . . .
كانت يزداد بهاء وتزبد من عنايتها بلباسها . . . وكنت أجدها محاطه
بالغموض مثل جدتي بماذا . هذا الغموض الذي كنت احذره واشعر به . . .
وبنائص اهتمامي بالاتصيص التي نسردها علي جدتي — لا بل ان الاقاصيص
عن والدي أيضا لم نسنطع ان نشئت ذلك الذعر المبهم الذي طفق ينمو كل
يوم في تفكيري ويزداد شدة . سألت جدتي :

— ما الذي يتلق روح والدي ويزعجها ؟

فأجابت ، وقد رفعت يدها على عينيها :

كيف لي ان اعرف ؟ هذا من شأن الله ، وليس لنا ان ننهيه نحن
الذين على هذه المغاية ! . .

وفي اللبالي التي كنت أحسها طويله ، حين اضطجع عاجزا عن الرقاد .
أروح أراقب نقدم موكب النجوم البطيء في السماء الزرقاء المخاربة الى
السواد ، كنت ابتكر قصصا كئيبة أجعل من والدي بطلا لها . . . وكان والدي
فيها وحيدا على الدوام ، يحمل هراوة في يده ، بينما بتراكض في اثره كلب
صغير ذو وبر طويل مشعث .



لفقت ذات مساء بعد غفوة قصيرة فشعرت ان ساقبي قد انماقتما بدورهما ... القيت بهما عن حافة السرير ، غاذا هما تعودان الى خدرهما وجهودهما مرة اخرى . ولكن الثقة بان ساقى سالتان وانني سأستطيع السير عليهما من جديد ، قد ولدت في نفسي قوة غير عادية حتى لفني فرح شديد ودفعني الى النداء عاليا . . . وضعت قدمي على الارض وشددت عليهما بكل قوتي ، ولكنني تعثرت وسقطت ، فرحت اجر نفسي جرا حتى بلغت الباب ، ومن هناك هبطت السلم زحفا ، وانا أتصور المفاجأة التي ستعرو الجميع حين يبصرون بي ...

ولست اعرف كيف وجدت نفسي في حجر جدتي في غرفة والدتي، ولكنني كنت هناك وقد أحاط بي أناس غرباء في عدادهم امرأة مسنة ، نحيلة القوام ، مخضرة اللون .. قالت هذه المرأة بصوت مهيب ، أغرق في لجته سائر الاصوات الاخرى :

.. أعطيه شيئا من مربى التوت في الشاي ، ولفيه جيدا بالاحرمة ، من رأسه حتى أخمص قدميه ...

كان كل شيء فيها أخضر اللون — ثوبها ، وقبعتها ، ووجهها ، وتلك الدملة النامية تحت عينها اليسرى ، لا بل ان الشعيرات القليلة التي نبتت منها كانت تشبه العشب الاخضر كل الشبه ... أرخست ثفتها السفلى ، ورفعت الشفة العليا ، وشخصت الي ولاح لي ان اسنانها خضراء ايضا ، وقد ظلمت عينيها بيد اختفت في قفاز اسود ، مسالت متلججا مرتبكا :

— من هي هذه الخضرة ؟

فأجاب جدي في صموت مقيت :

— سوف تكون جدة اخرى لك !

صحكت امي ؛ ودفعت يفجيني مكسيموف الى جانبي وهي تقول :

— وهذا أب لك !

واضافت بضع كلمات سريعة غامضة ، بينما ضيق مكسيموف عينيه ،
وانحنى ليقول :

— سأهديك شيئاً من الدهان للرسم .

كان النور قويا في الغرفة ، وعلى طاولة تقوم في احدى الزوايا ينصب
نسمعدان فضي تحترق فيه خمس شموعات ، استقرت بينها ايقونة جدي
المفضلة : « لا تبكي ، يا ماما ! » : وكانت اللاليء التي تزين ثوب العذراء في
طيائه ومضات من النار تطلقها احجار الياقوت الاحمر المصفوفة باعتناء وسط
التاج الذهبي الذي يغطي رأس العذراء . وكانت وجوه مدورة تطل من خلال
النوافذ السوداء ، وأنوف مسطحة تضغط على الزجاج بصورة غريبة ، وشرع
كل ما يحيط بي يسبح ويموج ، بينما انحنى المرأة الخضراء فوقتي كي تجس
ما وراء أذني بأصابعها الباردة ، وهي تدمدم :

— على اية حال ، فهو لن ...

وقالت جدتي :

— لقد غفا ...

ومن ثم حملتني واتجهت بي الى الباب ...

والحقيقة اني لم اف ، بل اغمضت عيني بكل بساطة ...

قلت لها ، وهي تصعد بي السلم :

— لم لم تخبريني ؟

— لا تتكلم الان ، اسمع ؟ لا تقل شيئاً .

— خداعون جميعكم ! ..

عندما انسجمني في سريري . دفنت راسها تحت الوسادة ، وعرقت في بحر من الدموع . بينما طفق جسدها يرتجف ويتأرجح بفعل تسيجها ، وهي لا تفقا يقول لسي :

— لماذا لا تبكى ؟ ابك قليلا !

ولكن لم تكن بي رغبة في البكاء .. كان الطابق العلوي باردا مظلما . والفراش يهيز ويضطرب لتسده ارسعائس ، وملك المرآة الخضراء تابى ان نختفي من أمام ناظري . ومطاهرت بالنوم ، فركنتي جدتي وحيدا ..

مرت الايام القليلة التالية على نمط واحد . رتيبة مضجرة .. أما والدني فقد رحلت عنا بعد ان اعلنت خطبتها . فطوق المنزل جو من المسكون المرهق الثقيل الوطساء .

وفي صباح يوم من الايام ، جاء جدي حاملا ازميلا في يده ، وراح يقتلع . المنججون من حول النافذة ، ومن ثم تبعته جدتي وهي تحمل حوضا من الماء ، وبعض الاسمال البالية ... سأل في صوت خفيض :

— أجل ، ايه ، ايتها المعجوز !

— ماذا ؟

— أنت مسرورة ؟

فأجابته مثلما اجابتنني على السلم :

— لا تتكلم الان ، اتسمع ؟ لا تقل شيئا .

كان لهذه الكلمات مغزى خاص — انها تخفي شيئا غريبا بغضا يعرفه الجميع ، ولكنهم يرفضون البوح به .. ورفع جدي ، بعناية فائقة ، النافذة الداخلية وذهب بها أما جدتي ففتحت النافذة الاخرى على مصراعيها . امتلأت الغرفة برائحة مسكرة تتصاعد من التربة التي ذاب الجليد عنها حديثا ، وشحب لون قرميد الموقد الازرق ارتعشت اوصالي عندما تطلعت

الى هذا القرميد ، فانزلت من فراشي حتى الارض ، لكن جدني حذرني
بقولها :

— اياك والسبر حامي القدمين !

— ساذهب الى الحديقة .

— انتظر حتى نزول الرطوبة .

لم أرغب في اطاعها .. ان رؤية الكار قد غدت تكدري الان ...

كانت خصيلات شاحبة من العشب تنمو تشق طريقها من باطن التربة ،
وبراعم الزهر تزهو في اغصان الاشجار ، والعشب الاخضر الجميل بفرش
سطح منزل بتروغنا ، والعصافير تملأ كل فسحة ، والرائحة الذكية المنطلقة
في جو تملؤه اصدااء خافتة عذبة تسكرني وتبعث في اوصالي نشوة لذيذة ...
وكان حشيش بني اللون ، يحيطه الملح من كل جانب ، يزرئى ارض الحفرة
التي ذبح العم بيوتر نفسه فيها . ان النظر الى تلك الحشائش مزعج مؤلم
— فلا هي ، ولا تلك الكتل الخشبية المحترقة كأنها ترنو الى في اسى واكتئاب ،
لتنسجم مع الربيع الوليد المزدهر ... لا بل ان الحفرة بأسرها كانت زائدة
في ذلك المكان ، عديمة النفع ، مزعجة نرهق الاعصاب .. واخذتني ، على
حين غرة ، رغبة هائجة في ان اقتلع تلك الحشائش ، والتي بها بعيدا
وانظف تلك البقعة من الحديقة من كل ما يدنسها ، ثم ابني لنفسى هناك زاوية
هادئة نظيفة استطيع ان اقضى فيها فصل الصيف وحيدا ، بعيدا عن سائر
من يدمون انهم كبار ... وسرعان ما شرعت في تحقيق هذه الرغبة ، الامر
الذي ساعدنى على نسيان تلك الحوادث التي جرت في دارنا .. وطبعى ان
حب الاذى لم يبارحني بعد ، لكن حدثه كانت تخف يوما بعد يوم .

كانت جدتي وأمي تسالانني باستمرار :

بـ ما بالك تبدو عابسا على غير عادتك ؟

هذا السؤال بزعجني وبضائقنى — فانا لست نائما عليهما .. كل
ما في الامر ان كل ما يتعلق بالبيت قد أصبح غريبا على ، وكثيرا ما كانت
تلك المرأة الخضراء تنضم البناء على الغداء ، او الشاي ، او العشاء ،
فتجلس هناك أشبه ببقعة عفنة من سور عتبق ، وقد الصقت عيناها الى

وجها بخيوط غير منظورة ، فهما تتدحرجان بسهولة في محجريهما العظيمين العميقين تتطلعان الى كل شيء ، وتتفحصان كل شيء ، ترتفعان الى السقف عندما تتحدث عن الله ، وتهبطان الى جوف الارض عندما تتحدث عن الامور الارضية . وكان يبدو ان حاجبيها مصنوعان من خيوط دقيقة خيطت هناك ، فوق عينيها بطريقة عجيبة ، واسنانها العارية العريضة تلتهم كل شيء يدخل الى فمها دون ادنى صوت على الاطلاق . كانت تمسك بشوكة الطعام بطريقة مضحكة ، وقد برز اصبعها الصغير جانبا بصورة تبعث على السخرية ، فاذا اكلت تحركت اذناها بدورهما عندئذ ، بينما شعرات دملتها الخضراء تهتز وتتأرجح ايضا وهي تزحف كالديدان على جلدها الذي تبعث نظافته على النفور والاشمئزاز . . . كانت ، هي وابنها ، نظيفين للغاية حتى لا يجسر انسان على الاقتراب منها . . . ولقد حاولت ، عدة مرات ، خلال الايام الاولى من تعارفنا ، ان تحملني على تقبيل يدها الميتة ، التي تفرح منها رائحة الصابون والبخور ، لكنني كنت اولي الادبار . . . كانت لا تفتأ تقول لابنها :

— ان هذا الصبي يحتاج ، بكل تأكيد ، الى تربية حقيقية لمدة طويلة . . . اتفهم يا ينجيني ؟

فلا بفعل ينجيني الا الاطراق براسه خضوعا ، وقد قطب وجهه ، دون ان يقول شيئا . . . وفي الحقيقة ، كان الجميع يقطبون وجوههم في حضور تلك المرأة الخضراء . . ابغضت تلك المعجوزة — وكذلك ولدها — بغضا شديدا مركزا كلفني كثيرا من الجلد . . . وفي ظهر احد الايام ، بينما نحن نتناول طعام الغداء ، راحت تحملق بعينيها في وهي تقول :

— يا عزيزي الكمي ، لماذا تأكل بمثل هذه السرعة ؟ ولماذا تبالغ في تكبير حجم اللقمة هكذا ؟ لسوف تختنق ، يا حبيبي !

فأخرجت اللقمة من فمي ، وغرزت شوكتي فيها ، ومددت يدي بها اليها
تائلا :

— هاكها ، خذها اذا كنت متأسفة عليها :

فانتزعتني امني عن الطاولة انتزاعا ، ونفثني الى الطابق العلوي . ولحقت بي جدتي بعد ذلك ، وانفجرت ضاحكة وهي تشد على فمها باحدى

يحبها وتمد الثانية مؤنبة :

— يا الهي ، يا الهي ! يا لك من شيطان صغير !

لم ترق لي طريقتها فيوضع يدها على فخها ، فأفلسيت منها ، وتسلفت
سطح المنزل ، وجلست هناك خلف المدخنة ... بلى ، ان بي رغبة لا تقاوم
في اهانتهم جميعا ، بصعب علي جدا ان اقاومها . ولكنني كنت مكرها على
ذلك .. ففى ذات يوم ، طلبت مقعدي زوج امي وجدتي الجديدة بالفراء
القاسي ، فالتصق كل منها بمقعده بطريقة تبعث على الضحك ، ولكن امي
لحقت بي الى الطابق العلوي ، بعدما جلدني جدي ، وجرتني اليها ، وامسكت
بي بقوة بين ركبتيها ، وقالت :

— لو كنت تعرف كم تحز شيطانك في نفسي !

وقاضت عيناها بدموع ملتهمة ، وقد ضمت رأسي الى خدها الناعم ..
لو انها جلدتني ، لكان ذلك اخف وطأة علي ! أقسمت الا اضايق آل مكسيموف
ابدا بعدئذ ، بشرط ان تكف عن البكاء فقط . كنت اكره امي بالكية . قالت
بلطف :

— حسنا ، يجب الا تكون خبيثا ! سوف نتزوج عن قريب ، ثم نذهب
في رحلة قصيرة الى موسكو ، وعندما نعود ستعيش معي ... ان يفجيني
رجل حنون لطيف ، وأنا أعرف انك ستسر بصحبته ... سيرسلك الى
المدرسة ، وعندها تصبح طالبا مثله الان ، وبعد ذلك ستمسى طببا او اي
شيء اخر تحب ... ان الرجل المثقف يستطيع ان يفعل ما يريد .. حسنا ،
اخرج الان ...

وكان يبدو لي ان عباراتها التي تكررهما دون انقطاع ، هي سلام منحدر
يقودني بعيدا عنها الى الاسفل ، الى الظلمة والوحدة والانعزال وهذا السلم
لم يكن ليعت الغبطة في نفس طبعها ، فأتمنى ان أقول لأمي :

— لا تتزوجي .. سأجعلك تعيشين شرقا ، انا وحدي ...

ولكنني لم اقل ذلك .. كانت امي تشعرني ، على الدوام ، بعواطف
رققة ، ولكنني لم أجد قط الشجاعة الكافية للتعبير عنها ...

كان عملي في الحديقة يتطور من نجاح الى اخر .. فقد نبشت الحشيش واقتلعتة ، ومهدت الاطراف المنحرفة للحفر بقطع من القرميد وصنعت في مكان اخر مقعدا مريحا عريضا استطيع ان اضطجع فيه على هوائي ، وجمعت قطعاً من الزجاج الملون والصحون المكسورة وصنفتها في الطين بين القرميد ، فكانت تبرق مثل الايقونات في الكنية كلما اشرقت الشمس عليها .

قال جدي ذات يوم ، وهو يتفحص عملي :

— رائع منك ان تفعل ذلك ! لكن الحشيش سينمو ثانية ويحتاج كل شيء — فقد اقيت جذوره في جوف الارض . هيا ، آتني بالمعول وسأبذل لك هذا العشب اللعين .

وعندما جثته بالمعول بصق في يديه ثم ضرب المعول بعمق في الارض قائلاً :

— ارم الجذور بعيدا ، وسأوزع لك الزهور بمعرفتي وسيكون ذلك رائعا حقاً ، رائعا جداً ...
وفجأة انحني على المعول دون حراك ، وظل لفترة دون ان ينبس بحرف واحد ... اقتربت منه ، فرأيت بعض الدموع تنهمر من عينيه الصغيرتين كعيني كلب صغير .. سألته :

— ما بالك ؟

فارتجف ، ومسح وجهه بيده ، وقال :

— ان العرق يبللني .. انظر فقط الى هذا الدود ما اكثره ! وشرع ، مرة ثانية ، بنفش الارض ، ثم قال فجأة :

— كل هذا العمل عبث ! فانا سأبيع البيت لأول مشتري ، في الخريف على الارجح ... اني في حاجة الى المال مهرا لامك كي تعيش ، على الأقل ، بصورة لائقة ..

ورمى بالمعول ثم مضى الى زاوية من الحديقة خلف الحمام حيث كان يحتفظ ببعض ادواته ... فرحت أنبش الارض ، وما اسرع ما قطعت اصبعاً من اصامى بحد المعول .. ومنعتني هذه الاصابة عن حضور عرس أمي ، فلم أستطع اكثر من مرافقتها حتى الدوابة ، ومن هناك رحت أراقبها وهى

تعبر الشارع مع مكسيكوف الذي تثبت بذراعها . كان رأسها مطرقا ،
وقدمها تتحسس طريقها بعناية بين العشب الطري وكأنها تسير على
مسامير مدببة ...

العرس كان هادئا .. تناولنا الشاي بعد الاحتفال بصمت ، دون أية
بهجة أو أقل سرور ... ومن ثم أسرع أمي الى غرفة نومها ، وشرعت في
حزم متاعها ، بينما يجلس زوجها الى جانبي وقال :

— لقد وعدت ان أهديك شيئا من الدهان ، ولكن الانواع التي توجد
منه هنا رديئة . وأنا لا أقدر ان امنحك دهاناتي الشخصية . سوف ارسل لك
هديتي من موسكو ...

— وماذا أفعل بها ؟

— ألا تحب الرسم ؟

— أنا لا أعرف كيف أرسم !

— اذن سأرسل لك شيئا اخر .

ودخلت أمي ... لتقول :

— سنعود سريعا ... بعد انتهاء والدك من امتحانه ودراساته سنكر
راجعين ..

كان يطربني ان يتحدثنا الى وكأنني واحد من الكبار ، ولكني استغربت
ان يكون رجل ملتح في طور الدراسة بعد . سألت :

— ماذا تتعلم ؟

— تخطيط الاراضي .

لم أسأل معنى ذلك مع انني لم اكن ادري ماذا معنى .. كان البيت
محاطا بسكون خائق ، فكانت أتلهف ليجيء الليل .. ووقف جدي مستندا
بظهره الى الموقد ، ينظر من النافذة بعينين نصف مغلقتين . والمرأة الخضراء
تساعد أمي في حزم المتاع ، وهى تتنهد وتقدم طوال الوقت . أما جدتي ،

التي كانت ثملة منذ الظهيرة ، فقد اقبل عليها في الطابق العلوي كيلا تشين
العائلة بما لا طائل تحته . . .

تركنا امي باكرا ، عانقتني مودعة ، وقد رفعتني بسهولة عن الارض
وحدقت في عيني بنظرة لم ار لها عندها شبيها من قبل . .

قالت ، وهي تقبلني :

— الوداع ! الوداع !

فقال جدي باكتئاب ، وهو ينظر نحو السماء :

— اطلبى اليه ان يسمع ما اقله له .

— فتوجهت امي ، وهي ترسم اشارة الصليب على رأسي :

— بجيب ان تطيع جدك .

كنت انتظر ان تقول شيئا اخر ، ففقت على جدي لمقاطعته اياها
ومنعها عن الاستمرار في حديثها . . . صعدت ومكسيوف الى العربة ، لكن
ثوبها علق بشيء ما ، فظلت مدة طويلة تعمل منزعة على تحريره . .

قال جدي :

— ساعدها ، اما رايت ما حصل .

ولكنني كنت غارقا في اليأس لاستطيع ان افعل شيئا . . . ومد
مكسيوف ، بعناية فائقة ، ساقيه الطويلتين بسرواله الازرق ، بينما ناولتا
جدتي بعض الرزم التي كدسها على ركبتيه ، ثم رفع حاجبه الشاحب اللور
باضطراب ، وقال :

— كفى !

وركبت المرأة الخضراء وابنها البكر الذي كان ضابطا عربية أخرى . .
جلست منتصبة القائمة كعمود ، في حين حك ولدها لحيته بقبضة سيفه وه
يتشابه بين الفينة والاخرى . . . ساله جدي :

— هل انت ذاهب الى الحرب ؟

— بدون شك .

— هذا رائع ! فلا بد من قهر هؤلاء الأتراك .

ومضت العربيتان . . . استدارت أمي عدة مرات تلوح بمنديلها ، بينما راحت جدتي تبكي بالقرب من الحائط وهي تلوح بمنديلها أيضا ، أما جدي فقد تفرقت الدموع في مآقيه ، وهو يغمغم بصوت متقطع كلمات غير مفهومه ابدا .

جلست على مقعد صغير لا مسند له أراقب العربيتين تقفزان فوق اخاديد الشارع — وما عتمة أن انعطفتا في إحدى الزوايا ، فخيّل إلي أن هناك شيئا في صدري قد ارتعش ، وأن الدموع ستنهزم من عيني .

كان الوقت باكرا ، والشوارع فارغة بعد ، ومصاريع النوافذ ما برحت مغلقة ، لم أر من قبل مثل هذا الفراغ المطبق . . . ومن بعيد ، من بعض الأماكن النائية ، تلاحقت أنغام أحد الرعبان يرسلها من مزماره . . . قال جدي ، وقد أمسكني من كتفي :

— تعال تناول فطورك ، يبدو أن من المقدر لك أن تعيش معي إلى الأبد مثل عود الثقاب يحك بمشعله . . .

كنا ، جدي وأنا ، نعمل في الحديقة منذ الصباح الباكر صامتين حتى حلول الظلام ، وهو يحفر التربة ، ويقتلع الأشواك عن أشجار التفاح ، ويسحق الدود الذي يعثر عليه هنا وهناك ، وأنا أرتب زائيتي دون انقطاع . . . بتر جدي أطراف الكتل الخشبية المحترقة ، وفرز عصا جديدة في الأرض علقت بها أقمص طيوري . وفرشت مظلات من الحشيش الجاف لأحمي مأواي من الشمس والندى . وهكذا أضحت تلك الزاوية نظيفة معدة للسكن . . . قال جدي :

— حلو منك أن تتعلم كيف تنظم أمور حياتك من تلقاء نفسك .

كنت أقدر كثيرا ملاحظاته القيمة عن الحياة . . . كان يرقد أحيانا على المقعد الذي غطيته بالعشب ، يحدثني على مهل ، فخال لي أنه يخرج كل كلمة من فمه بصعوبة فائقة :

— أنك الآن فصلت عن أمك ! ولسوف تلد والدتك أولادا آخرين يكونون

أقرب الى قلبها منك . اما جدتك فقد اخذت ، كما تعلم ، تدمن شرب الخمرة !

ثم يفرق في صمت طويل ، فكانه يرهف السمع الى شيء ما ، كي يعود
فبتابع الحديث وهو يدحرج كلماته الثقيلة ، وبرزوا الى البعيد كأنه يستجمع
افكاره او كأنه يستلهم شيئا غير منظور :

— هذه هي المرة الثانية التي تعاقب الخمرة فيها — كانت المرة الاولى
عندما دعي ميخائيل الى الجندية . لقد اتفقتي يومذاك كي افتديه . يا لها
من مجنونة ! لعله كان يكون شيئا اخر لو خدم في الجيش اما انا !
فلسوف أموت سريعا . وهذا يعني انك ستبقى وحيدا ، تظل وحيدا تدبر
أمور نفسك بنفسك . تعلم ان تعني بنفسك ، وإياك ان تنحني للغير . عش
مسالما ، ولكن كن عنيدا ، وامض في طريقك الخاصة دون خوف او هلع . . .
واستشر ، ولكن افعل ما تعتقد أنت انه الافضل . .

قضيت في الحديقة الصيف كله ، عدا ايامه الماطرة طبعاً . وكذلك كنت
أمضي فيه الليالي الدافئة — فقد اعطتني جدتي قطعة من اللباد جعلت منها
سريرا لي . وكانت هي أيضا تقضي العديد من الليالي تروي لسي الحكايات
التي كنت اقاطعها بهتافات تأييد تارة ودهشة طورا ، فتصيح مثلا :

— انظر ! نجم يسقط ! هذه روح اشتاقت الى أمها الارض . ان
انسانا صالحا قد ولد في مكان ما من هذه الارض . . .

او كانت تقاطع نفسها بنفسها فتقول :

— ها هي ذي نجمة جديدة بعثت . . . انظر ! كلها عيون ! السماء ،
أنها ثوب الله المزركش بالدرر الملامعة .

فيتأفف جدي ، ويقول :

— التفتا انفسكما ، أيها الابلهان ! سوف تصيبكما بلية ، او ينقض
عليكما بعض اللصوص . . .

وتنحدر الشمس ، تغمر السماء بلون احمر كأنه من النيران ثم تمسى
رمادا ذهبيا محمرا فوق رداء الحقائق الخضر . وعندئذ يظلم الكون تدريجيا ،
وهو يتسع ، بمقدار ما يبتلع الغسق ، ويفنى ، وتذبل الاوراق المشبعة
بحرارة الشمس على اغصانها ، ويطاطء العشب رؤوسه العديدة ناحية

الأرض ، ويمسي كل نسيء أكثر طراوه ونعومه ، يبعث اريجاً لطيفاً كالوسيمى
السي تطوف ساعيه من الحقول البعيدة توقمها مخيمات الجيتس ، ويحمل
الليل معه احساساً قوياً منعتماً مثل حب الام الرؤوم لاولادها ، ومثل
مداعبات الام يكون المسكون ايضاً ، يمسح القلب باطراف مخمليه ، يكتس
بعيدا كل ما يجب ان يضيع في عتالم النسيان — كل ذلك القبار الدقيق المحرق
الذي نراكم خلال المنهار . خان من الروعه بمكان عظيم ان يضطجع المرء
ويروى الى السماء طويلاً ، يراقب مولد النجوم ، وكل واحدة منها تفتح ابعاداً
جديده في السماوات . ان هذه الأبعاد المتقهقرة تبدو وكأنها ترفع بخفة عن
الأرض ، فلا تعود تعرف ان كانت الأرض قد تقلصت واضحت بقدر حجمه ،
ام انه هو الذي تمدد بشكل عجيب حتى أصبح واحداً مع كل ما يحيط به .
ويزداد المسكون وتتكاثر الظلمة .

أنغام اكورديون بعيد ، وضحك امرأة عابطة ، وضربات المهاميز على
الرصيف ، وعويل كلب ما هي سوى الاوراق الاخيرة التي تتساقط من النهار
الذي يموت ويذوب !

وفي بعض الاحايين ، ترتفع اصوات سكرى تتشاجر في الشوارع او في
بعض الساحات هنا وهناك ، ثم تتردد ضربات خطوات تعدو سريعة متلاحقة
... ان مثل هذه الاصوات المألوفة جداً ، لا تسترعي ادنى انتباه على
الاطلاق ، بيد انني كنت أسمعها لانني لم اكن اعرف بماذا الهو سوى
بالانصات الحاد الى كل ما يطرا من اصوات غريبة .

وتستلقي جدتي مستيقظة لساعات لا نهاية لها ، وقد أراحت رأسها
على ذراعها ، وانطلقت تروي شيئاً باتدفاع لذيذ ، لا مبالية فيها يبدو ان
كنت أصغي لها أم لا ... وكانت تعرف دوماً كيف تختار أسطورة تضيف على
الليل سحراً وتزيده جمالاً وروعة ...

كنت أغرق في النوم وأنا اسمع الى كلامها الموزون ، ثم استيقظ وقد
غمرت الشمس وجهي ، وملأت أذني أغاني العصافير وتغاريدها ... أن
نسيم الصباح يتحرك بلطف تغمره حرارة الشمس بدفئتها ، وأشجار التفاح
تنفض الندى عنها ، والعشب يسترد بهاء لونه الأخضر ، وبائس أصوات
الوليد الجديد واللوانه تتدفق في روجي كتدفق قطرات الندى ، تحيطني بسعادة
هادئة وتغمرني رغبة في النهوض والسير ، والعيش بانسجام مع المخلوقات
جميعاً ...

كانت تلك اكبر مراحل حياتي سكبته وبأهلا . ممى ذلك الصيف ثم
عندي شعور الفضة بفواي الخاصة . وبدأت انحاشى الناس ، فلا محدود
البرغبة ، حين اسمع صراخ أولاد شارع أوغزبايكوف وهتافهم ، في الانضمام
اليهم ، وبدلا من أن ابنهج عندما يأتون الى زيارتي ، أصبحت اخاف من أن
يعيثوا فسادا في حديقتي في منزلي . في ماوي ، وهو اول ما صنعه يداي
في حياتي كلها ...

لم نعد أحاديث جدي سير بي ادنى اهتمام ، خصوصا وقد أضحت أكثر
تطويلا وجفافا وسكوى ... ونضاعفت مشاجراته مع جدتي ، ومار يطرده
من البيت ، فتمخبي حينئذ الى دار الخال باكوف او الخال ميخائيل . وفي بعض
الاحيان ، كانت تغيب عن الدار أباما عديده ، فيضطر جدي الى اعداد الحلعا
لنا بنفسه . وهو يلحن ويسب ، وبحرق اصابعه ، ويكسر الصحون ، ويؤدد
شراصة يوما بعد يوم .

كان يتخذ مجلسا مريحا في بقعة معشوشبة هناك ، عندما كان يأتي لزيارتي
في زاويتي الخاصة في الحديقة ويروح يراقبني طويلا دون ان ينبس بكلمة
واحدة ... ويسأل فجأة :

— لماذا لا تقول شيئا ؟

— لست أدري .

فيبدأ هو الحديث عندئذ ، وكأنه الاستاذ الذي يلقي درسا :

— نحن لسنا نبلاء كما تعهد ... ما كان هناك من علمنا شيئا على
الاطلاق ، فيجب إذن أن نتعلم لوحدها . أن الكتب قد وجدت لغيرنا
والمدارس قد بنيت لسوانا ... فواجبنا أن نحصل كل شيء من تلقا
أنفسنا .

ثم يستغرق في تأملاته — صامتا دون حراك — حتى ليبعث الرعدة في
قلب من ينظر اليه ...

باع جدي الدار في ذلك الخريف ..

وقال ، ونحن جلوس الى مائدة الافطار ذات صباح قبل الربيع ، في
صوت كئيب :

— حسنا ، يا ماما ! لقد اطعمتك مدة طويلة فيما مضى : اما الان فقد انتهى كل شيء — يحلو لي ان تكسبي خبزك بنفسك من الان فصاعدا .

أعارته جدتي أذنيها بهدوء تام ، وكأنها تتوقع منه مثل هذا الحديث .. وناولت علبة سموطها ، ودفعت قبضة منها في انفها ، وأجابت :

— حسنا ، فليكن كما تريد ، فلا بد ان نتدبر أمرنا على خير وجه .

واستاجر جدي غرفتين مظلمتين صغيرتين في قبو منزل عتيق يقع في درب جد ضيقة ... وبينما نحن ننقل أمتعتنا ، تناولت جدتي حذاء عتيقا ذا أشرطة طويلة والقت به نحت الموقد ، ومن ثم جلست المقرصاء وراحت تغهم قائللة :

— نعال ايها العفريت ، نعال ايها العفريت ! أركب في هذا الحذاء وسر معنا الى الدار الجديدة حاملا لنا حظا سعيدا ...

واطل جدي ، وكان في الساحة الخارجية ، من خلال النافذة وزعق :

— انك تأخذينه معك ، اليس كذلك ؟ فليسوف ادق عنقك ، أيتها الكافرة كيف تجعلين مني مدعاة للسخرية في أعين الناس ؟

تحذرتة بقولها :

— ايه ، يا ابتاه ! انتبه ، ذلك يعني حظا سيئا لنا ..

ولكن غضب جدي كان يفوق حدود التصور ، فمنعها من اصطحاب العفريت الى الدار الجديدة ...

وظل ، طوال أيام ثلاثة ، يبيع الاثاث لبعض التجار ، وهو يساوم زاعقا صارخا ويكيل الشتائم دون حساب ... وكانت جدتي تراقبهم من النافذة ، وتأثر تارة ، وتضحك تارة أخرى ، وهي تنادي في صوت منخفض :

— هيا خذوا كل شيء ، حطموها كل شيء ، لا تبقوا على شيء ...

وكننت بدوري اغص بالعبرات ، كلما تكرت في زاويتي في الحقيقة ..

لقد عشت ، يرامقني الاحساس بأن شيئا يحاول انتزاعي والقذف بي

بعيدا طوال السنتين التاليتين — حتى وفاة أمي . . وسرعان ما جاءت هذه لزيارتنا بعد انتقالنا الى القبو . كانت شاحبة اللون ، ضامرة القوام ، وعيناها الكبيرتان نحترقان ببريق من الدهشة . . . كانت تتفحص كل شيء بانتباه مركز ، وكأنها ترى أباهما وأماها وترانسي للمرة الاولى في حياتها . . . راحت ننظر اليها صامتة ، بينما ظل زوجها يسير في الغرفة جيئة وذهابا ، وهو يصفر ، وقد شبك أصابعه وراء ظهره .

تالت والدني ، وقد أخذت وجهي في راحتها الدافئتين :

— يا للسماوات ، لكم نضجت !

وكانت ترتدي ثوبا عريضا ، بني اللون ، بدا لي بشعا وهو يفتح فوق معدتها . . قال زوجها ، وهو يمد لي يده :

— مرحبا ! كيف حالك ؟

ونفخ بنفخيه ، وغغمم :

— ان الرطوبة شديدة ههنا !

كانا يبدوان متعبين ، وسخين ، فكأنهما يركضان منذ فترة طويلة ، وكل امنيتهما ان يستلقيا ويستريحا . . وتناولنا الشاي في وجوم ، وجدي يراقب المطر طوال الوقت وهو ينهمر ويدلف الى الداخل من خلال شقوق المصاريع ، ثم سأل أخيرا :

— وهكذا . فقد خسرتما كل شيء بسبب النار ؟

فأجاب زوج أمي بلهجة من يروي مغامرة حدثت له على حين بغتة :

— كل شيء ! وما انقذنا أنفسنا الا بصعوبة قاسية .

— ان النار لا تمزح في الحقيقة .

واقتربت أمي من جدتي وهمست شيئا في أذنها ، ضيقت له هذه فتحة مينيها وكان نورا برافا قد انصب عليهما بغتة وازداد وجومهما . . .

قال جدي فجأة بصوت هادئ مرتفع :

— لقد سمعت ، يا يفجينى فاسيليفيتش ، بعض الاشاعات التى تقول
انه لم يكن هناك نار على الاطلاق ، بل انك خسرت كل شيء فى القطار .

فران صمت قائل ، لا يعكره سوى قطرات المطر تفرغ النافذة ...

قالت امي :

— ابي ... لماذا ؟ ...

فزمجر جدي :

— ابتاه ! ماذا ايضا ؟ ألم اخبرك ان من الجنون ان يتزوج الجيل
الثالث من الجيل الثانى ؟ حسنا ، اليك ما انتهيت اليه — انه نموذج رائع ،
ليس كذلك ؟ ولقد جعل منك نبيلة ، اليس كذلك ؟ حسنا ، كيف تجددين
ذلك الان ؟

اندفع الجميع الى الكلام ، وكان صوت زوج امي يرتفع فوق جميع
الاصوات ، خرجت الى المشى ، وجلست على كومة من الحطب مصعوقا
.. هذه الامعى لا يمكن ان تكون امي — انها تختلف عنها الاختلاف كله ..
ادركت ذلك عندما كنت فى الغرفة ، اما الان وقد جلست فى الظلمة ههنا ،
فاني استطيع ان اتذكر بوضوح كيف كانت من قبل ... وانسى لاجدني بعد
هذا — دون ان اذكر كيف تم ذلك ، فى سورموفو ، فى بيت جديد ، وكانت
الشقوق بين قطع الاخشاب محشوة بنبات اخضر يسكنها عددا لا يستهان به
من الصراصير . وكانت امي وزوجها يعيشان فى غرفتين تواجهان الشارع ،
بينما اعيش وجدتي فى المطبخ الذى تطل نافذته الوحيدة على السطح . وفيما
وراء هذا السطح ، كانت المداخن السوداء تنتصب بشموخ نحو السماء ،
تنفث دخانا كثيفا مجعدا تنثره ريح الشتاء فوق الحي بأسره .. وكانت غرفنا
غير المدفأة تجمع ابدا برائحة ذلك الدخان بينما صفارة المعسل تعوي فى كل
صباح مثل دثب مفترس .

كنت استطيع ، اذا ما وقفت على دكة صغيرة وتطلعت من خلال زجاج
النافذة العلوي ، ان الملح بوابات المعمل المضاءة وقد فتحت على مصاريعها
لقتلهم العمال اللثاما . وعند الظهيرة ، كان صوت الصفارة يعلو مرة اخرى ،
فتفتحت البوابات السود على مصاريعها ، تكشف عن ثغرة عميقة يلفظ المعمل

منها نفس أولئك الناس الصغار ، فيتدفقون في جداول سود على طول الشوارع ، تطردهم ريح بيضاء عن الدور المبعثرة ..

وفي الامسيات كان دخان أحمر اللون قاتم يتوهج مرغرفا فوق المعمل ، مضبأ رؤوس المداخن ، باعثا في النفس شعورا فريدا من الرهبة . كانت رؤية ذلك المشهد يوما بعد يوم أثقل من أن نطاق ، فيفيض قلبي بكراهية وحقد مؤلمين ..

كانت جدتي تقوم بسائر اعمال البيت ، فتنهيك منذ الصباح حتى المساء في تحضير الطعام ، ومسح الارض ، وتقطيع الحطب ، حتى اذا هبط المساء سقطت متعبة أعياء وارهقا . وفي بعض الاحيان بعد تهيئة طعام الغداء ، كانت تلبس معطفا قصيرا ثم تخرج الى البلدة وهي تقول :

— سأذهب لارى كيف يدبر ذلك الشيخ اموره اليومية .

— خذيني معك .

— لسوف تبرد حتى الجمود ، الا تحس بهذه الريح المريعة !

وتقطع مسافة سبعة اميال الى البلدة على طرق ضيقة في حقول من الثلج ، بينما تجلس امي الحامل في الدار صفراء منتفخة ، ملتفة بشال رمادي مزركش من على طرفيه .. كنت اكراه ذلك الشال الذي يشوه جسدها الجميل المتين البنيان ، واكره تلك الزركشة أيضا ، فأود ان أمزقها أربا أربا ، كما كدت اكراه البيت ، والمعمل ، والمنطقة بأسرها . وكانت والدتي تتجول في حذاء عالي الكعبين ، يهتز بطنها المنتفخ كلما سعلت ، وعيناها الزرقاوان تلمعان بغضب قاس ، أو تشخصان باكتئاب الى الجدران العارية ... وفي بعض الاحيان كانت تتطلع الى الشارع ساعة كاملة ... كان هذا الشارع يشبه فكلا سودت السنون بعض اسنانه وشوحتها ، بينما سقط القسم الآخر فاستبدلت بأخرى جديدة لكنها كبيرة جداً بالنسبة الى الفك .

قلت أسأل :

— لماذا نعيش في هذا المكان ؟

فأجابت :

— او اه ، لا تسأل !

أصبحت نقتصر في حديثها معي ، فلا مخاطبني الا كي تصدر امرا ، او تطلب الي عيلا ما :

— اجلب لي هذا . خذ ذاك . اسرع الى المخزن ...

ونادرا ما كانت تسمح لي بالخروج للعب ، لانني كنت أعود دوما وقد اعتدى علي رفاقي واشبعوني ضربا ... كان القتال اللذه الوحيدة التي بقيت لي ، فكنت استسلم اليه بكل اندفاع . وكانت أمي تضربني ضربا مبرحا عقابا لي ، فلا يؤثر في العقاب الا كي اضاعف من سخطي ، فأروح اقاتل في اليوم الثاني بوحشية اكثر مني في اليوم الاول ، فتضاعف أمي بدورها من قسوة عقابي ... وأذرنها مرة اني سأعض يدها وأهرب اضرب في الحقول ان عادت الى ضربي ، فدفعني عنها في دهشة ، وراحت تذرع ارض الغرفة بخطواتها ...

قالت ، وهي تلهث :

— يا لك من متوحش صغير !

وكان زوج والدتي قاسبا جدا علي . قليل الكلام مع أمي . كان أبدا يصفر ويسعل ويقف مقابل المرأة ينقر على أسنانه المعوجة . ولقد أصبح بنشاجر مع أمي أكثر فأكثر ، ينمتهها بعبارات شائنة قاسية تثير نغمة في أعماق قلبي . وفي كل مرة يتشاجر واياها ، كان يغلق الباب المؤدي الى المطبخ حتى لا اسمع اقواله ، ولكن أصداء صوته الجاف كانت تبغني وتصنع آذاني بالرغم من كل احتياطاته ...

ضرب الارض بقدمه مرة ، وصاح مزمجرا :

— انا لا استطيع ان ادعو أحدا الى الدار بسبب انتفاخ بطنك ، أيتها البقرة الشمطاء !

طغعت علي دهشة عظيمة وغضب لا مثيل له ، فقفزت بعنف حتى اصطدم رأسي بالسقف بقوة ، وعضضت لساني حتى أذيته ...

وفي أيام السبت ، كان عدد كبير من العمال يأتون اليه يبيعونه بطاقات

الطعام الذي يمكنهم من شراء الحاجيات من مخزن الشركة . . . كان العمل يوزع هذه البطاقات عوضا عن الاجور فيبتاعها زوج امي بنصف تمنها . وكان يستقبل العمال في المطبخ ، فيجلس الى الطاولة وعلى وجهه سيماء التكبر ، ويروح يتطلع في كل بطاقة مقطب الحاجبين :

— روبل ونصف الروبل .

ولم نطل هذه الحياة السوداء المضطربة ، فقد ارسلوني قبل ان تلد امي لاعيش مع جدي . . .

كان يقطن منزلا جديدا مؤلفا من طابقين في شارع بيشسانانيا في كونافينو فوق مقبرة كنيسة نابولنبا . وكانت الغرفة التي يشغلها تطل على الساحة بنافذتين عريضتين .

ضحك حين رأي ، راح يرسل كلاما عاليا حادا متقطعا :

— حسنا ! ان المثل يقول : « خير رفيق لك هو امك . . . » . ولكن في هذه الحال يبدو ان افضل رفاقك هو جدك ، الشيخ ! يا لهم من قوم !

وما كدت استقر في المنزل الجديد حتى اتت اليه امي وجدتي بالوليد الجديد . اما زوج امي فقد خسر عمله في المعمل لاحتياله على العمال ، ولكنه استفاد بأصدقائه ، وسرعان ما استلم عملا جديدا بوظيفة محاسب في محطة للسكك الحديدية . . .

ومرت ايام طويلة قل ان ارسل ، مرة اخرى ، لاعيش مع امي في قيو ضيق يقع تحت منزل جبري . . . ارسلتني امي فورا الى المدرسة ، ولكني بغضتهما هي والمدرسة منذ اليوم الاول . . . ظهرت فيها ، للمرة الاولى ، لابسا حذاء من احدى امي ، ومرتديا معطفا فصل من احد قمصان جدتي ، وقمصا اصفر اللون ، وبنظالا طويلا . . . وطبيعي ان اكون مدعاة للسخرية بمثل هذا اللباس ، لكنني تفاهمت بسرعة مع زملائي ولكن الكاهن والاستاذ نفرا منسي .

كان الاستاذ اصلع الرأس ، اصفر الوجه ، يدخل قاعة الدرس وقد حشا منخريه بالقطن ويتخذ مكانه الى الطاولة ، - وي طرح علينا الاسئلة في صوت أجش ، ثم يقف في منتصف الكلمة ليسحب القطن من أنفه ويتفحصه

وهو بهز رأسه . . كان له وجه مسطح . نحاسي اللون ، يبدو ان انعكاسات
زرقاء مخضرة تتلاعب على صفحته . اما عيناه الصغيرتان ، وهما أكثر ما في
وجهه شناعة ، فكان يخيّل اليّ انهما محتسورتان حشرًا في رأسه حيث لا مكان
لهما على الإطلاق .

جلست طوال الايام الاولى في المقعد الامامي ، تماها تحت أنف الأستاذ،
حتى لاخال انه لا يرى احدا سواي ، وانه لا بفناً يرسل السى الملاحظة بلو
الاخرى كأن يقول من خلال اسنانه :

— بشكو . . و . ف ! كفى هذا ! بشكو . . و . ف ! كفى مراوغة !
بشكو . . و . ف ! لقد ترك هذاؤك ، مرة اخرى ، بعض الوحل على
الارض !

كان ذلك اكثر من ان أستطيع احتماله ، ولكنني كنت أنتقم لنفسي
باستنباط اكثر الالاعيب تطرفا . . وفي ذات يوم ، حئت بنصف بطيخة
متجددة ، وافرغت محتوياتها ، ومن ثم علقته في مقبض الباب في الممر المظلم .
وعندما فتح الباب ، طارت البطيخة في الهواء ، وعندما أغلقه الأستاذ سقطت
القسمّة على رأسه الاصلع . . وقادني الحارس الليلي الى الدار مع ورقة
تأنيب من الأستاذ ، وكان نصيبي الجلد عقابا على تلك الاساءة . . .

و في مرة اخرى ، نثرت السعوط في جزاره ، فأخذته نوبة من النعطيس
أجبرته على مغادرة قاعة الدرس التي بعث اليها بصره الضابط كي ينوب
عنه . . وطلب منا الضابط ان ننشد « يا الله أنقذ القيصر » و « آه يا حريتي
المباركة » مرات عديدة . . وكلها اخطأ أحدنا في اللحن ضربه على رأسه
بمسطرة معدنية كانت تحدث ضجة جوفاء تنعث على الضحك ، وان لم تكن
تؤلم ابداً .

أما أستاذ الدين فكان كاهنا أنيقا في شرح الشبّاب ، كث الشعر
اجعده ، أبغضني لأنني لا املك نسخة من « المهدبن القديم والجديد » ولاني
أقلد طريقته في الحديث ابضا . . .

كان يقول ، عند دخوله قاعة الدرس مباشرة :

— بشكوف ، هل اشتريت الكتاب ام لا ؟

— كلا ، لم افعل . نعم ! . .

— وماذا تعني بنعم ؟

— كلا !

— هيا الى البيت ! نعم ، الى البيت ! فلست ارجب في تعليمك . نعم ، لا ارجب ابدا !

وما كنت اعترض ابدا على مغادرة المدرسة . فكنت اركض في طرقات صاحبة القذره اتأمل الحياة الصاخبة من حولي حتى يحين موعد الانصراف من المدرسة .

كان للكاهن وجه رائع كوجه المسيح ، وعينان جميلتان كأعين النساء . . . وكأنت له يدان صغيرتان ، يخال الى انها تلاطفان كل شيء تلمسه ، اكان ذلك الشيء كتابا ، أم مسطرة ، أم ريشة . كان يبدو وكأنه يحب كل شيء تقع عليه عيناه ، فينظر اليه على اعتباره شيئا حيا يمكن ان يؤذيه كل احتكاك عنيف . وكان الاطفال مولعين به بالرغم من انه لم كن يعطف عليهم بشكل ظاهر . . . ومع ان علاماتي كانت مرضية للغاية ، فما أسرع ما اندرت بانني ساطرد من المدرسة بسبب سلوكي . اقلقني ذلك جدا ، فمما لا ريب فيه ان نتائجهم ستكون صارمة قاسية ما دامت امي تزداد عنفا يوما بعد يوم ، وتضاعف من جلدي أكثر فأكثر .

ولكن خلاصي من تلك الكارثة تحقق على غير انتظار ، فقد زار مدرستنا ، بغتة ، الاسقف . وكان ، على ما اذكر ، أحذب الظهر . . . وامتلات قاعة الدرس بجو غير معهود من الحركة والانطلاق عندما دخل ذلك الرجل الصغير مرتديا ثوبا فضفاضاً أسود اللون ، وأخذ مجلسه الى الطاولة . .

قال ، وهو يخرج يديه من كفيه الواسعين :

— حسنا ! هلا تحدثنا قليلا ، يا أطفالي ؟

وجاء دوري للمثول امام طاولته . . . سألني :

— كم سنة لك من العمر ؟ حقا ؟ يا الله ! يا لك من فتى طويل بالنسبة الى سنك ! لا ريب انك وقفت كثيرا تحت الأمطار !

والقى احدى يديه الصغيرتين الطويلة الاظافر على الطاولة ، بينما
امسك باليد الاخرى لحيته الصغيرة ، وهو يحمل في بلف :
— حسنا ، ارو لي اية قصة نحبها من التاريخ الديني .

وعندما اجبته باننى لا املك كتابا ، ومن ثم لا استطيع حفظ دروس
الدين ، أصلح من وضع قلنسوته وقال :

— كيف ذلك ؟ يجب عليك ان تدرس دروس الدين . ألم تسمع بعض
القصص في مكان ما ؟ هل تعرف المزامير ؟ حسنا ! والصلوات ؟ والان ، لعلك
تعرف حياة بعض القديسين ؟ حسنا ، يبدو انك فتى مثقف اذن !

ودخل كاهننا ، محمر اللون ، وهو يلهث ... وبعد ان باركه الاسقف
طفق بحدثه عني .. فقال الاسقف ، وهو يقاطعه بإشارة من يده :

— انتظر لحظة !

ثم استدار الي ثانية :

— حسنا ، لنفرض انك اخبرتنا عن المكسي ، رجل الله ...

وعندما توقفت عن تلاوة الشعر لنسياني بعضه ، قال :

— شعر رائع ، اليس كذلك يا بنى ؟ عساك تعرف شيئا اخر — عن
الملك داوود ؟ رائع ! لسوف اكون سعيدا جدا بالاصغاء اليك ...

واستطعت ان الحظ بنهني انه سعيد جدا بالاصغاء ، وانه مولع
بالشعر ... وتركني اتلو الكثير منه قبل ان يقاطعني :

— هل تعلمت حرف الهجاء من المزامير ؟ من علمك ؟ جدك الطيب ؟
جدك « الشرير » ؟ حسنا ، انك لا تعني ذلك . ولكنهم اخبروني انك ابدا
تسبب بعض الشغب ...

فتضرجت وجنتاي ، ولكني اعترفت بخطيئتي .. واثبت الكاهن
والاستاذ هذه الحقيقة الى حد بعيد . فاستمع الاسقف اليهما مطرقا بعض
الوقت وقال اخيرا :

— أسمع ما يقولان عنك؟ تعال الى هنا !

ووضع يدا تفوح منها رائحة البخور على رأسي ، وقال :

— ما الذي يجعلك بمثل هذه الشقاوة ؟

— ان المدرسة تبعث على الملل .

— تبعث على الملل ؟ في هذا بعض الخطأ ، يا ابني ! غائت اذا وجدت المدرسة باعثة على الملل ستكون تلميذا كسولا ، ولكن علاماتك تشهد ضد ذلك . يجب ان يكون هناك شيء اخر بضايقتك .

وأخرج من جيبه كتابا صغيرا وكتب :

— بشكوف ، الكسي . يحسن جدا لو عدلت عن شيطانك ، قليل من الشغب لا بأس به ، ولكن الناس لا يتحملون كثيرا منه ، كما تعلم ! ألت على حق ، ايها الصغار ؟

فردت عليه جوقة من الاصوات بصوت عال :

— بلى ، انك على حق !

— وماذا عنكم ؟ اظن انكم لا تسببون الا قليلا جدا من الشغب ، اليس كذلك ؟

فضحك الاولاد :

— اوه ، كلا ، بل كثيرا !

وقال في نغمة تعجب ودهشة ، اطلقت عاصفة من الضحك اشترك فيها حتى الكاهن والاستاذ أيضا :

— ما اغرب ذلك ! لقد كنت بدوري مشاغبا كبيرا عندما كنت في مثل عمركم ! ما الذي يجعلنا هكذا في رأيكم ؟

ضحك الاولاد ، وهو يتابع اسئلته ، الامر الذي زادني مرحا وابتهاجا . ولكنه نهض اخيرا ، وقال :

— من المؤسف ان اغادركم ، ايها الخبثاء ، ولكن ساعة زحيلي قد دنت .
ورفع ذراعه ، ودفع الى المراء كحه العريض ، ورسم اشارة الصليب
قائلا :

— فليهد الله في حياتكم ، ويهدكم سواء السبيل ، باسم الاب والابن
والروح القدس . وداعا !
فصاح الاولاد :

— وداعا ، يا صاحب القداسة ! عد الينا سريعا !
— سأعود ، سأعود سريعا ! وسأحمل لكم بعض الكتب .
ثم استدار الى الاستاذ :
— فليمضوا الان الى منازلهم .

واعترض سبيلي في الممشى ، وقال في صوت خفيض :
— عدني الا تسبب اية متاعب في المستقبل ، اتعمد ؟ انا انهم لماذا
تفعل ذلك طبعاً ! حسناً ، الى اللقاء !
كنت شديد الانفعال ، يشتعل في صدري احساس غريب ، حتى انى
أصغيت بانتباه وطيبة خاطر الى الاستاذ الذي استبقاني بعد انتهاء الدرس
وظفق يكرر لي ان من واجبي بعد الان ان اكون كالحمل وداعة ولطفا .
وخاطبني الكاهن ، وهو يرتدي معطفه :

— ومن الان فصاعدا يجب ان تواظب على دروسي . نعم ، هذا ما
يجب ان تفعل ... ولكن ، اهلاً ! نعم ، ابق هادئاً !
تحسنت الامور في المدرسة ، ولكن حادثاً وقع لى في البيت بعث في الجو
نفوراً واشمئزازاً . . . فقد سرقت روبلاً من أمي ، نون ان اتصد هذه الجريمة
او اتعمدها . . .

خرجت أمي ذات مساء الى مكان ما ، وتركتني وحيداً مع الطفل
الرضيع ، فتناولت كتاباً ، احد كتب زوج أمي — « ملاحظات طبيب » لاني

لم أجد شيئا افعله افضل من ذلك . وقد وجدت بين صفحات ذلك الكتاب ورقة من فئة الروبل الواحد ، وأخرى من فئة العشر روبلات . واغلق عليّ فهم الكتاب ، ولكنني عندما أطلبته راودتني فكرة السرقة فجأة بانني أستطيع بذلك الروبل ان اشترى ليس « تاريخ الدين » فحسب ، بل و « روبنسون كروزو » أيضا .

كان عدد اخر من الطلاب قد قرأوا روبنسون كروزو ، فراحوا جميعا يمتدحون ذلك الكتاب . وعزمت أن أحصل على روبنسون كروزو حتى أستطيع ان أقول ، بعد قراءته ، انه رديء لا ينفع شيئا .

وجئت المدرسة في الغداة أحمل « تاريخ الدين » ومجلدين صغيرين من قصص اندرسون الخرافية ، وقليلًا من الخبز الابيض ، وأوقية واحدة من اللحم المقدد . ولقد عثرت ، في المكتبة الصغيرة المظلمة القائمة في الزاوية القريبة من كنيسة فلاديمير ، على نسخة من روبنسون كروزو — كان كتابا صغيرا أصفر الغلاف ، ووجدت في الصفحة التي تحمل العنوان صورة رجل ملتج قد وضع قبعة من الفرو على رأسه ، والمقى معطفا من جلد النمر على كتفيه . لم يستهونى ذلك ، بل فضلت عليه أقاصيص الجنيات التي فتنتني .

واقتسمت ، اثناء الفرصة ، الخبز واللحم مع الاولاد ، ورحنا نقرا معا قصة « العنديل » التي ادهشتنا واستحوذت على قلوبنا منذ بسء الصفحة الاولى :

« ان سائر الناس في الصين صينيون ، وحتى الامبراطور نفسه صيني أيضا . . . »

وما برحت اذكر كيف أبهجتني هذه الجملة ببساطتها ، وموسمهاها بالبساطة ، ولست أدري أي شيء اخر فيها كان رائعا .

ولم أجد الوقت الكافي كي أنتهي من قراءة « العنديل » في المدرسة ، وعندما عدت الى البيت سألتني أمي في صوت مغتصب ، وهى تقلي بعض السبك :

— هل أخذت روبلا ؟

— نعم ، وها هي ذي الكتب . . .

فضربتني بعنف بالقلادة ، واغتصبت مني القصص ، واخفتها عني للابد . . . كان هذا العقاب اشد ايلاما من الجلد بما لا يقاس .

وانقطعت عن المدرسة اياما عديدة . . . ومما لا ريب فيه ان زوج امي اطلع الناس في المعمل على فعلتي ، فزروها بدورهم لاولادهم الذين حملوا القصة الى المدرسة التي استقبلتني — عندما عدت اليها — بلقب جديد ، الا وهو « الحرامي » . . . كان اللقب وجيزا ، واضحا ، ولكنه خاطيء . . . ولم اجرب ان اخفي حقيقة سرقتي للروبل . ولكنني ، عندما حاولت ايضاح ذلك ، لم يصدقني احد . . . وهكذا رجعت الى البيت واخبرت امي انني لن اعود الى المدرسة ثانية . . .

كانت حاملا ، مرة اخرى ، تجلس الى النافذة تعلم اخي ساشا ، فادارت وجهها نحوي ونظرت الى بعينين مذعورتين وقد فتحت فمها دهشة . . .

قالت في صوت اجوف :

— انت تكذب ، اذ لا يمكن ان يعرف انسان انك سرقت الروبل .

— ما عليك اذن الا ان تستفهمي .

— لا ريب انك انت الذي اخبرتهم بالامر اذن ؟ اصدقني الحقيقة — الم تخبرهم ؟ ولكن ، لا تكذب ، — اذهب غدا الى المدرسة لاتحقق من الامر .

فاخبرتها ، باسم التلميذ ، واذاوجهها ينقبض الما ، والدموع تسيل عليه بغزارة . . .

ذهبت الى المطبخ ، وتمددت خلف الموقد على الفراش الذي صنع لي من بعض اخشاب الصناديق . وكنت استطيع ان اسمع امي تبكي في الغرفة المجاورة وهي تتأوه ، وتتفوه ببعض كلمات غير مفهومة .

لم اعد استطيع ان اطبق الرائحة التي تبعثها الاسماك القذرة ، فخرجت الى الساحة .

نادتني امي :

الى اين ؟ تعال السي !

جلسنا معا على الأرض ، وسأنا يقتعد ركبتيها يشد أزرار ثوبها ، وينحني عليها . . . والتمتت بامي ، فلفتنى بذراعها . قالت :

— اننا فقراء معدمون . نكل كوبيك — نكل كوبيك واحد . . .

وضغطت علي بذراعيها الدافئتين عاجزة فيما يبدو عن التصريح بما تريد أن تقول . . .

وزمجرت نجاة ، وهي تراجع كلمة كانت تتفوه بها كثيرا من قبل :

— اواه ، يا للوحش ، يا للوحش !

كان سائلا طفلا غريبا — ضخم الرأس ، هادئ الطباع ، ذا عينين زرقاوين ساحرتين تضحكان دوما ، بدأ يتكلم في سن مبكرة غير عادية . ولم يكن بيكي أبدا ، بل يعيش على الدوام في حال من الفرح المستمر . وكان أضعف بنية من أن يقبل على الزحف بيسر ، ولكنه كان يبتهج كثيرا عندما يراني ، فيمد ذراعيه الصغيرين ، ويروح يلعب بأذني. بأصابعه الناعمة التي تفوح منها رائحة البنفسج . ولقد مات على غير انتظار ، دون أن يمرض أبدا . كان سعيدا كل السعادة في الصباح كمعهده . . . ولكنه ، عندما يهبط المساء ، وأصوات أجراس الكنيسة تدعو الناس الى صلاة الغروب ، كان يضطجع على الطاولة دون حراك ، ولقد حدث ذلك بعد ولادة الطفل الثاني نيقولا في فترة قصيرة .

وقد دبرت امي الامور في المدرسة ، فعدت اتابع الدروس كالمعتاد . ولكني عدت أعبش ، مرة أخرى ، مع جدي للسبب التالي . . .

ذات يوم ، بينما كنت ادخل الى المطبخ ، سمعت امي تصيح بيأس :

— يفجيني ، يفجيني ، لا تذهب ، اتوسل اليك !

فأجاب زوجها :

— هراء !

— ولكني اعرف انك ذاهب اليها !

— حسنا ، وماذا في ذلك ؟

صبت كلاهما عدة لحظات ، ثم قالت امي بين نوبتين من السعال .

— يا لك من نذل خسيس !

ويمعته يصر بها ، فعدوت داخل الغرفة كي أراها جانية على ركبتيها ،
تسند الى احد المقاعد بطيهرها ، ورأسها يندلى الى الحلف ، وعيناها
ببرقان بصورة غير معهوده بينما اسحب مكسيموف امامها ، مرتديا سترة
جديدة ، يرفسها بساقه الطويل على صدرها ... والتقطت سكيناً حادة
مصية المبيض — الشيء الوحيد الذي بقي لوالدي من مخلفات أبي —
وصوبها الى خاصره بكل ما بي من قوة .

ومن حسن الحظ ان والدني استطاعت ان تدغمه عنها في الوقت
المناسب ، فتقت السكين المعطف وحده ، وجرحت الجلد جرحاً طفيفاً .
مأطلق أنينا مزجراً وخرج من الغرفة راكضاً وقد أمسك خاصرته .

اختطفنتي أمي وقد نددت عنها صيحة حادة ، ثم طوحت بسي على
الارض ، ولكن زوج امي انزعني منها عندما قفل عائداً .

في ساعة متأخرة من مساء ذلك النهار ، عندما خرج بالرغم من كل
شيء ، جاءني امي الى خلف الموقد : وعانقتني بلطف وقبلتني :

— سامحني ، يا عزيزي . لقد اسأت اليك ! ولكن ، كيف يمكن ان
يفعل مثل ذلك ؟ بسكين !

فأقسمت ، وانا ادرك تماماً معنى كلماتي : اني سأقتل زوج امي ثم
أقتل نفسي ايضاً . وأخال انني كنت فعلت ذلك — او حاولته على الأقل .
وانا ما برحت ارى حتى اليوم تلك القدم المقيتة تتأرجح في الفضاء ، لترفس
صدر امرأة ضعيفة ...

وعندما اذكر ، في بعض الاحيان ، تلك الحياة الروسية الهمجية
اتساءل ان كانت تستحق ان يتحدث المرء عنها ... ولكني اقتنع بعد التفكير
ان من الواجب ان أعرضها ، لأنها تشكل الحقيقة الدنيئة التي لم تستأصل
شأفتها حتى اليوم الحاضر . . انها تمثل حقيقة يجب معرفتها حتى أعيق
جذورها ، كي ننتزعها بعد ذلك من حياتنا الملوثة بالعار . . ننتزعها من
صميم نفس الانسان وذاكرته ... اجل ننتزعها من ذاكرة الجيل الطالع .

هأنذا مرة أخرى مع جدي ...

حيائي ، وهو ينقر على الطاولة بعصبية :

— حسنا ، انا لن اغذيك بعد اليوم . فلتتكفل جدتك بذلك .

فقال جدتي :

— سأدبر ذلك ، لكن هذا الامر عمل شاق !

— حسنا ، خذيه في عهدتك اذن .

ولكنه اوضح لي الامور بعد ذلك بهدوء اعظم :

— ان كل شيء ينقصنا — كل يعني بنفسه وحدها ...

جلست جدتي الى المائدة تطرز ، فراحت بكرات خيطانها تتدحرج على الوسادة الملأى بالدبابيس النحاسية التي تلمع في اشعة شمس الربيع . كانت جدتي نفسها تلوح وكأنها اثناء من البرونز ، لم يتبدل فيها شيء ما على الاطلاق . لكن جدي اصبح اشد هزالا واكثر تغضضا تناقص شعره ، واستحالت رزاة حركاته اضطرابا مرتعشا ، واضحت عيناه الخضراوان ترنو الى كل شيء في ارتياب وتشكك . راحت جدتي تخبرني ، وهي تفحك ، عن اقتسام الاملاك بينها وبين جدي . لقد اعطاها جميع العلب ، والصحون ، الاحواض ، وقال :

— كل هذا لك ، واباك ان تساليني شيئا اخر !

نم جمع سائر ثيابها القديمة وممتلكاتها ، بما فيها قبعة من جلد الثعلب ، وباعها لقاء سعمائة روبل ، اقترضها بالفائدة ليهودي اعتنق المسيحية يتاجر بالفواكه . لقد أصبح مريضا ، أهلكه الطمع — أصبح طماعا بصورة مشينة ، فهو يزور معارفه القديمين — من تجار اغنياء ، ومهنيين ، عامل واياهم غيما مضى — ويسألهم بعض المال ، قائلا ان ابنه قاداه الى الخراب والتهلكة . ولقد قدموا له منحا سخية احتراما لركبته السابق ، فكان يرجع الى البيت ويلوح ببعض اوراق النقد تحت انف جدتي وهو يسخر منها كطفل صغير :

— هل ترين هذه ، ايها المعجوز الحمقاء ؟ انك لن تجدي من بدفع لك عشر هذا المبلغ فقط !

ثم اقترض جدي هذا المبلغ الجديد بالفائدة لشخص تعرف عليه حديثا ، تاجر فراء عملاق : اصلع الرأس ، ، ولاخفه ، وهي صاحبة دكان سمينة ، حمراء الخدين ، سوداء العينين ، حلوة ورخوة في وقت واحد معا .

كان اهل الدار يقنسمون كل تسعة بصورة دقيقة : فاليوم تهيء جدتي الغداء من مالها الخاص ، وفي الغد يشتري جدي الخبز والطعام ، وفي هذه الحال يكون الغداء رديا على الاطلاق . كانت جدتي تبتاع لحما جيدا ، اما هو فيبتاع رئة الخروف او امعاء . وكان كل منهما يحتفظ بشايبه وسكره الخاصين ، ولكنهما يغليانه في الابريق نفسه . ويقول جدي مذعورا :

— مهلا ! كم وضعت فيه ؟

ويرجع اوراق الشاي ، ويعدها بعناية فائقة ثم يقول :

— ان الشاي الذي تبتاعينه ارق من الذي ابتاعه انا — ولكن اوراقتي اكثر كثافة ، فهي تختمر بصورة افضل . وهكذا فعليك ان تضعي عددا اكبر من اوراقك .

ويراقب جدتي ، وهي تصب له الشاي ، كي يرى ان كانت حصته تساوي حصتها في الكثافة . كانا يشربان دوما عددا متساويا من الاقتراح .

وكانت جدتي تسأله :

— أنتشرب القدح الاخير ؟

فيوافق جدي بعد ان يلقي نظره الى الابريق :

— حسنا ! انه القدح الاخير حقا !

لا بل ان كلا منهما كان يبناع الزيت الضروري لتعديل الايقونة .

كنت اجد أعمال جدي مسلية ولكنها مفرغة — اما جدتي فتراها مسلية
مقط . . . كانت تقول لسي :

— لا تفكر في كل ذلك ! لقد كبر ، شاخ كثيرا ، فاصبح شاذ الطباع .
لقد ناهز النمائين — فمكر فقط في هذا النعد الكبير من السنين ! فليصبح شاذ
الطباع اذن — ذلك لن يؤذي احدا . اما انا وانت — فكن على ثقة من انني
ساكسب دوما ما يدفع عنا غائلة الموت جوعا .

وأصبحت اكسب ، بدوري ، بعض المال ، فما ان يشرق يوم الاحد
حتى احمّل كيسا على ظهري واتجول في الشوارع والساحات اجمع العظام،
والخرق . والمسامر ، والاوراق . كانوا يدفعون لنا عشرين كوبيكا مقابل كل
حزمة من الخرق والاوراق وقطع المعن ، وثمانى او عشر كوبيكات مقابل كل
حزمة من العظام . ثم اصبحت اجمع هذه الاشياء من الطرقات بعد خروجي
من المدرسة ، فأربح كل يوم سبت من ثلاثين حتى خمسين كوبيكا .

وكانت جدتي تأخذ المال مني : وتودعه جيب قميصها : وتطرف بعينها
وهي تكافئني بكلمات المديح :

— شكرا ، أيها العصفور الصغير ! فلن نجوع ، لا انا ولا أنت ، ابدا . .
الليس كذلك ؟

وفي ذات يوم ، فاجئتها وهي تشخص الى قطع الخبس كوبيكات التي
أملكها وتبكي وقد علقت دمة براءة عند نهاية انفها . .

ولكني وجدت ان ارباح المتاجرة بالخرق اقل مما استطيع كسبه من
سرقة الواح الخشب من منجرة تقع على ضفاف نهر الاوكا ، حيث تجري
التجارة بالمعادن خلال السوق السنوي تحت خيامات مصنوعة من الخشب .
وعندما كان ينتهي السوق كانت تلك الخيامات تفكك وتكدس الواحها فوق
بعضها البعض وتبقى على أرض الجزيرة حتى صعود مياه النهر في الربيع .
وكانوا يدفعون لنا عشر كوبيكات لقاء كل لوح جيد ، ونحن كنا نستطيع ان

نسرق لوحين او ثلاثة يوميا . ولكن عملية السرقة يجب ان تجري على اية حال في الايام الماطرة حتى يحتمي الحراس داخل الابواب .

كنت اعمل مع عصابة لطيفة من زملائي ، في عدادها سانكافيا الملقب بالحماة ، وهو صبي في العاشرة من العمر ، كان ابنها لامراة متسولة من مردانيا ، هادىء الحركة أبدا ، مرح الطبيعة دائما . وكان هناك ايضا اليتيم كوستروما ، وهو صبي شديد التحول كثير العصبية ، واسع العينين السوداوين . . . ولقد شئق نفسه فيما بعد ، عندما كان في الثالثة عشرة ، في اصلاحية للماحداث ارسل اليها لسرقته زوجا من الحمام . وكان هناك التتري خابي ، وهو شمشنو في الثانية عشرة من العمر يجمع الى القوة الخارقة نفسا طيبة ساذجة . وكان هناك ياز ذو الانف الافطس ، وهو صبي يبلغ النامنة من العمر ، صامتا أبدا ومصابا بـ « الداء الاسود » كان أبوه حفارا للقبور وحارسا للمقبرة في وقت واحد . وأخيرا كان هناك اكبر افراد عصابتنا ، وهو شخص اختصاصه في توجيه الاوامر يدعى ريشكا شوركا ، كانت امه ارملة تشتغل بالخياطة . وكنا جميعا نعيش في الشارع نفسه .

ولم تكن السرقة تعتبر جريمة في حيننا ، بل كانت الوسيلة العادية ، والوحيدة تقريبا ، التي يستطيع بها اكثر البورجوازيين الصغار المتضجرين جوعا ان يحصلوا على القوت . كانت الايام الخمسة والاربعون التي تقام خلالها السوق السنوية لا تكفي لتطعمهم طوال السنة بحيث كان عدد كبير بصطادون الواح الخشب وقطع الحطب التي يحملها المد معه ، او ينقلون البضائع الخفيفة على عوامات صغيرة . . . ولكنهم كانوا يعمدون الى السرقة في المحل الاول . . . يسبلون الارصفة والقوارب وضفاف النهر وكل ما تناله أيديهم . وفي ايام الاحاد كان الكبار يتباهون بنجاحهم . أما الصغار فيستمعون اليهم ويتعلمون منهم الدروس الباهرة .

خلال الاسابيع المليئة بالعمل اثناء الربيع التي يجري فيها الاستعداد للسوق ، كان بعض العمال يملأون الشوارع بعد عمل النهار المضني . وعندئذ كان اولاد الحي ينطلقون في استكشاف الجيوب ، وهو عمل كان مشروعا في اعين الجميع يجري تحت انظار الكبار الذين يلاحظونه في لامبالاة .

اعلن شوركا ذات يوم :

— اني لن اسرق بعد اليوم ، فامي لا تسمح لي بذلك .

وأضاف آخر :

— وانا اخاف من ارتكاب اية سرقة .

كان كوستروما يحتقر اللصوص ويلفظ كلمة « اللص » وهو يشد عليها بصورة غريبة ، فهو عندما يقع على بعض الصبية وهم يسلبون السكاري يطاردهم وينهال عليهم ضربا دون هوادة او رحمة . كان هذا الصبي الكتيب الواسع المعين يتصرف أبدا وكأنه أحد الكبار . فيسير وهو يترنح مثل الحمالين ويجرب ان يجعل صوته عميقا قاسيا . والحقيقة ان شيئا مشدودا ، منا ، غير طبيعي ، كان يبدو في شخصه كله . أما الملقب بالحمامة فكان مقتنعا بان السرقة خطيئة لا تغتفر . . ولكن انتشار المواح الخشب والمعاميد من جزيرة « الرمال » كان مسموحا به فلم يكن احد منا يخاف من ارتكابه ، بل اننا اخبرنا طرقا عديدة كانت تيسر علينا ذلك العمل كثيرا . كان اثنان منا ينطلقان اذا ما هبط المساء وخيم الظلام ، او في أيام الضباب الكثيف ايضا ، نحو الجزيرة فوق الجليد الموحد . كانا يذهبان بصورة ظاهرة ساعيين الى اجتذاب انتباه الحراس ، بينما ينطلق اربعتنا زحفا من جوانب مختلفة دون ان يشعر احد بنا ، وبينما يعني الحراس بمراقبة الآخرين كنا نجتمع في المكان المعين ونختار الواحنا . . ومن ثم ، في حين يخضع رفيقنا الحراس ويهربان منهم ، كنا نحن — بكل هدوء — نختار طريق العودة . وكان كل منا يملك حبلا ينتهي في احد طرفيه مسمار ضخيم منحني على شكل الكلاب كنا نربط اللوح لنجره بعد ذلك على الثلج والجليد . نصادرا ما كان الحراس يروننا . فان فعلوا كانوا عاجزين عن الإمساك بنا . ولدى بيع القيمة كنا نقسم الرصيد الى ست حصص متساوية ، وكان ثمن اللوح عادة يبلغ خمس او سبع كوبيكات .

كان هذا يكفي كي ناكل ما شئنا طوال يوم واحد ، ولكن ام رفيقنا الملقب بالحمامة كانت تجلده ان لم يجلب اليها شيئا من الفودكا معه . وكان كوستروما يوفر ارباحه كي يستطيع في المستقبل ان يحقق أحلامه في تربية الحمام . وكانت ام ثوركا مريضة ، فهو اذن في أمس الحاجة الى كل ما يستطيع ان يربحه من أجلها . أما خابي فكان يوفر المال ايضا كي يرجع الى المدينة التي جاء به منها عم له غرق بعد وصوله الى المدينة .

ولسبب ما وجدنا فكرة المدينة مسلية مضحكة ، فكنا نهزأ بالتتري

ذي العينين المنحرفتين • ونشدد له على الدوام حين نلتقيه :

« هناك مدينة جد جميلة ،

لكنه لا يعرف أين هي

هنا أم هناك ، أم في الهواء »

وكان خابي يغضب منا في اول الامر ، ولكن الحماسة قال له يوما :

— دعك من هذا الان • من الذي سمع عن رغاف يغضبون من بعضهم؟

فخجل السري • وقبل التائب بطيبة خاطر • ومنذ ذلك الحين أصبح
ينشد وایانا تلك الاغنية •

ولكننا بقينا نفضل جمع الخرق على سرقة اللواح • ولقد أصبح ذلك
العمل مثيرا جدا للاهتمام في الربيع عندما ذابت الثلوج وغسلت الأمطار
الشوارع المرصوفة في السوق المهجور • • وكنا نستطيع دوما ان نجد نسي
أرض السوق كميات كبيرة من المسامير وقطع المعدن والخرق ، وبصورة
خاصة في مجاري المياه • وكثيرا ما كنا نعثر على بعض القطع النحاسية او
الفضية ايضا • ولكن الحراس كانوا يلاحقوننا وينزعون الاكياس منا اذا لم
نعطهم كوبيكين في كل مرة ، وعلى العموم ، لم يكن كسب المال بالامر البسر ،
ولكننا أصبحنا أفضل الاصدقاء في جهودنا المشتركة في سبيل الحصول عليه .
وكان الخصام ينشب بيننا في بعض الاحايين ، ولكنني لا أتذكر اننا تقاتلنا مرة
واحده •

كان الحماسة يلعب دور المصلح بيننا دوما • كان أبدا يجد الكلمات
المناسبة كي يهدى من اعصابنا واحتياجنا • • كلمات بسيطة كانت ، بالرغم
من كل شيء ، تدهشنا وتجعلنا نخجل من أنفسنا • وكأن هو نفسه يبدو
مدهوشا عندما يتفوه بها • لم يكن يستاء أبدا من الاعيب ياز الوضيعة ، بل
يغض النظر بهدوء عن كل شيء تافه على اعتباره سخيفا عديم الجدوى •
كان يسأل :

— لماذا اقدمت على فعل هذا الشيء ؟

فيتضح لكل واحد منا ان ذلك الفعل لم يكن له معنى حقا • • •

وكان يسمى أمه " مرداميني " . لكن احدا منا لم يكن يجد في ذلك ما
يضحك . كان يضحك وعيناه الصغيرتان الذهبيا اللون تسعان . وهو
يحدثنا قائلًا :

— في الليلة الماضية عادت مردافيني الى الدار مشربة خمر مدل دجاجة
مبتلة . وسقطت على عتبة الباب واضطجعت هناك تغني بملء عقيرتها . يا
لها من دجاجة عجوز !

فيسأله شوركا جادا :

— وماذا تغني ؟

فيضرب رفيقنا على ركبتيه في نوافي مع الموسيقى ، وهو ينشد أغنيته
أمه بصوت مرتفع رفيع :

« الراعي دق على بابي ..
فمشيت وحدي للغاب ..
والراعي ينشد للجسارة
آه ما أحلى مزمزاره ! »

كان يعرف عددا كبيرا من الاغاني المرحية فونشدنا اياها في حماسة
واندفاع ، واسترسل يقول :

— نعم ! ولقد استغرقت في النوم هناك على العتبة ، والريح الباردة
تدخل الى الغرفة بحرية تامة . وانا ارتجف واكاد اتجمد من البرد لاني لا
استطيع ان اجريها الى الدار . لقد قلت لها هذا الصباح : « ماذا تتوخين
من السكر هكذا ؟ » . فاجابت : « ما هم . جرب ان تتحمل ذلك بعض
الوقت ايضا ، فاني سرعان ما سأموت ! » .
فاكد شوركا في خطورة :

— بكل تأكيد ! سوف لن تعيش طويلا ! انبلا ترى كيف انتفخت ؟

سألت بدوري :

— هل ستأسف لذلك ؟

— بكل تأكيد ! لقد كانت اما طيبة لي .

وبالرغم من الحقيقة التى كنا جميعا نعرفها ، الا وهى ان المورداقية
ضرب ابنها كثيرا ، فقد كنا على يقين من طيبة معدنها . ولقد كان شوركا
تترح في الايام حيث تكون ارباحنا قليلة :

— فليعط كل منا كوبىكا واحدا كي نبتاع قليلا من الفودكا لام زميلنا
لحمامة ، كي لا تجلده .

كنت وشوركا الوحيدين الذين نعرف القراءة والكتابة ، وكان الحمامة
حسدنا على هذا ، وهو بشد على اذنه المدببة الشبيهة بأذن الفار :

— عندما تموت موردافيتى سأذهب الى المدرسة أيضا . سوف أرجو
لاستاذ واقبل قدميه كي يقبلني . ثم عندما أنتهى سأصبح بستانيا عند
لاستف . وربما عند القيصر نفسه .

وفي ذلك الربيع ، قتلت المورداقية مع عجوز كان يجمع التبرعات لثناء
نيسة جديدة ، عندما سقطت عليها كومة من الاخشاب ونقلت المرأة الى
لمستشفى ، فقال شوركا للحمامة :

— تعال واسكن معنا . ولسوف تعلمك امى القراءة .

كان حبه الفائق للاشجار والاعشاب بدهشنا ويسلبنا ...

كان حيننا رمليا فلا يجد المرء فيه الا قليلا من الخضرة ، الا بعض اشجار
لصفصاف الهزيلة هنا وهناك فى ارض الباحات ، او بعض فروع البيلسان
اللتوية احيانا . وقليل من العشب الجاف المختفى تحت الاسورا . وعندما
كان احدهنا يجلس على هذا العشب ، كان الحمامة بوبخنا غاضبا :

— لماذا تفسدون العشب ؟ الا تستطيعون الجلوس على الرمل ؟ ذلك
سواء لدبكم ؟

وكنا نتردد في حضوره في اقتطاع غصن من البيلسان الزهر او غصن
من الصفصاف المتفرع على ضفاف النهر . كان يقول لنا عندئذ ، وهو يهز
كتفيه في ذهول :

— لماذا تفسدون الاشياء دوما ، ابها الشباطين ؟

كان ذلك الذمول يخلجنا ...

كنا نجمع ، طوال الاسبوع ، الاحذية المتيقة البالية من الطرقات استعدادا لرياضة ايام السبت ، حيث كنا نخبىء في المساء في احد الشوارع ننتظر ان يغادر الحمالون التتار الرصيف كي نرميهم بالاحذية . وكانوا في البدء مغضوبين ، فبلعنونا ويطاردونا ، ولكن سرعان ما استهوتهم التسلية دورهم ، فكاوا يسلحون انفسهم بالاحذية البالية ايضا استعدادا للمعركة القادمة ، لا بل كانوا يسرقون احيانا مخزننا بعد ان اكتشفوا المكان الذي نضع فيه الاحذية . ولكننا اعترضنا على ذلك ، فقتلنا :

— هذا ليس لعبا .

وعندئذ كانوا يقاسموننا السرقة ، ثم تبدأ المعركة . وكانوا يتخذون بالاحذية البالية . وكانوا يصرخون بدورهم وينفجرون ضاحكين كلما دفن احدا انفه في الرمل وقد اصابته قذيفة .

كان اللعب يسمر احيانا حتى حلول الظلام . وكان بعض البورجوازيين الصغار يتفرجون علينا محتمين بأحد المنعطفات ، وهم يحتجبون على اقلاق راحة الناس . ولكن الاحذية كانت لا تنقطع عن الطيران في الهواء اشبه ما تكون بعصافير رمادة مغبرة . وكان احدا احيانا ينال صفقة قاسية ، ولكن لذة القتال تعوضه عن كل السم .

وكان التتار بجاروننا في حماستنا ، فاذا انتهى القتال كما نرافقهم احيانا حتى الست حيث كانوا يقدمون لنا صحنونا من لحم الخيل مع نوع خاص من الخضار المطبوخة . ويقدمون لنا بعده شايا كثيفا ونوعا من اللوز . كنا محرمين حدا بهؤلاء الرجال العمالقة الذين يبدو كل منهم اقوى من الآخر ، فخذ كان فيهم شيء طفولي وطبيعي ... وقد تأثرت خاصة عندما وجدتهم لا يستأثرون أبدا من بعضهم ، بل هم يتعاملون بلطف واحترام دائما .

كان جميع التتاريين يضحكون كثيرا ... يضحكون حتى تسيل الدموع على وجناتهم . وكان احدهم مخطم الانف ، خرافى القوة ، لقد حمل ذات يوم جرس كنيسة نزن قنطارين من أحد المراكب حتى ضفاف النهر نزمجر عندما يضحك ولا ينقطع عن الصياح والتفوه بها لا يتمكن من فهمه .

وفي ذات يوم ، حمل الضمامة على راحة يده ورفعها عاليا في الهواء ، وقال :

— اذهب وعش هناك في السماء !

وفي الايام الماطرة كنا نجتمع في البيت الصغير في الخبرة حيث يعيش
ياز مع والده . كان ابوه هذا رجلا طويل الذراعين ، نغطى جمجمته ووجهه
خصل من شعره القذر . كان رأسه يشبه رأسا من اللفت يقوم على عنقه
المتعظم الهزيل . كان يضيق عينيه الصفراوين بصورة مبهجة ، ويفهم بسرعة :
— فليحفظنا الله من الليالي المؤرقة .

وابتعدنا شيئا من الشاي وبعض السكر والخبر وقليلًا من الفودكا لوالد
ياز . . . وكان شوركا يعطي التعليمات باستمرار :

— انتبهوا أعينكم جيدا . بعد غد ستقام في دار آل تروسوف
وليمة احتفالية احياء لذكرى احدثهم . ولسوف يكون هناك كميات كبيرة
من العظام .

فيقول شوركا ، ولديه الخبر اليقين دائما :

— ان طبخة آل تروسوف تحتفظ بالعظام لنفسها على الدوام !

ويقول الحمامة متأملا :

— سرعان ما سيصبح الطقس جيدا فنستطيع الخروج الى الغابات .

كان ياز نادرا ما يتكلم ، بل هو يراقبنا في سكون بعينه الكثيئين .

ويهيئ والده المائدة ، فضع عليها اقداحا مختلفة الاشكال ، ثم يحمل
اليها المصباح . ويصب حوسروما الشاي ، بينما بحثسي العجوز حصته من
الفودكا ، ويتسلى على المود يتطلع بنا من عل بعينين كعيني اليوم ، وهو
بفهمهم :

— الا فلتحل اللعنة عليكم ! انتم كائنات بشرية ، ام ماذا ؟ عصه
حزمة من اللصوص ، فليحفظنا الله من الليالي المؤرقة .

ويقول الحمامة :

— رلكننا لسنا لصووبا !

— لصوص صغار اذن ؟

وعندما يرهق والد ياز أعصابنا ، كان شوركا يصيح به في قسوة :

— اخرس ، أيها الموجيك اللثيم !

كنا لا نطيعه ولا نطيع الاستماع اليه وهو يعدد مرضى الحي ، ويتساءل
عمن سيموت منهم قبل الآخر . كان يخال لنا انه يمتص شغفيه في انتظار ذلك
الحادث دون ان تعرف الشفقة طريقا الى قلبه ، وعندما يرى أن أقاصيصه
تضايقنا كان يتعمد ازعاجنا ، فيروح يسخر منا .

— انكم تخافون ، أيتها الحشرات الصغيرة ! ان هناك رجلا كبيرا سمينا
سوف يموت عما قريب .

ونحاول اسكاته ، ولكنه يسترسل قائلا :

— ولسوف ياتي دوركم عما قريب ، فلا تنتظروا ان نعيشوا طويلا فوق
هذه الاكداس من الاقدار حيث تعبثون .

فيقول الحمامة :

— حسنا ، سوف نموت . ولسوف نصبح ملائكة .

فيقول والد ياز مدهوشا :

— أنتم ؟ ملائكة ؟

ومن ثم ينفجر ضاحكا ، ويعود فيعذبنا بأقاصيصه المقيته عن الموتى
والجثث :

— اسمعوا ، أيها الفتيان ! لقد دفنوا بالأمس سيدة ذات قصة عجيبة .
ولقد اكشفت كل شيء عنها ، ما رأيكم في ذلك ؟

كان كثيرا ما بتكلم عن النساء وبصورة بذينة دوما . ولكن شبيبا من
الشك أو التساؤل كان يتسرب الى أقاصيصه ، وكأنه يتوجه اليها كي نساعد
على فهم ذلك جدا . وكنا نصغى اليه بانتباه ، وهو يتحدث فيقطع حديثه
كثيرا كي يطرح علينا الاسئلة . ولكن ما يقوله كان بترك دوما اشياء مثيرة
في ذاكرتنا .

كان يعرف قصة حياة كل من دفنهم في أرض تلك المقبرة المهجورة .
وعندما كان يتحدث ، فكانه كان يفتح أمامنا أبواب المنازل المحيطة بنا ، ندخل
اليها ونشاهد حياة سكانها ، ونحس شيئا رهيبا خطيرا في هذا العمل .
وكان يبدو قادرا على الحديث طوال الليل ، ولكن شوركا كان بهب واقفا
عندما يقترب الظلام من النوافذ ، ويقول :

— اني ذاهب الى الدار — فلسوف تقلق امي . من يرافقني ؟

ورافقه جميعا ... فيصحبنا ياز حتى السور .

فنرد السلام عليه منزعجين من تركنا اياه في المقبرة . وفي ذات مساء ،
تطلع كوستروما الى الخلف ، وقال :

— سوف نستيقظ ذات صباح فنجده ميتا .

كان شوركا غالبا ما يدعى ان ياز يعيش حياة اسوأ من حياتنا جميعا ،
فيعترض الحماة عليه :

— نحن لا نعيش بصورة سيئة ابدا .

وكننت اوافقه على ذلك . كنت اتمتع بحياة الشوارع المستقلة كما كنت
مولعا برفاقي ، تملأني صحبتنا بشعور عظيم جديد يوحى الى الرغبة الدائمة
في مساعدتهم جميعا ...

وعدت الاثني المصاعب في المدرسة ، فطفق التلاميذ يلقبونني بالشحاذ
وجامع الخرق ، ثم أعلنوا للاستاذ بعد شجار نشب بيننا ان رائحة منتنة
تفوح مني بشدة حتى يستحيل الجلوس الى جانبي . وما زلت أتذكر كم ألمني
ذلك الافتراء ، وكهم صعب على ان أعود الى المدرسة بعد ذلك . كانت
الشكوى افتراء حقيرا لانني كنت دائما اغتسل بعناية فائقة كل صباح ، ولا
أروح الى المدرسة ابدا في ذات الثياب التي ارتديها عند جمع الخرق .

وأخيرا ، اجتزت امتحانات الصف الثالث بنجاح كوفئت عليه بشهادة
شرفية وهدية التوراة ، وكتاب خرافات كريلوف ، وكتاب آخر يحمل
عنوانا غامضا « غاتا مورجانا » . وعندما حملت هذه الهدايا الى الدار ،
تأثر جددي كثيرا بها ، وشعر بفرح عظيم فاعلن ان من واجبنا الاحتفاظ

بالكتب في حزر امين ، وانه في سبيل ذلك سيحفظها في دولابه . وكانت جدتي تلازم السرير لمرض الم بها منذ ايام ، بينما جدي يزجرفي وجهها ابدا ويعوي :
— لسوف تخربين بيتي ! فتاكلين وتشربين على حسابي . . .

وهكذا اخذت الكتب الى احد الباعة فاشترها مني بخمسة وعشرين كوبيكا عدت بها الى جدتي .

وعندما انتهت المدرسة ، عدت الى حياة الشوارع التي امست مع قدوم الربيع اكثر سحرا وروعة . . . واصبنا الان نكسب كمية اكبر من المال ، وفي ايام الاحاد نذهب جميعا الى الحقول والغابات ، وقد زادت اواصر الصداقة فيما بيننا .

غير ان هذه الحياة لم تطل كثيرا ، اذ ما لبث زوج امي ان فقد عمله فغادرنا مرة اخرى الى مكان ما ، فجمعت امي واخي الصغير نيقولا ليقيما مع جدي . ولما كانت جدتي قد ذهبت للقامة في دار تاجر ثري كانت تطرز له غطاء لجسد المسيح ، فقد كان علي ان اعني بتمريض اخي الصغير .

كانت امي الساكنة دوما تكاد لا تجد القوة لرفع قدميها عن الارض ، بينما اصيب اخي بقروح في مرمقيه ، شديد الضعف حتى ليعجز عن البكاء ، فان جاع راح يئن بصورة مستمرة ، وان لم يكن جائعا فهو يغفو ويصعد زفرات متقطعة .

قال جدي ذات يوم ، بعد ان تفحص الرضيع طويلا :

— ان ما يحتاج اليه هو الغذاء الحسن ! ولكن من أين لي كي اطعمكم جميعا !

فاجابت امي ، وهي تتنهد :

— انه لا يحتاج الى شيء كثير !

— هذا صغير . . وذاك صغير . .

ولوح بده في قرف وتوجه الى قائلا :

— ان نيقولا يحتاج الى الشمس ، فاخرج به على الرمال . . .

أخذت كيسا من رمل جاف نظيف ، وكومته في بقعه مسمه حسن النافذه ، ومن ثم دفنت أخي فيه حتى المغنى مثلما امرني جدي ، فبدأ على الرضيع انه احب ذلك ... فكان يطرف بعينيه راغبا ، ويمرر بعينين مذهنتين .

أصبحت معرما جدا باحى ... اطن انه يعهم كل افكاري ، ماسلني الى جانبه ساعات طويلة حب النافذه التي يتناهى الي منها صوب ابي المدوي :

... ان الموت لا يكلف تفكيرا طويلا . لـ كنست مقط سلكين ما يكفي من الذكاء كي معرفي كيف نعيشين الان ...

وكان نيقولاي بحرر ذراعيه المعيرنين ويرفعهما نحوي ، وهو يشير برأسه الشاحب . واذا اقترب منا قط او حوص ، راح نيقولاي يراقبه باننباه مركز ثم يستدير الى وعلى شففيه ابسامة ناحلة . كانت هذه الإبسامة نعلقتني ... ايكن ان اخي قد أدرك مبلغ ضجري من الجلوس ههنا الى جانبه ، وهل يفهم ان ما ارغب فيه هو التخلص منه واللحاق باصدقائي في الشارع ؟

كانت الباحة صغيرة ملاي بمخلف الانقاس ، والخروف ، وعدد من المظلات المهترئة ، واشمياء أخرى سواها تمتد من البوابه حتى عرفة الحمام في أقصى الباحة ... وكانت السطوح مزدحمة بألواح من الخشب والعد وحطام القوارب والنجارة المبلولة ، وجميعها صيد من النهر ايام الفيضان بعد ذوبان الثلوج في الربيع . وكانت الباحة بأسرها مزروعة بقطع من الخشب تفوح منها رائحة العفن عندما تضربها الشمس .

وكان البيت المجاور لنا مذبحا صغيرا يأتينا منه في كل صباح تقريبا خوار البقر ، وثغاء الخراف ، ورائحة الدم التي كان يخيل الي لشدتها انها تعلق في الهواء مثل شبكة دقيقة .

وعندما كانت صبحات الحيوانات تخرس بضربة من قضيب حديدي تنهال بين قرونها ، كان نيقولاي يقطب جبسه ويمد شففيه فكانه يحاول ان يقلد أصوات الحيوانات ، فلا ينجح الا في اخراج صوت ضئيل غير مفهوم . وعند الظهيرة ، كان جدي يمد رأسه من خلال النافذه وينادي : « الغداء ! » .

وكان هو نفسه يأخذ الرضيع على ركبتيه ويطعمه ، يمزج الخبز والبطاطا له قبل ان يدفعها بين شفتيه الرقيقين ، وهو يلوث له فمه وذنته الصغيرة ويقول :

— أنساءل ان كان هذا يكفي .

مقول امي من الزاوية المظلمة حيث ترقد :

— أفلست برى انه يمد يديه الى الخبز ؟

— ان الطفل لا يعرف ان كان قد نال حاجته أم لا .

ولكنه كان يدفع لقمة اخرى في فم الصغير بالرغم من ذلك . ويقول جدي اخيرا :

— حسنا ! خذه الى امه الان .

وعندما كنت آخذ نيقولا بين ذراعي ، كان يئن ويعد ذراعيه نحو المائدة . وكانت امي ، وقد نحلت بشكل مخيف ، تنهض نفسها لتلقاني وهي نهد ذراعيها الطويلين العاريين من اللحم .

ونادرا ما كانت تنكلم . أما الكلمات القليلة التي تنفوه بها فتندرج بسرعة من صدر مسلول ...

كانت ترقد طول النهار في مسكون وتموت ببطء في تلك الزاوية .

كنت أحس انها تشرف على الموت ، وجدي يوضح ذلك بكثرة حديثه عن الموت ، واصراره على ذكره دون انقطاع .

كان سرير جدي يقوم في الزاوية تحت الايقونات تقريبا ، وكان ينام ورأسه الى النافذة ، وقبل ان يستسلم للنوم يروح يغفم بينه وبين نفسه :

— حسنا ! لقد حان اوان الموت ، ولسوف نقدم الى خالقنا مشهدا رائعا . ماذا عسانا ان نقول ؟ لكأنني أشتغل طوال حياتي — أعمل دوما شيئا ما . وهذا ما نتج من ذلك !

كنت أنام على الارض بين الموقد والنافذة ، وكانت المساحة قصيرة جدا

بالنسبة الي ، فاضطر الى دفع قدمي تحت الموقد حيث لا تنقطع الصراير
عن دغدغة جلدي . كان جدي ، وهو يطهو الطعام ؛ يكرس أبدا زجاج النافذة
بالطرف الاخر من ملقط النار الذي يدفع به اوعية الطعام من الفرن واليه .
كان من الغريب والمضحك ان رجلا ذكيا مثله لم يفكر في قطع الطرف الاخر من
الملقط للتخلص من اذاه .

وفي ذات يوم ، بينما كان شيء ما يغلي على الفرن ، دفع بالملقط
بشدة حتى كسر الوعاء وحطم مصراع النافذة ولوحين من الزجاج . وكان
ذلك مصيبة عظيمة خصوصا بعد ان جلس المعجوز على الارض وشرع يبكي .
وعندما ترك البيت اخيرا ، تناولت سكين الخبز وقطعت نهاية الملقط . . .

ساح جدي ، عندما رجع ورأى ما فعلت :

— ايها اللعين ، كان يجب ان تنشره ، هل تسمع ؟ تنشره بالمنشار !
كان يمكن ان نصنع من قطعه بعض الدبابيس ونبيعها . الا تبا لهذه العائلة
المبذرة !

وقالت امي عندما خرج مسرعا الى الرواق :

— الافضل الا تهد يدك الى اي شيء مهما كان .

ماتت امي ظهر يوم أحد من شهر اب . كان زوجها قد عاد حديثا من
رحلته ووجد عملا ، وقد انتقلت جدتي ونيقولاى واياه الى جناح نظيف صغير
يقع بعد المحطة حيث كانوا سينقلون امي بعد أيام قليلة . . .

و في صبيحة اليوم الذي ماتت فيه ، قالت لي بصوت ضعيف :

— اذهب وقل ليفجيني فاسيليفيتش اني أريد ان اراه .

وجلسنت ، وهي تعتبد على الحائط لتسند نفسها . . .

واستطردت ، وهي تعود فتسقط على الوسائد :

— اركض سريعا !

خيل الي انها كانت تبتمسم وان نورا جديدا كان يلعب في عينيها . كان

زوج أمي في الكنيسة فأرسلني جدتي إلى اليهودية كسي أشتري بعض
السعوط . ولم يكن لدى هذه الأخيرة شيء منه ، فكان علي أن أنتظر تهيئته .
عندما عدت أخيرا إلى بيت والدي ، وجدت أمي جالسة إلى المائدة
تربدي ثوبا نظيفا . وقد سرحت شعرها بعناية ، فخوره متكبره مثلما كانت
عليه عيها مضي .

سألتها خجولا ، دون أن ادري سبب ذلك :

— هل أنت أحسن من ذي قبل ؟

فقلت : وهي ترمقني :

— تعال هنا . أين كنت حتى هذه الساعة ؟

وقبل أن أجد الوقت الكافي للإجابة ، أمسكت بي من شعري وحاولت
أن تضربني فلم تتمكن من ذلك . تم دفعتني ، وذهبت وجلست على حافة
الموقد ورحت أراقبها بعينين مذعورتين .

قامت عن مقعدها . ومنست ببطء نحو الزاوية حيث رقدت على
السريр وشرعت تجفف العرق المصبب على وجهها . كانت يدها تتحرك في
اضطراب . كما سقطت مرنين على الوسادة والمنديل يرتجف بين أصابعها .

— قليلا من الماء ...

قدمت لها غدح ماء من السطل . فابتلعت جرعة وهي ترفع رأسها
بمسعوية خلية . ودفعني عنها بيد باردة وصعدت زفرة عميقة . نظرت إلى
الانقنات في الزاوية . ثم تطلعت إلى : وحركت شففيها وكأنها نتسم : ثم
أدبت جفنيها الطويلين على عينيها . كان مرفقاها مشدودين إلى جانبيها .
بينما ارتفعت بداها إلى صدرها . ومر ظل على وجهها ، بينما فتحت فمها
في دهشة .

يقف هناك وقتا بدا لي أنه أجيال كثيرة لا حصر لها . والفتح في يدي
: أنت . يحه أمي وهو سحلب وبكسي باللون الرمادي .

دخار جدي . قلت :

— لقد ماتت أمي .

فأحباب ، وهو يلقي نظرة سريعة على السرير :

— لماذا تكذب ؟

ثم اتجه الى الفرن وراح يحرك الفطير وهو يثير ضجيجا مملا :

راقبته ، وأنا أعلم أن أمي قد ماتت ، وانتظر أن يتحقق من ذلك .

ودخل زوج أمي ، وهو يرتدي معطفاً صوفياً أبيض ويغطي رأسه بقبعة . تناول بكل هدوء مقعداً وحمله الى جانب سرير أمي . بغتة ، أسقط المقعد من يده ، وصاح :

— لقد ماتت !

فترنح جدي في اتجاه السرير ، والمقط في يده ، وعيناه تكادان أن تنفزا من محجريهما .

عندما بدأوا يجرفون الرمل على نعش أمي ، راحت جدتي تنتقل على غير هدى بين القبور الأخرى . . فتعثرت بأحد الصلبان ، وسقطت على وجهها الذي تأذى من ذلك . أخذها والد ياز الى بيته ، وبينما هي تغسل جرحها كان هو يهمس في أذني بهدوء بكلمات معزية :

— فليحفظنا الله من الليالي المؤرقة ! ما بالك ؟ يجب ألا تشغل بالك بمثل هذا الأمر . الست على حق ، أبتها الجدة ؟ أن الفقير والغنى بذهبان جميعا الى الحفرة .

عندما انتهت جدتي من الاغتسال ، لفته منديلا حول وجهها المنتفخ ودعنتي كي أرافقتها الى الدار . لكنني رفضت . . . فقد كنت أعلم أنهم سيشرّبون ويتقاتلون في خلال الوليمة التي تتلو الماتم . كنا في الكنيسة بعد عندما سمعت الخال ميخائيل يقول للخال ياكوف :

— حسنا ! سوف نتناول قدحا لا بأس به هذا النهار ، ما ؟

فجرب الحماة أن يخفف عني بتعليق المهاز ومحاولة الوصول اليه

بلسانيه ، فطفق والد ياز يضحك ضحكا واضح البالغة ، وهو يصيح :

— انظروا فقط ما هو فاعل ، انظروا فقط !

لكنه عندما راي فاعل ذلك في تسليتي ، انقلب جادا وقال :

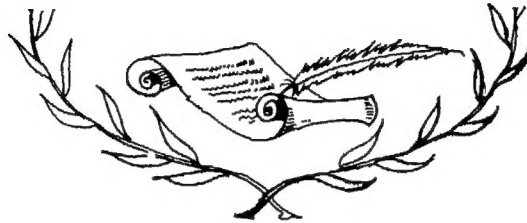
— كفى ، كفى ! تمالك نفسك ! لا بد لكل انسان ان يموت ! حتى
العصافير تموت ! ان كنت تريد ذلك فسوف اضع بعض العشب حول قبر
امك . هل تحب ذلك ؟ سوف نذهب الى الحقول الان ونجمع ذلك العشب .
سوف نقتطع العشب ونضعه حول القبر . ولن يكون هناك قبر اخر ينازعه
جمالا .

اعجبتني هذه الفكرة ، فذهبنا جميعا الى الحقول ...

بعد أيام من وفاة والدتي قال لي جدي :

— حسنا ، يا الكسي ! اني بالضبط لا استطيع ان ابقىك مدالية معلقة
في عنقي . ليس لك من مكان بعد اليوم ههنا ، فقد آن لك ان تخرج الى ما
بين الناس ...

وهكذا خرجت الى العالم ...



الادباء العرب

١٩٩٧



منشورات دارمکتبة الحياة
بيروت - لبنان